الغث من القول

الغث من القول

تأليف :
د.أحمد خالد توفيق

تصميم الغلاف:
أحمد مراد

رقم الإيداع: 2017/9061
الترقيم الدولي: 978-977-820-019-5

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع
٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم
هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772
هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com
الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الغث من القول

د.أحمد خالد توفيق

مقدمة

الغث - حسب مختار الصحاح - هو اللحم الهزيل أو الحديث الرديء الفاسد، وهو كما نرى عنوان مناسب ومغر جدًا لسلسلة المقالات هذه. من طرق الدفاع الخبيثة عن النفس أن تكون قاسيًا مع نفسك، فهذا يجعل خصمك يدخر جهده منذ البداية. تذكرت فيلم رسوم متحركة قديمًا، كان بطله كلما حوصر بفتوات يريدون ضربه يوجه لنفسه علقة ساخنة جدًا، مما يجعلهم يهزون رءوسهم في حيرة ويرحلون..

هل يعني هذا أنها غثة فعلاً؟.. بالطبع لا.. لو كنت موقنًا منذ البداية أنها غثة كلها لما طلبت منك أن تقرأها، فمن الصفاقة أن أطلب منك قراءة شيء أعتقد أنه خال من النفع. فيها لحم وبعضها ممتع أو يدعو للتفكير..

هل يعني هذا أنها مقالات رائعة؟.. بالطبع لا.. فيها الكثير من الصدق والحرارة، لكن هذا لا يمنحها تاج الروعة أو عرش التميز.. إنها كما قلت تحمل مزية الصدق، وتحمل مزية أن هناك جهات نشر طالبتني بها، وتكرمت بنشرها. وهناك قراء تكرموا بالبحث عنها ومتابعتها ومناقشتها. هذا جعل لها قيمة ما.

نشرت هذه المقالات في أماكن متفرقة؛ وإن كان معظمها في جريدة الدستور قبل اغتيالها، وفي موقع (بص وطل) على شبكة الإنترنت. يمكنك أن تجد كل حرف كتبته على شبكة الإنترنت، لكنني في النهاية ابن الكتاب وربيبه، ولا أؤمن أنني كتبت شيئًا ما لم أمسك به مطبوعًا على ورق جميل.. تضع خطًا أو تثني

صفحـة أو تسـكب كـوب الشـاي عـلى الصفحـة. هـذا هـو اخـتراع الخواجـة (جوتنـبرج) في كامـل عنفوانـه ومجـده. لا يمكنـك أن تشـعر بالـشيء ذاتـه في الفضـاء السـايبري حيـث أفـكارك مجـرد ومضـات الكترونيـة وتباديـل بـين علامـة الواحـد والصفـر.. دعـك مـن الحاجـة البشريـة الطبيعيـة لأن تضـع كل أولادك تحـت سـقف واحـد.

أمـا عـن الانتقـاء مـن هـذا الكـم المرعـب مـن المقـالات، فقـد كان سـهلاً نسـبيًا.. هنـاك مقـالات عديـدة بـردت مواضيعهـا الـتي كانـت سـاخنة جـدًا وقتهـا (مثـل مقـالات انفلونـزا الخنازيـر العديـدة)، وهنـاك مقـالات عرفـت يقينًـا أنـني كنـت مخطئًـا عندمـا كتبتهـا، وهنـاك مقـالات وجدتهـا سـخيفة جـدًا. برغـم هـذا ظـل كـم المقـالات الصالحـة للنـشر هنـا كبـيرًا جـدًا، لـذا لجـأت لطريقـة اختيـار علميـة دقيقـة هـي القرعـة!.

أرجـو أن تـروق لـك هـذه المقـالات أو عـلى الأقـل تجـد فيهـا جديـدًا. فـإن لـم تجـد فـلا تنكـر أنـني أنذرتـك...!

د. أحمد خالد توفيق

القسم الأول

وفيه حديث عن سياسة البلاد، وما استجد في حياة العباد

نعيب زماننا

وقف الضيف الأفريقي الكبير ليلقي كلمته بالفرنسية في افتتاح ذلك المهرجان الرياضي أمام الجمهور الغفير الذي يملأ المدرجات. هنا بدأت ظاهرة غريبة تتكرر. بدأت خافتة ثم راحت تعلو: مع نهاية كل جملة من خطابه قد يقول لفظة مثل (آ فوه) فتردد المدرجات (أووه).. يقول (ليبرتيه) فتردد المدرجات (إييه). وهي طريقة تظرف شهيرة كأنها نوع من صدى الصوت يمارسها الشباب في المدارس عندما يلعب بعقولهم شيطان التهريج، والغريب أن الصوت لم يصدر من مجموعة ما بل هو رد فعل جماعي خرج من آلاف الحناجر ويستحيل تجاهله.. وتصلب الضيف للحظة وهو لا يفهم ما يحدث بالضبط، وإن أدرك أنه يُهان. وكان الوزير عبد المنعم عمارة يقف بجواره، فراح يضحك في عصبية ليمتص حرج الموقف. كان الأمر واضحًا.. هذا الضيف الأفريقي لم يؤذنا أو يشتمنا ولم يره أحد من قبل، وإنما الجماهير المصرية تسخر منه لأنه يتكلم الفرنسية ولأنه أسود لامع البشرة كالباذنجان. وهو ما ذكرني برأي لكاتب أمريكي قال فيه: «العرب من أكثر من قابلت عنصرية وتعاليًا على السود». ضايقني هذا الرأي وتمنيت أن يكون الكاتب حمارًا لكني أرى شواهد يومية عديدة على صحته. حدث هذا الموقف منذ عشرة أعوام ونيف، ورأيته على شاشة التلفزيون، فجعلني أتساءل عن هذا السلوك الجماعي غير الحضاري الذي لم يصدر عن قلة منحرفة وإنما من مدرجات مليئة، وعلى شاشات التلفزيون في العالم كله.

تذكـرت ذات المشـهد مـن جديـد عندمـا نـزل الفريـق التونـسي بالـكأس مـن فـوق المنصـة، ورأينـا بوضـوح أن هنـاك مـن هاجـم حامـل الـكأس أو قذفـه بـشيء، ثـم انتقـل التلفزيـون إلى لقطـة أخـرى سريعًـا. حـدث هـذا بينمـا المذيـع يتكلـم عـن التحـضر الريـاضي الـذي قابـل بـه المصريـون الهزيمـة!

هنـاك مثـال آخـر أشـعرني بخجـل شـديد، وهـو مثـال قدمتـه قنـاة ناشـونال جيوجرافيكـس: سـائح أمريـكي يجـرب حظـه مـع سـائقي التاكـسي في مـصر وفي الصـين.. في البدايـة يريـد أن يـرى الأهـرام فيقابلـه سـائق التاكـسي المـصري الـذي يطلـب منـه مائـتي دولار مقابـل يـوم مـن (الخدمـة السـياحية الممتـازة)، ويقـول لـه بإنجليزيـة الترجمانـات الشـهيرة: «مـي سـبيك انجليـش يـا خواجـة. يو وونـت سي بيراميـذز مـي شـو يـو بيراميـدز». ينـصرف السـائح فينـاديه السـائق ويقبـل عـلى مضـض أن يأخـذ مائـة دولار. يركـب السـائح مـع سـائقنا ولـه طلـب واحـد بسـيط هـو أن يـرى الأهـرام. لكـن السـائق يأخـذه إلى أماكـن غريبـة جـدًا.. يرغمـه عـلى صيـد السـمك في النيـل لمـدة سـاعتين، ثـم يأخـذه لبيـت الأسرة ليـشرب معـه الشـاي بالنعنـاع بالقـوة، ثـم يجلـس معـه عـلى المقهـى لـشرب الشيشـة، والسـائح يـردد (بيراميـدز) بـلا توقـف. يقـول لـه السـائق: «يـو وانـت سي ماتـش يـا خواجـة؟.. أهـلي.. أهـلي... جـود ماتـش»، ويأخـذه بالقـوة لمشـاهدة مبـاراة للأهـلي في الاسـتاد لا تهـم السـائح في شيء، وفي النهايـة وقـد أوشـك اليـوم عـلى الانتهـاء يأخـذه ليريـه الأهـرام مـن عـلى بعـد ثلاثـة كيلومـترات تقريبًـا ويطلـب منـه أن يذهـب وحـده ليشـاهدها ويعـود لـه. هنـا يفهـم السـائح الأمريـكي أن هـذه هـي (الفهلـوة المصريـة) المعروفـة فالرجـل لا علاقـة لـه

بالسياحة وهو خائف من الاقتراب حتى لا تخرب شرطة السياحة بيته. فقط وضع للسائح برنامجًا عشوائيًا باعتباره طفلاً يرضيه أي شيء. نصف الحلقة الثاني مع سائق صيني في بكين، وأترك هذا الجزء لخيالك.. فقط أقول إن السائق تقاضى مائة دولار هو الآخر، لكن كسعر نهائي بلا فصال.. وجعل السائح يرى كل شيء ممكن في يوم واحد، وأخبره منذ اللحظة الأولى بما لا يستطيع أن يقدمه له.

ما أردت قوله هو إن الشخصية المصرية تغيرت جدًا، ولم تعد على ما يرام منذ أعوام.

دكتور (علاء الأسواني) في قصته (الذي اقترب فرأى) قال آراء كثيرة صادمة عن الشخصية المصرية لم نكن نجرؤ على الاعتراف بها جهرًا، لكنه قالها على لسان بطل القصة، وإن كانت حرارة التعبير لا تترك لديّ شكًا في أن القصة تحمل جزءًا ولو كان ضئيلاً من رأيه الخاص.

سألني شاب مهموم مكتئب ككل شباب هذه الأيام : «هل موضوع حضارة ٧٠٠٠ سنة هذا صحيح ونحن فقدنا هذه الحضارة؟.. أم أنها أكذوبة رددناها حتى صدقناها؟». قلت له: «هذا جزء مهم من تغيرات الشخصية المصرية: إنها فقدت الثقة بنفسها، ولم تعد تؤمن بالماضي ولا تعيش الحاضر وتخاف المستقبل.. كل شعب في العالم يقف على أساس متين يخوض حروبه وصراعاته وهو راسخ القدمين فوقه، حتى لو كان هذا الأساس خائبًا مثل تاريخ ٣٠٠ سنة تزهو بها أمريكا، أو وهميًا مصنوعًا مثلما فعلت إسرائيل. لكن لابد من أساس تقف عليه وإلا فأنت هالك».

هـل السـبب هـو الفقـر والضغـوط الاقتصاديـة؟.. ربمـا.. لكـن يجـب ألا ننـسى أن ذلـك السـائق الصيـني لـم يكـن أكثر ثـراء. هل هو القمـع السـياسي؟.. هنـاك دول مقموعـة أكـثر لكـن أهلهـا يحتفظـون بدرجـة مـن التحـضر واحـترام الآخـر و(قلبهـم عـلى بعـض). هـل هـو الزحـام؟.. لسـنا أكـثر ازدحامًـا مـن الصـين واليابـان وإندونيسـيا عـلى مـا أظـن.. ربمـا هـي تلـك الأسـباب جميعًـا. عـلى كل حـال يمكنـك أن تعـدد المظاهـر الـتي طـرأت عـلى الشـخصية المصريـة فـلا تسـتطيع التوقـف:

١- ظاهـرة السـفينة الغارقـة: الشـعور العـام بـأن السـفينة تغـرق أو غرقـت يجعـل الشـخصية المصريـة تتعامـل بمنطـق (مـا جاتـش عليـا أنـا). هكـذا يحـاول كل واحـد جاهـدًا أن يـسرق في مـكان عملـه أو دائـرة نفـوذه، فـإن لـم يـسرق فهـو لا يشـعر بأيـة غـيرة عـلى المـال العـام، وقـد ذكـرت منـذ فـترة مثـال العريـس الـذي يتعمـد إضـاءة أنـوار الشـقة قبـل أن يغادرهـا ليكلـف الدولـة بعـض المـال. عندمـا يبـدد المـصري مالـه عـلى مكالمـات الموبايـل فتنصحـه أنـت، يذكـرك بالمليـارات الـتي تخـرج بـلا ضابـط، ومشـاريع القطـاع العـام العملاقـة الـتي تبـاع بسـعر ٣ علـب سـجائر مصريـة. ويقـول لنفسـه: مـا دامـت السـفينة تغـرق فمـن الحـرام ألا أظفـر منهـا ببضعـة مسـامير ولـوح خشـب أو لوحـين. لـو أخـذ كل مـصري مسـمارًا مـن السـفينة فكيـف سـتبقى طافيـة؟

٢- ظاهـرة مصعـد العمـارة: الشـعور بأنـك تُخـدع وأنـك تدفـع أكـثر مـن الآخريـن.. كل مـن يملـك شـقة في بنايـة مشـتركة ذات مصعـد، يعـرف كيـف أن السـكان يمتنعـون عـن الدفـع، وكل واحـد يشـعر بأنـه دفـع أكـثر مـن الآخريـن دون أن يتلقـى خدمـات. هكـذا يتلـف المصعـد فـلا يتحمـل أحـد المسـئولية. أحيانًـا يبـدو مبلـغ

خمسة جنيهات مرهقًا مجحفًا، بينما هم يدفعونه بسهولة تامة في مكالمة موبايل. هذا يتم على نطاق أوسع في كل المجالات.

٣-ظاهرة أنا أولاً: الرحمة والإحساس بالآخر صارت شحيحة في القلوب. عندما تكتشف أن مصانع الحلوى تستولي على ألبان الأطفال لتصنع منها الحلوى، وليذهب الرضع إلى الجحيم. البلد الوحيد في العالم الذي ينخفض فيه سعر الدولار فيشتعل سعر كل شيء. هذا يعني أن الأزمة ترجع للجشع كذلك. أسعار الأراضي تشتعل.. أسعار العقارات تشتعل.. عندما يصير سعر كيلو اللحم أربعين جنيهًا (وقت كتابة المقال) فلا يمكن تبرير الأمر بسعر الأعلاف، وإنما هي الشخصية المصرية الجديدة التي تكره ألا تضيق على الآخرين في لحظات كربهم. لا تنس أن الكبار المسيطرين على السوق هم مصريون كذلك!

***

قال لي صديقي: «خذ الحذر.. فلربما فهم أحدهم من كلامك أنك تنتقد الشخصية المصرية ذاتها». ضحكت كثيرًا من حسن نيته لأنه يفترض أن الناس لا هم لها سوى قراءة ما أكتب، وكأن المظاهرات الغاضبة ستخرج غدًا تقول: «لا.. لسنا كما يظن هذا الرجل». الحقيقة أني أنتقد الشخصية المصرية الجديدة فعلاً وأنتقدها بشدة، مع العلم بأني مصري جدًا ولا أجد نفسي على ما يرام أنا الآخر. وما أقوله هنا قيل من قبل في صورة راقية جدًا في كتاب (ماذا حدث للمصريين) لد. جلال أمين، كما لا يزيد في أبسط صوره على ما يقوله أي سائق تاكسي تركب معه غدًا: «الناس بقت وحشة قوي يا باشمهندز». فقط أقولها بالفصحى مع بعض الأرقام..

كنا نتحدث عن تلك الظواهر التي تطالعنا كل يوم وتوقفنا عند الظاهرة رقم :

٤- ظاهرة (نحن أكثر منكم مالاً وأعز نفرًا): وهذه يمكن أن نضمها للظاهرة التالية.....

٥- ظاهرة (الفلوس كتير والحمد لله): نعرف أن تقرير التنمية البشرية الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية عام ٢٠٠٦ يؤكد أن ٤،١٪من المصريين يجنون دولاراً في اليوم و ٤٣،٩٪ يجنون دولارين في اليوم وأن ١٦،٧٪ من المصريين تحت خط الفقر، حيث تحتل مصر المركز ٤٤ بين دول العالم. وسط كل هذه الضغوط الاقتصادية يمكنك أن تقرأ ما يلي في أي مكان (معظم الأرقام التالية من جريدة البديل عدد ٣١ أغسطس ٢٠٠٧): مليار جنيه ينفقها المصريون علي الكلام في المحمول حسب دراسة أجراها د. محمد صفوت فاضل بجامعة المنوفية، وتوصل فيها إلي أن تكلفة المحمول في الأسر المتوسطة تتراوح بين ٢٥ و٥٠ جنيهاً شهرياً، تزيد في الأسر الثرية لتتراوح بين ١٢٠ و٥٠٠ جنيه، وأشارت الدراسة إلي أن ٧٤٪ من المصريين يستخدمون هواتفهم في الثرثرة و١١٪ في برامج المسابقات. وأكد د.فاضل أنه إذا تم توفير خمسة مليارات جنيه من التي تنفق علي المحمول لمدة خمس سنوات، فستتخلص مصر من مشكلات البطالة وتوابعها. عام ٢٠٠٥ أرسل المصريون رسائل بنحو ٦٠٠ مليون جنيه ويتصلون يوميا بما يزيد علي ٢٢ مليون جنيه.

هذا شعب من رجال الأعمال المهمين إذن.. لكنك تعرف نوعية الرسائل المتبادلة (منه لله الريري اللي خلاك تكبر علينا) ونوعية المكالمات (انتي صوتك بيقول انك تعبانة.. لا والله مش تعبانة.. لأ أنا حاسس إنك تعبانة).

الفياجـرا تكلـف مـا يقـرب مـن مليـاري دولار سـنويًا ويسـتعملها أكـثر مـن ثلاثـة ملايـين مـصري. هـذا شيء مفهـوم مـع شـعب محبـط قضـت الهرمونـات في الطعـام والهـواء الملـوث والهمـوم عـلى رجولتـه.

الدجالـون لهـم نصيـب كذلـك.. فقـد كشـفت دراسـة حديثـة للمركـز القومـي للبحـوث الجنائيـة والاجتماعيـة ان المصريـين ينفقون أكـثر مـن ١٠ ملايـين جنيـه سـنوياً عـلي الدجالـين بسـبب ٢٧٥ خرافـة عـلى الأقـل تتحكـم في حيـاة المصريـين. نفـس الرقـم مذكـور في أماكـن أخـرى عـلى أنـه ١٠ مليـار وهـو مـا سـنتكلم عنـه في الظاهـرة السادسـة. أمـا بالنسـبة للدمـاغ الـتي يحترمهـا المـصري جـدًا كأنهـا دمـاغ أينشـتاين أو إنريكـو فيرمـي، فقـد أكـد تقريـر الجهـاز المركـزي للتعبئـة والإحصـاء أن المصريـين ينفقـون عـلي السـجائر والدخـان نحـو ٤ مليـارات جنيـه. عـدد مـن المسـتوردين المصريـين اسـتوردوا أطعمـة غذائيـة خاصـة بالقطـط و الـكلاب تقـدر قيمتهـا بمليـوني دولار خـلال عـام ١٩٩٩ أمـا الآيـس كريـم فقـد اسـتوردت مـصر منـه خـلال نفـس العـام مـا قيمتـه ٥ ملايـين دولار.

أكـدت دراسـة أعدهـا مركـز الأبحـاث بكليـة الاقتصـاد والعلـوم السياسـية أن إنفـاق المصريـين أثنـاء شـهر رمضـان يصـل إلي ٤٤ مليـار جنيـه!. كذلـك تشـير الإحصـاءات الرسـمية إلي أن المصريـين ينفقـون حـوالي ٣ مليـارات دولار في رحـلات الحـج و العمـرة أي مـا يعـادل تقريبـاً دخـل مـصر السـياحي كلـه وأكـثر مـن عائـدات قنـاة السـويس، ومـا يعـادل إجمـالي قيمـة الصـادرات المصريـة مـرة ونصـف المـرة..!. وبرغـم كلام علمـاء كبـار جـدًا مـن وزن القرضـاوي وابـن بـاز وسـواهما عـن فقـه الأولويـات، ومـا قالتـه دار الإفتـاء المصريـة: «ليـس لله حاجـة في الطـواف ببيتـه مـن شـخص يـترك

إخوانـه البائسـين فريسـة للفقـر والجهـل والمـرض؛ لأن المسـلمين جميعًـا يجـب أن يكونـوا يـدًا واحـدة يتعاونـون عـلى البـر والتقـوى». لكننـا نسـمع الفتـوى الـتي نريدهـا فقط..وبالطبـع يذكرنـا الخبـير الاقتصـادي د. أشرف دوابـة بـأن مـن يطالبـون بالتقليـل مـن تلـك الشـعائر لأسـباب اقتصاديـة عليهـم عمـل نفـس الـشيء مـع الليـالي السـياحية وثقافـة الـترف. هـذا منطقـي.. ولـو انتـشر وبـاء مـن السـفر للسـياحة في إيطاليـا لـكان علينـا أن نحـذر مـن هـذا السـلوك. حـتى اسـتفادة السـعودية ذاتهـا مـن هـذا الـرواج – والـكلام للخبـير الاقتصـادي - غـير حقيقـي لأن المسـتفيد الأكـبر هـي الـدول المنتجة للسـلع والخدمـات الـتي تتـداول في تلـك الأماكـن المقدسـة، حـتى المسـابح والمصليـات الـتي نصـلي عليهـا مـن غـير صنـع المسـلمين. أي أننـا نجـوع كي تـأكل الصـين.

طلبـت ذات مـرة مـن أحـد هـواة تكـرار العمـرة أن يحسـب المبلـغ الـذي سـينفقه، وتعهـدت لـه بـأن يصـل هـذا المبلـغ كامـلاً إلى مرضى الكبـد الفقـراء، فـكان أن فـر مـني ولـم يعـد يطيـق رؤيـتي. الأمـر إذن ليـس تقربًـا مـن الله قـدر مـا هـو رغبـة في (تغيـير الجـو) ولربمـا لمسـة مـن الإدعـاء والتفاخـر، وقـد سـمعنا عـن ذلـك المسـئول الكبـير – في السـجن الآن – الـذي كان يتقـاضى الرشـوة في صـورة رحلـة عمـرة لـه وزوجتـه!.

الـدروس الخصوصيـة تلتهـم ٢،٤ مليـار جنيـه سـنوياً، ولا أعـني أن كل المدرسـين ملائكـة لكنـه لـو صـاروا جميعًـا كذلـك فلـن يحـدث فـارق، لأن ثقافـة الـدروس تسـللت للشـخصية المصريـة وهـي خليط مـن التفاخـر والتقليـد. لهـذا نجـد أن الطلبـة لا يعطـون المدرسـة أيـة فرصـة، وقـد نـشرت جريـدة الدسـتور أن نسـبة التغيـب في المرحلتـين الاعداديـة والثانويـة بلغـت ٧٥٪ بعـد شـهرين فقـط مـن

بـدء الدراسـة.. يعـني قبـل أن يكتشـفوا أن المدرسـة لا فائـدة منهـا! المجموعـات الـتي تنظمهـا بعـض المـدارس بأسـعار رمزيـة لا تنجـح لأنهـا تقـضي عـلى عنـصر التفاخـر والرغبـة في الظهـور بمظهـر مـن لا يدخـر مليمًـا مـن أجـل أبنائـه.

لا أعـرف كـم ينفـق النـاس عـلى حفـلات الزفـاف وطقـوس العـزاء، لكـني أعـرف أسرًا أسـعد لحظـة في حياتهـا هـي مـوت قريـب لهـا، لأن هـذا يتيـح لهـا نـشر نعـي ضخـم في الصحـف تسـتعرض فيـه ترسـانتها مـن الأسـماء المهمـة.

٦- ظاهـرة (كلـه بالبركـة): في الواقـع هنـاك تضـارب أرقـام هائـل لهـذا اخـترت الأرقـام الأقـل في كل شيء. سـوف يجـد مـن يبحـث أن الرقـم يُذكـر في مـكان ويذكـر عـشرة أضعافـه في ذات السـياق في مـكان آخـر، ولا فـارق بـين مليـار ومليـون.

٧- ظاهـرة (المـوت للـرأي المخالـف): النـاس تقبـل رأيًـا واحـدًا فقـط هـو الـرأي الـذي يناسـب قناعاتهـا المسـبقة.. ذات مـرة وقفـت في طابـور في مـصرف حكومـي عتيـق الإدارة، ولاحظـت أن الموظـف يعمـل كالنحلـة ولـم يلتقـط أنفاسـه لحظـة، ولا يجـد الوقـت الـكافي ليمسـح عرقـه، بينمـا الطابـور الغاضـب يسـتطيل. قلـت ملحوظـة عـن أن هـذا الموظـف يـؤدي عملـه جيـدًا، فـكاد الطابـور يمزقـني وكادوا يلعنـون أسـلافي. لـو قلـت إن الموظـف بطـئ كسـول وإن هـذا تهريـج لا يمكـن أن يحـدث في الخـارج، فلسـوف يرضـون عنـك. مـن الخطـأ القاتـل أن تقـول إن خلـل التعليـم في مـصر يقـع جـزء مـن أسـبابه عـلى التلاميـذ كمـا هـو عـلى المدرسـين، لأنـك بهذا تسـتوجب اللعـن. لكـن لـو قلـت إن المدرسـين سـيئون لأثلجـت صـدر النـاس.

٨- ظاهـرة (إن عاديـت فلتعـاد جـدًا): كل مـن يختلـف معـك هـو عـلى الأرجـح ملحـد أو عميـل للغـرب أو شـاذ جنسـيًا.. بالنسـبة

للنساء ينحصر الاتهام في تهمة واحدة هي العهر. يمكن لكل من يطالع المدونات أن يدرك كم الصديد المحتشد في الصدور ويخرج عندما ينعدم الرقيب. عرفت قصة سيدة حازمة تولت أحد الأجهزة الحكومية المهمة، وبما أنها باترة قاطعة فقد كثر أعداؤها. كانت عجوزًا لا تصلح لإشاعات العُهر، لذا اتخذت الإشاعة شكل قصة شهيرة جدًا حول أنها دخلت لتجد العاملين معها يقرءون القرآن، فمزقته - والعياذ بالله - ووطأت صفحاته لأنهم يضيعون وقتهم. عندما سمعت هذه القصة قلت لهم: لو أن زعيم المافيا شخصيًا كان في مكانها لما جرؤ على ذلك. لكن هذا النوع من الإشاعات له قدرة خارقة على التوالد الذاتي ويصدقه الجميع، ومن الواضح أنه ضرب تحت الحزام بلا رحمة ولا شرف تعامل.

٩- ظاهرة (القسوة): تكلمت في مقال سابق عن التعالي العرقي على السود.. ما أخبار اعتداء المخدومة على خادمتها الفليبينية وضربها وحبسها؟.. وماذا عن خادمتها الريفية الطفلة الضعيفة المصابة بفقر الدم؟.. هذه الأخبار صارت ركنًا ثابتًا في الصحف. دعنا نضف لهذا القسوة على الحيوانات وهي تنم عن ثقافة كاملة. هل رأيت في قناة الجزيرة تاجر الفراخ الذي يسكب الكيروسين على الكتاكيت الحية ثم يشعل فيها النار ويراقبها في استمتاع وهي تحترق؟. كم مرة سمعت عن الذي أغرق كيسًا مليئًا بكلاب صغيرة في الترعة؟.. الأطفال غير طبيعيين لو لم يجروا الكلاب الصغيرة بحبل في عنقها. في هذا المناخ الغارق في التدين لماذا ينسى الناس أنه (في كل ذات كبد رطبة أجر)؟. كنت في معبد الكرنك ذات مرة ورأيت أقذر وأتعس كلب رأيته في حياتي.. كلب أجرب امتلأ جلده بالقروح والدمامل وسال الدم منها.. وكان يجر قدمًا مكسورة في مشهد مقزز، حتى إنني فكرت

أن أريحه وأريح الناس منه بأن أحطم رأسه بحجر.. هنا رأيت سائحة ألمانية تتحايل عليه حتى أقنعته بأن يرقد قرب قدميها، وراحت تربت على رأسه وتقدم له لقيمات من كيس طعام تحمله. هزني هذا المشهد.. هؤلاء ليسوا ملائكة وقد ظفروا بنصيبهم من ذبح البشر، لكن حضارة تعامل كلبًا أجرب قذراً بهذه الطريقة لهي حضارة تستحق أن تبلغ ما بلغته. أعرف أن في بلدي من هم أتعس حالاً من هذا الكلب، لكن هل هذا مبرر لقسوتنا الواضحة التي نورثها لأطفالنا؟. ثم من قال إننا نقسو على الحيوانات لأننا مشغولون بالرفق بالبشر؟.. لا وحياتك.. الواقع يقول إننا نقسو على الاثنين..

١٠- ظاهرة (لا للعمل الجماعي): لم تنجح أية محاولة للمقاطعة في أي اتجاه في مصر بالذات، لا في اتجاه الضغط على الجزارين أو شركات الاتصالات أو أي شيء. بالنسبة للشراء لم يحدث قط أن بارت سلعة ما بسبب ارتفاع سعرها، ولهذا لا تتحقق أبدًا نظريات ماركس ولا يتشبع السوق إلى درجة انخفاض الأسعار. هناك دائمًا من يشتري بأغلى الأثمان.. ربما من منطلق التفاخر.. لهذا سيقول لك سائق التاكسي:»البلد مليانة فلوس». جميل جدًا.. لكن لماذا لا تصل هذه الفلوس للأسر التي تعيش على أقل من دولار في اليوم للفرد؟. يصل متر الأرض لعشرين ألفًا لكنه يجد من يشتري.. لو صار سعر كيلو اللحم سبعين جنيها فلن يتوقف الشراء. أية دعوة جماعية لأي شيء لا تنجح أبدًا.

١١- ظاهرة (هؤلاء صراصير): هذا الاستهتار يبدو واضحًا عندما ترى أمًا ورضيعها يعبران الطريق فيندفع نحوهما سائق السيارة بسرعة أكبر.. يعطي سائق السيارة إشارة لليمين فتكون هذه

علامة للسيارات كلها كي تمر على يمينه بسرعة البرق. وتنظر لراكب السيارة المندفعة فترى كائنًا ضيق الجبهة كإنسان نياندرثال، شرس الملامح ضيق الأفق فخورًا بنفسه.. هذا كائن غريب ظهر مؤخرًا. وماذا عن عصابات سرقة (عين القط) من الطرق السريعة بلا مبالاة بالسيارات التي ستخرج عن الطريق وتنقلب؟.. هناك مطب صناعي مهم اضطروا لإزالته لأنهم كانوا يضعون لافتات تنذر الناس منه.. فكلما وضعوا اللافتة سرقها أحدهم ليلاً.. النتيجة أن السيارات تنقلب بلا توقف عندما تكتشف هذا المطب فجأة.. ما الذي يمكن عمله بلافتة كتب عليها (احترس.. أمامك مطب صناعي)؟.. المصريون يعرفون الإجابة!.

١٢- ظاهرة (التفرنج): في كل مكان تفسح اللغة العربية مكانها لمصطلحات غربية عرجاء مثل (ماسيدج) وهو النطق الأعرج لـ Message و (ترينك) للدلالة على الـ Training suit وذلك الأحمق الذي يسمي محله ٦٦٦ ويعلق آيات قرآنية غير عالم أن هذا الرقم يرمز للشيطان!... هو فقط يستنسخ الثقافة الغربية كالببغاء.... يقولون مرض (زهايمر) باعتبار (ألزهايمر) اسم معرف بألف ولام!. يشربون (الكانز) ويصرون على عدم تسميتها (علبة) فإذا قلت إن هذا جمع وطلبت (كان) واحدًا لنفسك، نظروا لك مندهشين من جهلك. هل يعني هذا أنهم يحافظون على اللغة العربية؟ لا وحياتك.. بلا توقف يدمرون اللغة العربية وقواعدها. والسؤال هنا هو: لماذا لا تستعمل عربية جيدة أو إنجليزية جيدة؟.. لماذا ترقص بين اللغتين؟

١٣- ظاهرة (الزلنطحية): قس كل شيء على سلوك سائق التاكسي الذي يعتبر أنك ذبحته لو طلبت منه أن يمشي مترًا

واحـدًا إضافيًـا، بينمـا هـو مسـتعد أن يـدور حـول القاهـرة عـشر مـرات إذا ركبـت جـواره بنـت حسـناء مـن إياهـم. وهـو يعتـبر أن الزبـون المثـالي المحـترم (بتـاع زمـان) هـو الـذي يفتـح بـاب التاكـسي ثـم يغلقـه دون أن يركـب ويدفـع لـه عـشرة جنيهـات.

سـوف أتوقـف هنـا لأنـني مـن الممكـن أن أسـتمر في العـد حـتى الرقـم مئـة!

البحث عن أم أنس

تصاعد الدم إلى رأسي غيظًا عندما طالعت عدد مجلة روز اليوسف الصادر يوم السبت ٢١ مارس ٢٠٠٧؛ فقد وجدت في ملزمة الوسط الملونة مقالاً للصحفية نهاد عزت عنوانه (آخر ما أنتجته ماكينة التخلف والتطرف: جلوس المرأة على الكرسي زنا لا شبهة فيه!).. إلى هذا الحد؟

المقال يتكلم عن موقع إنترنت يدعى موقع (أم أنس)، التي تصف نفسها بأنها (علامة الدارين الدنيا والآخرة) وأنها (سيدة الزمانين ما مضى وما هو آت)، ثم تصدر فتوى تحرم الجلوس على الكرسي استنادًا إلى أربعة أسباب منها أن السلف الصالح لم يجلسوا على المقاعد ولا الأرائك.. إن في استخدام المقاعد ما يوحي بالإعجاب بالغرب، وهذا يهدم ركنًا عزيزًا من الإسلام هو الولاء والبراء..

لم تقل أم انس هذا فحسب، بل اشترطت عدم تقديم الأزهار للمرضى لأن في هذا تقليدًا للغرب، وأباحت كذلك الكذب والتزوير لـ (نصرة أمة الإسلام ضد بني علمان)..

المقال طويل ومليء بأمثلة صادمة قاسية توحي بأننا نتكلم عن مستشفى مجانين كبير.. وعلى كل حال اعتاد المرء ألا يندهش لشيء.. لقد أمست الهواية المفضلة للعرب اليوم هي التحريم.. يجب ألا يمر يوم من دون تحريم شيء جديد، وقد حكى الشيخ الغزالي رحمه الله عن ذلك الشاب في دولة خليجية محافظة الذي سأله عن رأيه في الخل.. قال الشيخ في دهشة من غرابة السؤال: «هو حلال».. هنا نظر له الشاب في ألاطة

وقال: «دليلك..؟».. استشاط الشيخ الغزالي غضبًا وقال للشاب المتحمس: «وما دليلك أنت على تحريمه؟.. الأصل في الأشياء الإباحة.. كل شيء مباح ما لم يكن هناك نص واضح في القرآن والسنة يحرمه..».

سمعت الكثير من تلك القصص، ولذا كنت على استعداد لتصديق ما هو أقل فداحة من هذا الخبر، لكن تحريم الجلوس على مقعد بدا لي ضربًا مبالغًا فيه من الشطط.. ضربًا يفوق قدرتي على ابتلاعه أو تصديقه..

هكذا فتحت شبكة الإنترنت وبحثت عن الأخت (أم أنس) هذه حتى وجدت موقعها.. هنا أصابتني الدهشة.. يمكن لأي طفل أن يعرف بعد ثلاث دقائق أن الموقع ليس دعاية للسلفيين بل هو مخصص للسخرية منهم.. هناك من يقلد كلامهم مع كثير من المبالغة (الفارص) التي لا تخدع أحدًا، ولم يرد صاحبها أن يخدع أحدًا، إلا لو كان المنولوجيست يحاول انتحال شخصية عبد الحليم حافظ عندما يقلده..

مثلاً كيف يتحدث موقع سلفي عن المطوّع المريض نفسيًا الذي يتسلى بتحسس أجساد الفتية المُرد، بعد ما يلومهم على عدم صلاة العصر أو حلاقة اللحية؟.. كيف يذكر حيثيات الكذب فيقول : «وقد استفاد من فتوى جواز شهادة الزور الشيخ العلامة عامص أبو القرون بعد أن مارس اللواط مع أحد الغلمان»؟.. أو هذا الخبر عن الشيخ نفسه : «لقد عُرف عن العلامة النحرير والداعية النخرير, عامص أبو القرون, عليه الصلاة والسلام، أنه يهوى ويعشق ويشم وينشق وله في الغرام مواقف مثيرة, وقضايا يقال بأنها خطيرة».. هل الموقع السلفي سيقول عن أحد الشيوخ: (صلى الله عليه وسلم)؟!...

وهـذا الـكلام عـن ذبـاب أفغانسـتان الـذي يشـارك المجاهديـن في طـرد الأمريـكان: «الذبـاب!! أعـزه الله كمـا يقولـه مـن ذهـب هنـاك. هـذا الذبـاب العظيـم الـذي ورد ذكـره في السـنة المطهـرة, يااخـوان, أمـره عظيـم, أي و الله, إنـه مـا إن يمـس جسـد الافغـاني أو المسـلم حـتى يعطيـه قـوة تضاعـف قـوة أربعـة عـشر بعـيرا, الله أكـبر يـا إخـوان, ويـا سـبحان الله ,انظـروا, إذا لـدغ جسـد الكافـر أماتـه في الحـال وجلـب لـه الأمـراض الـتي تتفـشى في بـني جلدتـه. يـا الله, انظـروا يـا إخـوان: ذبـاب, ذبـاب, يرسـله الله لنـصرة المسـلمين حينمـا ذل المسـلمون!».

القصـة واضحـة إذن ولا تحتـاج إلى أمثلـة أخرى..هـذا الموقـع أنشـأه مـن يريـد السـخرية مـن السـلفيين.. في موقـع آخـر سـلفي (بجـدّ) وجـدت مـن يتهـم موقـع (أم أنـس) بأنـه مدسـوس مـن الرافضـة.. رأيي أنـه موقـع أنشـأه ملحـد يريـد أن يتسـلى قليـلاً، لكنـه شـخص يعـرف المجتمـع السـعودي جيـدًا، ويجيـد العاميـة السـعودية.. أي إنـه شـخص (مـن الداخـل)...

المشـكلة هنـا ليسـت في الحرب الأبدية بـين الوهابيـين وخصومهم، فهـذه ليسـت موضوعنـا هنـا، ولكنهـا في الأخـت العزيزة محـررة (روز اليوسـف).. هنـاك احتمـالان لا ثالـث لهمـا: إمـا أنهـا لـم تتفحـص الموقـع بدقـة وإنمـا أخـذت منـه بالضبـط مـا يناسـب وجهـة نظرهـا، وهـذا يضعهـا في قائمـة الاستسـهال و(الكروتـة)، عـلى طريقـة المخبر الـذي ينتقـي كتـاب (التنظيـم والإدارة) مـن بـين كتـب الطالـب المعتقـل ليثبـت أنـه ينتمـي لتنظيـم سري؛ وإمـا أنهـا أذكى مـن ذلـك وقـد تعمـدت تزييـف الحقيقـة، عـلى طريقـة ضابـط أمـن الدولـة الـذي يرغـب في تلفيـق قضيـة لنفـس الطالـب البائـس..

لا أعـرف هـل لعبـت صحفيتنـا العزيـزة دور المخـبر أم الضابـط،

لكن القارئ في الحالتين مخدوع، وقد تم تجنيده معنويًا لقضية لا وجود لها أو لم تبلغ هذا الحجم..

لست أدافع عن السلفيين هنا، لكني أدافع عن مبدأ الدقة والأمانة فيما يُنقل إلى القارئ سواء كانت الحقيقة في صفك أم ضدك.. إن الإنترنت أداة مذهلة لنقل المعلومة، لكنها -للأسف- أداة مذهلة لنقل الخرافات والأكاذيب كذلك. تغريك بالخفة وباستعمال معلومات غير موثقة أو تمت مطالعتها على عجل، ولا يقتضي الأمر إلا الضغط على زر Forward لتسري هذه المعلومة المغلوطة كالنار في الهشيم.. كل خطاب يصلك ترسله إلى ألف عنوان في ربع دقيقة حتى قبل أن تقرأ محتواه.. شركة هوتميل سوف تلغي خدماتها المجانية قريبًا وعليك إرسال هذه الرسالة لألف شخص..هذه صورة الفتى الذي تعفن بعد ربع ساعة من دفنه لأنه كان يستمع للأغاني.. أيقونة الدبدوب التي ستجدها ضمن ملفات النظام هي فيروس يهودي خطير تم دسه على ملفات المسلمين.. هذه هي الفتاة التي تحولت إلى سلحفاة لأنها أهانت المصحف.. تم تحليل عينة من مشروب البيبسي الذي سقط على ملاءة الفراش فاتضح أنها مليئة بفيروس سي.. وهكذا.. حتى تشعر بأننا أمة مترهلة لا تفعل أي شيء سوى الجلوس أمام الكمبيوتر وتبادل الأكاذيب والهراء..

النقطة الثانية هي ولعنا بعدم استكمال قراءة أي شيء.. تجد في الصحيفة خبرًا يقول: القبض على الممثلة الفلانية وفي حوزتها مخدرات.. تقرأ الخبر بعناية فتجد أن هذا سيكون دورها في فيلمها القادم..مجرد لعبة صحفية قديمة قدم الطباعة ذاتها.. لكن الموظفين الملتفين حول طبق الفول الصباحي في المصلحة يتناقلون العنوان باعتباره حقيقة لأنه لا أحد يحاول التدقيق..

هـذا هـو مـا فعلتـه المحـررة سـواء بقصـد أو دون قصـد، وهـذا الاسـتعمال أضعـف قضيتهـا ولـم يقوهـا.. نعـم هنـاك الكثـير مـن التطـرف والشـطط، لكـن هـذا التلاعـب في الحقائـق يجعلـك تلقائيًـا تقـف في صـف الجـلاد لا الضحيـة (أو ربمـا هـو العكـس.. لسـت متأكـدًا)..

غنوة وحدوتة

سأحكي لك يا مريم قصة كالتي حكيتها أمس.. في سنك تحلو القصص والتحليق بجناحين شفافين في أنسام الخيال، ولست أنسى لمعة عينيك السوداوين الجميلتين وأنفاسك المتلاحقة وأنا أحكي لك عن سندريلا عندما اقتربت عقارب الساعة من الثانية عشرة فراحت تركض كالملسوعة هاربة من الحفل. كنت خائفة مذعورة، وبرغم أنني أكدت لك أن نهاية القصة سعيدة؛ فإن النهايات المقلقة أمر غير وارد في مفردات عالمك.

قصة اليوم جميلة ولسوف تروق لك، ما عدا نهايتها. هناك غنوة كذلك على طريقة أبله فضيلة التي لم يسعدك الحظ بسماعها. أنت تحبين الريف.. أليس كذلك؟.. قصتنا هناك. قصتنا في قرية صغيرة ناعمة باسمة حيث يبدو كل شيء كأنما خلق لتوه. الربيع على الأبواب.. أنت تحبين الربيع.. أليس كذلك؟.. الأزهار ورائحة الحقول المحروثة والملانة ودود القز.. أليس كذلك؟.. تلك مفردات عالمك في المدينة، لكن لك أن تتخيلي كيف تبدو الأمور في القرية الناعسة.. الأجمل هو أن اليوم هو الأربعاء، وكل الأطفال يحبون الأربعاء لأنه يسبق أجمل أيام الأسبوع: الخميس..

(زينب السيد إبراهيم) طفلة في سنك تقريبًا.. زينب تحب اللعب في الحقل وتحب الماعز الصغيرة وتحب الأطفال الآخرين، ولابد أنها فتحت عينها في ذلك الصباح شاعرة بانتعاش.. سيكون اليوم جميلاً. ترتدي المريولة الصفراء من ذلك القماش الذي

كنا نطلق عليه (تيل نادية)، وبما أننا في قرية فهي تضع المريولة مباشرة فوق ثياب النوم، ثم تحمل الكيس القماشي الذي تضع فيه كتبها. معها أخوها (محمد) الذي يدرس في ذات المدرسة معها. إنهما يغادران الدار معًا.. الأب ذهب للحقل بعد صلاة الفجر كعادته والأم أمام الفرن.. يوم معتاد...

أنت تتابعين باهتمام يا مريم.. يبدو أننا نحب القصص التي تتحدث عن عوالم خيالية، لكننا كذلك نحب أن نرى أنفسنا في القصص من حين لآخر..

في المدرسة بانتظار انتهاء طابور الصباح.. لا يستطيع هؤلاء الأطفال أن يظلوا وقورين محترمين لحظة واحدة. لقد خطف (محمد) كيس (فاروق الدسوقي).. توعده الأخير بالضرب، بينما كان (عوض الجوهري) يحمل كنزًا حقيقيًا.. لقد اصطاد ضفدعًا ذكرًا يصدر نقيقًا عاليًا، لكنه لم يعرف أين يضعه فأخفاه في جيب المريولة.. حاولت (نجاة) أن ترى الضفدع فلم يسمح لها، من ثم توعدته بأن تشكو للأستاذ في أول حصة..

هكذا انتهى الطابور، وجلس الأطفال في الفصول الثلاثة الصغيرة التي تتكون منها هذه المدرسة.. فصول صغيرة اكتست جدرانها بالرطوبة والطحالب، لكنهم كانوا يشعرون بأنها واسعة جدًا. أمامهم يوم ممل قصير ثم يعودون لبيوتهم، وبعدها يبدأ اللهو.. لهو حتى مساء الجمعة عندما يتذكر كل منهم أنه لم يخط حرفًا في كراس الواجب.. (عوض) قلق لأن (نجاة) سوف تشي به..

بعد المدرسة سوف تمر زينب ومحمد على الحقل حيث يستريح أبوهما تحت (السجرة). سوف يهرع محمد للبيت ليجلب الطعام الذي أعدته الأم، ملفوفًا في منديل كبير.. لا

لحـم اليـوم فاللحـم ليـوم الخميـس فقـط...

هنا سمعوا صوت طائرات..

ارتفعـت الـرءوس الصغـيرة لأعـلى في شـغف وكلهـم يتمـنى لـو اسـتطاع أن يركـض للفنـاء لرؤيـة الطائـرات الجميلـة وهـي تعـبر السـماء.. فـوووووم!

وهنـا اهـتزت الأرض ودوى الانفجـار الأول. زينـب احتاجـت إلى بعـض الوقـت لتفهـم أن شـيئًا غريبًـا يحـدث.. المدرسـة ترتـج بطريقـة غـير مسـبوقة. لكنهـا لحسـن الحـظ لـم تجـد الوقـت الـكافي لتـدرك أن الطائـرات تقصـف مدرسـتها بالـذات.. تقصـف فصلهـا بالـذات.....

لـن أحـكي مـا بعـد هـذا، فقـد تـم كل شيء بسرعـة.. فقـط انتهـت القصـة تمامًـا بالنسـبة لزينـب السـيد إبراهيـم عوض وأخيهـا محمد.. لـن تكـبر أبـدًا.. لـن تحـكي لأمهـا في خفـر عـن زلـزال الأنوثـة الأول، ولـن ترقـص النسـاء لهـا في ليلـة الحنـة، وبالتأكيـد لـن يلـوح زوجهـا بالمنديـل إيـاه، ومحمـد لـن يكـبر ويسـافر للعـراق بحثًـا عـن الـرزق.. آخـرون كذلـك منهـم نجـاة الـتي لـن تشـكو للمـدرس بالتأكيـد، وإيمـان الشـبراوي، وجـبر عبـد المجيـد، وعـادل جـودة...و.. و.. ثلاثـون طفـلاً سـوف يظلـون أطفـالاً للأبـد.. والمدرسـةلم يعـد لهـا وجـود... فقـط بركـة دم وكراسـات ملوثـة ومحترقـة.....

أنـت مندهشـة لمـاذا حـدث ذلـك يـا مريـم؟.. إنهـا التاسـعة والثلـث صبـاح الثامـن مـن إبريـل عـام ١٩٧٠ وهـذه مدرسـة بحـر البقـر الابتدائيـة بمحافظـة الشرقيـة.. يـوم الخميـس القـادم يكـون قـد مـر عـلى هـذا المشـهد أربعـون عامًـا.. منـذ أربعـين عامًـا أذاعـت الإذاعـة المصريـة الخـبر، فرأيـت أمـي ترتجـف بـلا توقـف كمـن تسري الكهربـاء في جسـده، ثـم دخلـت الفـراش وأسـنانها تصطـك وظلـت

تبـكي لسـاعات كأنـني أنـا مـن مـات.. منـذ أربعـين عامًـا كان هنـاك مأتـم حقيقـي في كل بيـت مـصري.. وكتـب الرائـع صـلاح جاهـين قائـلاً:

ـ «الـدرس انتهـى لمـوا الكراريـس.. ايـه رايـك في البقـع الحمـرا يـا ضمـير العالـم يـا عزيـزى؟ دى لطفلـة مصريـة سـمرا..كانت مـن أشـطر تلاميـذى.. دمهـا راسـم زهرة..راسـم رايـة ثـورة.. دم الطفل الفلاح راسم شمس الصباح..».

هـذه هـي الغنـوة.. أنـا آسـف إن كانـت القصـة لـم تـرق لـك يـا مريـم.. لـم أسـتطع أن أجعلهـا مبهجـة أكـثر. كيـف أفعـل ومدرسـة الأطفـال الصغـيرة الفقـيرة تلقـت صاروخـين وخمـس قنابـل كأنهـا لـواء مـدرع كامـل؟، والسـبب أن إسرائيـل كانـت بحاجـة إلى أن تلقـن عبـد النـاصر درسًـا بعـد تزايـد نشـاط حـرب الاسـتنزاف.

تسـألين إن كان العالـم اهـتز لهـذه الجريمـة؟.. بالطبـع تضايـق جـدًا.. والله العظيـم تضايـق، وأعـرب الجميـع عـن التأثـر، لكـن ليـس لدرجـة اسـتصدار قـرار إدانـة مـن مجلـس الأمـن.. إسرائيـل اعتـذرت وأعطـت العالـم سـيجارة فوضعهـا خلـف أذنـه وانـصرف شـاكرًا..

نعـم يـا مريـم.. حـتى في مـصر نسـينا كل شيء عـن هـؤلاء الأطفال الثلاثـين، وفيمـا عـدا بعـض الجهـود الفرديـة مثـل جهـد الأسـتاذ (عصـام الاسـلامبولي) لمقاضـاة الجنـاة، فإننـا لا نثـير هـذه القضيـة حـتى لا نخـدش سـلام إسرائيـل النفـسي. لقـد ولى عهـد الحقـد، وليه يكونـوا نـاس في ناحيـة ونـاس في ناحيـة؟.. هنـاك مـن يصـدّر الغـاز لإسرائيـل لأنهـا دولـة صديقـة، وهنـاك مـن يؤمّـن حدودهـا، وهنـاك مـن يصـدّر لهـا الأسـمنت، وهنـاك مـن يعانـق قادتهـا، وهنـاك مـن يلـوم سـكان غـزة لأنهـم يحدثـون صخبًـا عاليًـا وهـم يُذبحـون..

نعـم يـا مريـم.. أنـا مـن جيـل تعلـم أن يكره كل مـا هـو إسرائيلي.. أكـره علمهـم وأتشـاءم مـن منظـره.. ومـا زال منظـر حروفهـم العبريـة يجعـل الشـعر ينتصـب اشـمئزازًا عـلى سـاعدي لأنـه يذكـرني بمنظـر أقـدام العنكبـوت.

إن النعـاس يداعـب جفنيـك، ولـو كان حظـي حسـنًا فأنـت لـم تكـوني واعيـة عندمـا سـمعت قصـة مـوت الأطفـال، لكـني كلمـا رأيـت أطفـالي وأطفـال الآخريـن تذكـرت إسرائيـل القـادرة الراغبـة في كل لحظـة أن تكـرر مـا حـدث يـوم الأربعـاء الحزيـن.. أربعـاء الرمـاد عـلى رأي الخواجـة إليـوت. لا أطلـب منـك شـيئًا وإلا لفعلتـه أنـا، لكـني أريـدك ألا تنـسي، وألا تخبـو جـذوة الحقـد المقدسـة أبـدًا مهمـا قالـوا ومهمـا زعمـوا ومهمـا غـيروا الحقائـق.. لا تتحـدثي عـن العالـم الجديـد ونسـيان خلافـات المـاضي، فالإسرائيليـون لـم ينسـوا النازيـين يومًـا واحـدًا ويلاحقونهـم في كل مـكان ويخطفونهـم ويعدمونهـم، فلمـاذا ننـسى نحـن؟

الدرس انتهى.. لموا الكراريس.....

خالدنا وخالدهم

كلما قرأت تفاصيل هذا الذي وقع في سيدي جابر، شعرت بأن هناك شابين يحمل كلاهما اسم خالد محمد سعيد، تواجدا في الاسكندرية في تلك الساعة من يوم ٨ يونيو عام ٢٠١٠ وتوفيا إلى رحمة الله في نفس اللحظة. هناك خالدهم.. خالد تقارير الحكومة وكتاب الصحف القومية، وخالدنا نحن المصريين الذين يملئون الشوارع ويتمنون أن يبتعدوا عن الحكومة وتبتعد الحكومة عنهم..

الحقيقة تضيع بسهولة ومن السهل على أي ضوضاء أن تخفي حقيقة ما يحدث.. جربنا هذا من قبل في مواقف عديدة، لكننا تعودنا كذلك على أن الحكومة تكذب كثيرًا جدًا.. المفكر العالمي الوحيد الذي تؤمن بأفكاره هو (جوبلز). ولقد تعلم المواطن المصري منذ زمن أن يقرأ الصحف القومية مع بعض التغييرات: (لا صحة لما نشر عن زيادة في الضرائب).. معناها (ما نشر عن زيادة الضرائب صحيح تمامًا). أو (جميع المصريين في سييراليون بخير) معناها (المصريون في سييراليون حالهم زي الطين). هكذا تصير الصحف القومية مفيدة جدًا وبالغة الصدق. هكذا يمكننا أن نعرف رواية من الأصدق بصدد خالد، دعك من أن الفتى (خالد) كان له أصدقاء يعرفونه جيدًا وهم شهود مهمون..

ما هو الفارق بين خالدنا وخالدهم؟...

خالدنا شاب في الثامنة والعشرين من العمر، له وجه وسيم وابتسامة هادئة مهذبة توحي بالثقة وعينان مليئتان بالأحلام. هل كان يحب فتاة رقيقة مثله؟.. هل كانت هي تحبه؟.. هل

كان يتهيأ لطلب يدها؟.. شاب سكندري ملأته المدينة الساحرة بحب الجمال، يهوى تربية القطط ولديه صورة وهو يحمل قطة تحت إبطه.. اعتدت أن أثق بمن يحب القطط وأصدقه، لكن هذا موضوع آخر.. شاب يعزف الموسيقا على جهاز الكمبيوتر الخاص به، ويصطاد السمك ولديه شركة استيراد وتصدير صغيرة (على قده).. يمكن أن يكون ابن أو أخا أي واحد منا. عرفت كذلك أنه عاش لفترة في أمريكا وله أخ يحمل الجنسية الأمريكية، وهو يهوى الإنترنت.. لا يعرف أن الإنترنت هوية قاتلة بالمعنى الحرفي للكلمة.. لكنه سيعرف هذا حالاً....

خالدهم – بالصدفة - في نفس السن. هو شاب عاطل وصايع فعلاً. إنه الرجل الذي لا تتمنى أبدًا أن تقابله في زقاق مظلم. يتاجر في المخدرات وفار من الخدمة العسكرية، ويحمل مطواة قرن غزال.. سبق له التحرش بفتيات ومطلوب في قضايا سطو مسلح.

هل يمكن خلط الحقائق لهذا الحد؟.. لماذا لم نسمع هذا الكلام إلا من الداخلية، بينما يصر الجيران والأصدقاء على أنه مجرد شاب مهذب لطيف؟.. يبدو أن قدرته على الخداع كانت فائقة إذن..

خالدنا كان جالسًا في مقهى الإنترنت في كليوباترا، عندما اقتحم المكان بسطويسي.. آسف.. اقتحمه المخبران محمود الفلاح وعوض وراحا يفتشان الموجودين في وقاحة. ما فعله خالد هو أن أبدى امتعاضه وتساءل عما فعله.. كان هذا إعلانًا بالكفر بالنسبة للمخبرين اللذين قررا أن الوقت قد حان للتسلية وإخراج طاقة السادية لديهما.. طوارئ يا عسل كل سنة وانت طيب.. هكذا انهالا ضربًا ولكمًا على الفتى، حتى سقط على

الأرض... لكـن أحدهمـا أنهضـه وأمسـك برأسـه وراح يضربـه عـلى الكاونـتر مـرارًا..

ثـم أن المخبريـن حامـي القانـون اقتـادا خالدنـا إلى عقـار جـوار المقهـى وتوليـا ضربـه بالـركلات في البطـن والصـدر حـتي فقـد وعيـه، فحـاول أحدهمـا إفاقتـه بطريقـة علميـة هـي ضرب رأسـه في جـدران العقـار والسـلالم الرخاميـة. ثـم حملاه داخـل سـيارة الشرطـة إلي قسـم سـيدي جابـر وسـط ذهـول الحاضريـن, وبعـد عـشر دقائـق عـادا بـه بدعـوي طلـب سـيارة إسـعاف لنقلـه إلي المستشـفي, لكنـه كان قـد فـارق الحيـاة..

يقـول الشـهود إن مباحـث سـيدى جابـر انتـشرت بالمنطقـة ليـس بحثًـا عـن الجنـاة، بـل بحثًـا عن محمـول مـزود بكاميرا قيل إنـه التقط صـورًا للجريمـة. يقولـون كذلـك إن مباحـث سـيدى جابـر مارسـت كل أنـواع الضغـط لإثنـاء شـهود الواقعـة عـن الإدلاء بشـهادتهم عـلى تفاصيـل مـا حـدث.

خالدهـم تـصرف بطريقـة مختلفـة تمامًـا.. شـخص بهـذه المواصفـات لابـد أنـه كان يحمـل بانجـو، وعندمـا رأى دوريـة يقودهـا ضابـط مباحـث سـيدي جابـر ورجـلا شرطـة أصابـه الهلـع فابتلـع مـا معـه مـن بانجـو. أصيـب بحالـة مـن الإعيـاء وتـوفي قبـل بلـوغ المستشـفى. وقـال المسـعف في أقوالـه أمـام النيابـة إنـه اسـتخرج لفافـة مـن القصبـة الهوائيـة للمتـوفي والـتي أصابتـه بالاختنـاق، واسـتبعدت التحقيقـات وجـود شـبهه تعذيـب بعـد مناظـرة الجثـة .

كلنـا نعـرف كيـف يسـتخدم البانجـو لتلفيـق القضايـا، وقديمًـا قال ضابـط شرطـة بعيـدًا عـن النـشر: أي رئيس مباحـث لا يحتفـظ في درج مكتبـه بقطعـة حشـيش ومطـواة قـرن غـزال وطبنجـة لـزوم تلفيـق القضايـا، هـو رجـل لا يعـرف شـغله!

لكـن لنـدع الصـور تتكلـم.. الصـورة الـتي نـشرت لجثـة خالـد الرقيـق عاشـق القطـط تجعلـك تتسـاءل: هـل قبضـوا عـلى سـائق القطـار الـذي داس عليـه؟.. لقـد تحطمـت الأسـنان والفـك وتشـوه الوجـه تمامًـا..

خالدنـا صـار هكـذا بعـد تعامـل بسـيط مـع الداخليـة الـتي توحشـت وصـار مـن المسـتحيل إعادتهـا للقمقـم.

خالدهـم صار هكـذا لعـدة تفسـيرات قدمتهـا الداخلية.. التفسـير الأول هـو ابتـلاع كيـس البانجـو.. حـتى لـو كان البانجـو مغشوشًـا فليـس مـن آثـاره الجانبيـة تحطيـم عظـام الوجـه.. التفسـير الثـاني هـو التشريـح.. لكننـا كنـا طـلاب طـب ورأينـا الجثـث وكيـف يصـير حالهـا في نهايـة العـام الـدراسي بعـد مـا يمزقهـا مئـات الطـلاب شـديدو الخـرق، لكننـا لـم نـر هـذا المشـهد.. التفسـير الثالـث هـو ارتطامـه ببـاب عربـة الإسـعاف.. كـثرة التفسـيرات تـدل عـلى أنـه لا تفسـير لديهـم..

خالدنـا كمـا قـال صديقـه الصحفـي بهـاء الطويـل في مقـال لـه لـم يتعـاط المخـدرات لأنـه فى الأصـل غـير مدخـن، وأدى الخدمـة العسـكرية مثـل أى شـاب مـصرى.

خالدهـم مجـرد مجـرم تلقـى عقابـه.. وكمـا وصفتـه الصحـف القوميـة بلطـف: (شـهيد البانجـو).. ظريـف جـدًا.. هـؤلاء القـوم مجموعـة مـن الحمقـى ويجـب أن يعاقبهـم النظـام بقسـوة لأنهـم يؤذونـه بـلا توقـف. المشـاعر ملتهبـة ولـو لمسـتها نسـمة لالتهبـت، لكـن الأخ كاتـب المقـال يسـخر مـن المتـوفى ويهـين أسرتـه وأصدقـاءه.. بـل يهـين مفهـوم الشـهادة الديـني أصـلاً..

خالدنـا غـيّر الكثـير فعـلاً... لـم تذهـب قطـرة مـن دمـه هـدرًا وصـار رمـزًا.. فوجئـت أنـه صـارت لـه صفحـة عـلى الويكيبديـا

العربيـة؛ أي أنـه صـار مـن المعلومـات العامـة الـتي يجـب أن يعرفهـا المواطـن المثقـف. عقـب أداء صـلاة الغائـب عليـه بميـدان كيلوباتـرا، تظاهـر مايقـرب مـن ٣ آلاف شـخص مـن أبنـاء الإسـكندرية والقـوى السياسـية المختلفـة مـن أعضـاء حركـة الجمعيـة الوطنيـة للتغيـير وحركـة الاشـتراكيين الثوريـين و٦ أبريـل وحركـة كفايـة. خالدنـا قـد أظهـر كـم أن الأمـور بلغـت حافـة الهاويـة ولـم يعـد أحـد يتحمـل أكـثر.

خالدنـا كان يعـرف الكثـير لـو أخذنـا بمـا قالتـه السـيدة ليـلى مـرزوق أمـه.. قالـت إن ابنهـا حصـل عـلى فيديـو يتضمـن لقطـات بالصـوت والصـورة لأحـد ضبـاط قسـم سـيدي جابـر والمخبريـن وهـم يقومـون بالاتجـار في الحشـيش، مشـيرة إلى أن المجـني عليـه قـام بنـشر الفيديـو بـين أصدقائـه وذلـك منـذ حـوالي شـهر. خالـد قـال إنـه سـوف ينـشر هـذا الفيديـو في مدونـة..

حـتى لـو كان خالدهـم لـه وجـود وكان يتاجـر بالبانجـو في اللحظـات الـتي لا يغتصـب فيهـا البنـات، فبـأي حـق يتـم إعدامـه في قلـب الإسـكندرية مـن دون محاكمـة؟ وبـأي حـق يخـرج بلطجيـان سـاديتهما عليـه لمجـرد أنـه لا يسـتطيع الـرد؟.. يبـدو أن أهـل (كترمايـا) اللبنانيـة كانـوا شـديدي الرقـة إذن...

خالدنا هو شهيد الطوارئ.

خالدهـم هـو شـهيد البانجـو.. لكـن العبقـري الـذي اصطـك هـذه العبـارة سـوف يدفـع ثمنهـا يومًـا مـا، ولسـوف يتمـنى لـو قطعـت يـده قبـل أن يكتبهـا إرضـاء لفـلان باشـا. هـل أنـت متأكـد يـا سـيدي مـن أن طائـرة الفـرار المتجهـة إلى سـويسرا سـوف تقلـع في وقتهـا حقًـا؟

مزاج عال جدًا

كانت السينما المصرية دائمًا مواكبة لذوق الجماهير لكنها تصنعه كذلك. إنها تتبع المجتمع لكنها تقوده في الوقت ذاته، وهي علاقة غريبة فعلاً. في الستينات عندما كان الموظف قمة السلم الاجتماعي كان هو بطل وزبون الأفلام العربية، ويجب أن نذكر كذلك أن كل بيت سينمائي كان فيه بار. يعود الرجل مرهقًا من الخارج فتسأله زوجته (تاخد كاس؟)، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون مع الخمر تعاملنا مع السجائر: (ماحبش الراجل اللي بيشرب). تقولها شادية لرشدي أباظة الذي سقطت خصلة من الشعر المعجون بالعرق على جبهته.

بدأ السلم الاجتماعي يتغير، وصار زبون السينما هو الحرفي والسباك. هنا ظهر الحشيش في الأفلام بكثافة وصارت الجوزة من لوازم كل فيلم. كل أفلام هذه الفترة لا تكاد ترى شيئًا في كادراتها من الدخان الأزرق، لدرجة أن إكسسوارات فيلم (بنت تحية عزوز) شكلت أحرازًا لقضية مخدرات كاملة عندما ضبطتها الشرطة. ونادية الجندي المعلمة بالجلباب اللامع تتغزل في الجوزة: «جوزة من الهند ومركب عليها غاب». فيرد الحشاشون: «حصل لنا التلبس.. هع هع هع». أضف لهذا نكتة أو نكتتين عن ليلة الخميس والكوارع والركب ليكتمل جو الثمانينات. وأضف كذلك محمود عبد العزيز بطل الفيلم الظريف، وهو يضحك ضحكته الشهيرة وعيناه شبه مغمضتين، والدخان يتصاعد من فمه المفتوح. لا ننكر هنا كذلك أن المد الديني في السبعينات جعل الناس تبحث عن مخدر لم يحرم صراحة دينيًا، وهكذا

ظهر مبدأ أن الحشيش لم يُحرم في القرآن بينما الخمر حُرمت، وهو منطق ناقشه فيلم العار ببراعة وأمانة.

مع الوقت بدأت السينما تتملق الشاب (الروش) الطالب زبون المول.. هنا تكرس سينما الشباب مفهومين مهمين هما البانجو والبيرة. أي شاب طبيعي لابد أن يدخن البانجو ويشرب البيرة مع ظهور البرشام في أفلام عديدة. لا يوجد فرح شعبي في أي فيلم جديد من دون بانجو وبيرة، ولا أفشي سرًا إذا قلت إن معظم القرى حول مدينتي تعلمت هذا المفهوم الجديد، وصار البانجو من أساليب نقوط العريسين المحترمة. لو لاحظت لوجدت معظم هذه الأفلام تظهر مدمن البانجو كشخص ظريف حبوب لا يمكن الاستغناء عنه. قد تكون هذه الأفلام مرآة المجتمع لكنها كذلك تصنعه، وهي علاقة معقدة فعلاً كما قلت.

الحشيش.. البانجو.. الماريجوانا.. القنب الهندي.. المخدرات. لا أبالغ لو اعتقدت أن كل جريمة في مصر تتم اليوم تحت تأثير المخدرات أو طلبًا لثمنها.. كل حادث.. كل إهمال.. كل اغتصاب.. كل سرقة.. كل مشاجرة..

لماذا تذكرت هذا الموضوع الآن؟

إنه ذلك الخبر في الصحف عن نتائج تحليل دم سائق القطار ١٥٢ الذى كان متوقفًا بين محطتى الرقة وكفر عمار في حادث العياط الشهير. الرجل تعاطى الحشيش قبل وأثناء قيادته القطار، أما سائق القطار ١٨٨ فقد عطل الجزرة المسئولة عن توقيف القطار. هناك جهاز أوتوماتيكي في القطار استشعر وجود العطل وخفض سرعة القطار من ١٢٩ كيلومترًا إلى ٦٧ كيلومترًا، وهو ما منع كارثة ذات أبعاد كونية، لكنه لم يستطع التوقف

بالكامل. من جديد الجزرة التي تسبب كل حوادث القطارات في مصر، والتي يبدو أنها مصرة على القضاء علينا.

طبعًا موضوع التغيرات العديدة في الشخصية المصرية قُتل بحثًا، لكننا هنا نتكلم عن الحشيش بالذات.. اللجنة المشكلة من أساتذة الهندسة ونائب رئيس هيئة السكة الحديد وخبير من وزارة النقل اكتشفت أن جهاز اللاسلكي الخاص بالسائق سليم، لكنه لم يستعمله قط في النداء على عامل الأبراج القريبين منه أو القيادة المركزية.

فتش عن المخدرات.. فتش عن المزاج.. فتش عن الدماغ التي ينفق عليها المصريون كل هذه المبالغ كأنها دماغ (إنريكو فيرمي) ذاتها. الناس تشتري الحشيش والبرشام وتزرع البانجو.. بينما بعض الصيادلة المنحرفين يفتشون بنهم في مجلدات الفارماكوبيا عن عقاقير جديدة تصلح. متى اكتشف المدمنون أن أدوية السعال تحوي جرعة ممتازة من الكودايين؟.. بالطبع أخبرهم صيدلي بذلك، ومن اكتشف أن الترامادول يصلح لعمل (دماغ)؟.. أنا أتهم بعض الصيادلة المنحرفين، وأتهم كذلك بعض المحامين معدومي الضمير الذين تخصصوا في إخراج كل تاجر مخدرات من السجن (كالشعرة من العجين) بسبب أخطاء الإجراءات. لهذا السبب لم تجلب عقوبة إعدام تجار المخدرات مردودًا واضحًا. أتهم كذلك المعتقد الشائع أن المخدرات مقوية جنسيًا وهذا سبب قوي جدًا للتعاطي لدى شريحة كبيرة من الطبقات الفقيرة.. يجب أن نزيل هذا الوهم عن الأذهان.

لقد غيرت المخدرات وجه مصر وسوف تغير مستقبلها بلا شك.

الأرقام متضاربة جدًا لكنها مرعبة دائمًا.. في مصر يمكنك

التعامل مع الأمور بطريقة (قليل - متوسط - زائد)، كأنك طبيب يصر على قياس حرارة المريض بظهر يده. يقولون إن حجم تجارة المواد المخدرة بلغ نحو ١٨،٢ مليار جنيه في عام واحد. ما يتم إنفاقه على المواد المخدرة تصل نسبته إلى ٢،٥ في المائة من عوائد الدخل القومي، أو هو نحو ٧٩،٥ في المائة من دخل قناة السويس، و٣٢،٨ في المائة من عائدات الصادرات المصرية و٤١،٣ في المائة من عائد السياحة و٤٦،٩ في المائة من تحويلات المصريين بالخارج. معنى هذا أننا ننفق على المزاج العالي كل دخل قناة السويس تقريبًا ونصف ما يأتي من السياحة. الحكومة المصرية تقدر نسبة ما يباد أو يصادر من المخدرات بـ ٣٠٪ من الكمية الإجمالية وهي نسبة معروفة عالميًا على كل حال لا يمكن تجاوزها. الخبر الجميل هو أن الكميات التي تُضبط تزداد لكن سعر البانجو لم يتأثر مما يعني زيادة حقيقية في الإنتاج.

من الأشياء التي لم أكن أعرفها أن عقار (الاكستازي) يتزايد في مصر، وأن عقار الروهيبنول موجود عندنا. الروهيبنول مشهور جدًا في الخارج لأنهم يسمونه بعقار الاغتصاب.. حيث يدسه الشاب للفتاة في الشراب فلا تعرف أي شيء عما يجري لها. تخيل ما قد يسببه هذا العقار في مجتمعنا.

بين كل مائة شاب هناك ١٦ يجربون المخدرات، وهناك ٤ من هؤلاء يدمنون. عدد مدمني الهيرويين في مصر يتراوح من ٢٠ ألفًا إلى ٣٠ ألفًا.

المخدرات تتزايد بلا شك.. تعرف هذه الحقيقة وأنت ترى هذه العيون المحمرة المنتفخة والنظرة الرخوة الثقيلة في كل مكان. ولسوف تتزايد مع الضغوط الاجتماعية والبطالة والآباء المقيمين بالخارج مكتفين بمنح أولادهم المال، وتزايد معدلات

الطـلاق والتفسـخ الأسري، ولسـوف نقابـل أكـثر مـن سـائق قطـار لم يضـع الجـزرة في السـنين القادمـة. مـا أعرفـه أنـا هـو أنـني سـأكتب عـن هـذا الموضـوع مـرارًا، وسـأراقب أولادي جيـدًا جـدًا داعيًـا الله أن يحفظهـم مـن تجربـة سـيجارة البانجـو الأولى أو قـرص الإكسـتازي الأول، إلى أن تقـضي الحكومـة – بعـون الله - عـلى البطالـة والفقـر والمـرض والجهـل وتجـارة المخـدرات.

الوحش داخل الإنسان

صبيحة عيد الأضحى بعد الصلاة. يدوي في الجو خوار العجول والأبقار التي تقف عند الجزار على ناصية الطريق تنتظر الذبح. كنت أنا مشاركًا في أضحية لذا كان علي أن أنتظر. تحول الشارع إلى بحيرة من الدم ترتفع إلى منتصف إطارات أية سيارة مارة، وقد جلبوا مجموعة من فتية السلخانة المحترفين المدججين بالخناجر والمدي ليباشروا الذبح، والواحد منهم صار نجم الساعة.. مفعمًا بالغرور والاستعراض يفرغ كوب الشاي في جوفه في دقيقة، ثم يشهر السكين ويثب فوق هذه البقرة أو هذا العجل ليجثم فوقه، ويقيد أقدامه بالحبال ثم يذبحه في ربع ثانية، وبعدها تبدأ الطقوس المعهودة من الحيوان الذي يتشحط في دمه عاجزًا عن فهم ما حدث له، ثم السلخ ثم التقطيع والتعليق.. بالطبع أتابع هذه الطقوس كضرورة ولا أحاول أن أركز معها أكثر من اللازم.

في الأعوام القليلة السابقة لاحظت أن الأمر يوشك على أن يصير كرنفالاً.. أسر كثيرة تجئ بسياراتها وأطفالها وثياب العيد الأنيقة، لتقف وسط الدم وتراقب المشهد ولا تفوت منه ثانية واحدة، والكل يرفع الهاتف المحمول ليصور كل لحظة من لحظات الذبح. لا بأس.. لنقل إنها فرحة العيد وفرحة الطاعة، وهي فرحة مشروعة.

لكن شيئًا من الشك بدأ يتسرب إلى نفسي، وأنا ألاحظ أن هناك نوعًا واضحًا من التلذذ.. خذ مثلاً هؤلاء الأطفال الذين اتجهوا نحو عجل مربوط إلى عمود نور ينتظر دوره، وراحوا يرجمونه

بالحجارة ويسبونه، بينما الكبار مستمتعون، حتى نهرت أنا هؤلاء الصبية: «حرام عليكم.. مش كفايه حيتدبح حالاً؟». السيارة التي تتوقف أمامي لتخرج منها فتاة تضع مساحيق وعطورًا ثقيلة جدًا وتلبس الإسدال وتحمل كاميرا فيديو، وتتسع عيناها في نهم وحشي ثم تصيح : «شوفي يا هبة!... البقرة خايفة تندبح!».

وتقهقه بينما تطل هبه – ذات ثمانية الأعوام - من السيارة وهي تضحك في فرح..

من رحمة الله أن هذه الحيوانات العجماء لا تفهم ما يدور حقًا، لهذا تحمس أحد الذكور جنسيًا نحو أنثى مربوطة جواره واتخذ وضع الجماع.. هذا الحيوان سيُذبح هو وأنثاه بعد دقائق لكنه يحاول تكوين أسرة. كانت هذه دعابة أقوى مما يتحمله الناس فانفجروا يضحكون ويسبونه بأقذع السباب، ثم ضربوه بالحجارة ليتخلى عنها.

بدأت أشعر بالرعب.. الأمر يتجاوز فرحة العيد إلى مهرجان من مهرجانات المسرح الروماني، حيث يلقون بالعبيد للأسود وهم يسخرون منهم.. الدم والخوف والألم.. لا تقل لي إن هذا الحماس سببه التدين، فكل نص ديني أعرفه يدعو لأن تحسن القتلة ولا تعذب الحيوان. والأدهى أنني لم أكن أرى هذه القسوة فيما سبق..

ماذا حدث للمصريين؟.. السؤال الملتاع الذي أطلقه د. جلال أمين منذ أعوام ما زال يتردد..

في الفترة الأخيرة صار السؤال هو: ماذا حدث للعرب؟... لقد استعدت ذات المشهد وأنا أرى الصور الشنيعة لذلك الشاب المصري الذي مزقته قرية لبنانية كاملة، وعلقته كالذبيحة..

وكالعـادة يحمـل الجميـع أجهـزة المحمـول ليصـوروا كل تفاصيل هذا المشـهد.. الفرحـة في العيـون مـع قـدر لا بـأس بـه مـن الانتشـاء.. مشـهد تعليـق جثـة موسـوليني وكلارا بيتاتـشي يتكـرر بعـد خمسـة وسـتين عامًـا، مـع كل مشـاهد الإعـدام دون محاكمـة Lynching في الغـرب الأمريـكي..

مـاذا فعـل؟... لا تقـل لي إنـه قتـل أسرة مـن فضلـك، فالمتهـم بـريء حـتى تثبـت إدانتـه ومـا دام لـم يُحاكَـم فأبسـط القوانـين يقـول إنـه ليـس مـن حـق أحـد أن يعدمـه سـوى قاضيـه الطبيعـي. حـتى لـو أظهـر تحليـل الحمـض النـووي أن دمـاء الجـدة والطفلـة عليـه، فـلا أرجـح أن أحـد مـن فتكـوا بـه أجـرى اختبـار PCR قبـل أن يمزقـه. بـل سـأزعم كذلـك أن بعـض مـن ضربـوه لـم يكونـوا يعرفـون تهمتـه أصـلاً، هـم وجـدوا أناسًـا يضربـون رجـلاً فاشـتركوا معهـم.

أذكـر عندمـا كنـت طبيـب امتيـاز أن جـاءني في الاسـتقبال فـتى متهـم بتعاطـي المخـدرات، فطلبـت مـن رجـل الشرطـة الـذي يربطه بالأصفـاد أن يصطحبـه إلى العنـبر.. عـلى البـاب حـاول الفـتى أن يتملـص، فانهـال عليـه الشرطـي ضربًـا.. سـقط عـلى الأرض.. هنـا فوجئـت بـأن كل رجـال أمـن المستشـفى ورفيقـي الشرطـي ينهالـون عليـه ركلاً في بطنـه وضلوعـه وخصيتيـه بأحذيتهـم المـيري الثقيلـة، وهـو يعـوي ككلـب جريـح.. لـم يعـرف رجـال الأمـن مـن هـو الفـتى ولا مـاذا اقـترف، ولا يعرفـون أي شيء سـوى أن هـذا جسـد بـشري يجـب ضربـه لإخـراج طاقـة العنـف والسـادية والإحبـاط بالداخـل، فلـم يتركـوه إلا وقـد غـيروا تشـخيصه مـن (اشـتباه تعاطـي المخـدرات) إلى (صدمـة ناجمـة عـن نـزف داخـلي)..

نعـم.. القصـة ترينـا الكثـير مـن السـادية والعنـف الكامـن في

النفس البشرية.. ترينا الحيوان الذي نخفيه تحت قشرة مخنا عندما يرى النور، والفكرة هنا أن هذا يعكس منظومة كاملة من الخلل في النفسية العربية والإحباط والتوتر، لكنني لا أرى فيها استهدافًا للمصريين من قبل اللبنانيين.. السؤال بصراحة: هل لو كان هذا الشاب تونسيًا أو سوريًا كانوا سيطلقون سراحه ويعتذرون له؟... ماذا يحدث في أية قرية مصرية يموت طفل من أطفالها على الطريق السريع؟.. ماذا يحدث لسائق السيارة المصري؟. وماذا عن إشعال الإطارات وتحطيم السيارات المارة كلها، وتدخل قوات الأمن المركزي لتفتح الطريق؟

ومن جديد - كما في أيام الجزائر - انتهزت وسائل الإعلام هذا الحفل، ووقعت في فخ نصبه الإعلام الإسرائيلي بالتأكيد.. إن هذه الجماهير أظهرت سادية لعينة، لذا حان وقت ممارسة الماسوشية الألعن: كل العرب يكرهون المصريين.. تعالوا نتلذذ بهذه الفكرة وليحك كل منا تجربة مماثلة سابقة تجعل دمك يغلي. تعالوا نتشاجر على شبكة الإنترنت بين من يقولون إن هذه شعوب لقيطة غمرها خير مصر يومًا، ومن يقولون: هذا مصري فهو يستحق إذن. هناك من قال إن هذا طبيعي لأن القرية شيعية (غير صحيح) ومن قال إن هذا طبيعي لأنها قرية مسيحية (غير صحيح). هذا صيد واضح في الماء العكر أصلاً.

العاقل الشريف دائمًا د. محمد المخزنجي - وهو طبيب نفسي- يلقي باللوم على ظاهرة كراهية الأجانب (وليس المصريين) ويقول : ما حدث في «كترمايا» يتعلق بحالة الانحطاط العربي الذي يشملنا جميعاً، وهو انحطاط نفسي وروحي مرتبط بالانحطاط السياسي والاجتماعي الذي يهيمن على عالمنا العربي إلا قليلاً، قليلاً جداً، وهو أمر يتجاوز كثيراً حدود غريزة الثأر

الـتي عـادت باندفـاع محمـوم في ظـل عدالـة بطيئـة غـير ناجـزة، وألاعيـب قانونيـة لمحامـي الشـياطين، وفسـاد لا يمكـن اسـتبعاد وصولـه إلى منصّـات القضـاء».

ثـم في موضـع آخـر يقـول: «كل لغـو مثـار عـن أن الجريمـة تحـطّ مـن كرامـة مـصر والمصريـين، هـو تغطيـة عـلى حقيقـة أن الإهانـة بـدأت وتبـدأ مـن هنـا، مـن الداخـل المـصري نفسـه؛ حيـث المنـاخ الفاسـد يدفـع بمئـات آلاف المصريـين الشـباب، للبحـث عـن مـكان آخـر في العالـم غـير وطنهـم الـذي - بسـبب تراكمـات سياسـية آثمـة- لـم يعـد يوفـر لهـم فرصـة لحيـاة كريمـة أو طموحـاً مشروعـاً؛ فنفـروا إلى هجـرة شرعيـة أو غـير شرعيـة في ظاهـرة لـم تشـهدها مـصر مـن قبـل».

نعـم.. إن قائمـة الاتهـام طويلـة معقـدة.. لكـن صـورة الفتـاة التي تمـوت ضحـكًا عـلى مشـهد بقـرة مقيـدة بالحبـال تتشـحط في دمهـا لا تفـارق ذهـني، وأعتقـد أن السـؤال يبـدأ هنـا.

عباس مش جدع!

تابعت بنصف اهتمام أخبار القافلة المتجهة لغزة لتوصيل المعونات وربما إحداث ثقب في الحصار. هذه الأخبار كثيرة على كل حال، وفي الوقت نفسه لم أعتقد أن هناك خطرًا حقيقيًا على أعضاء القافلة.. هي لعبة إعلامية مدروسة جيدًا تهدف إلى إحراج إسرائيل وفضح تعنتها، وربما يصيب مصر جانب من الهجوم اللفظي كذلك. السيناريو المتوقع والمنطقي هو أن تحتجز الحكومة الإسرائيلية القافلة عدة أيام ثم تعيدها من حيث جاءت.

كان هذا اعتقادي إلى أن فتحت قناة الجزيرة في ذلك اليوم، فوجدت المذيعة تتحدث عن الاعتداء على سفن القافلة.. بل رأيت جرحى ينزفون وأناسًا يرقدون على الأرض غارقين في بركة دم، مع حديث عن الفعل الإجرامي وكلام عن ١٩ قتيلاً ونحو ٥٠ جريحًا.. وهناك لقطات من على سطح سفينة توحي بحرب.. لا شك أن عددًا كبيرًا ممن رأيتهم أمس يتناولون طعام الغداء صاروا موتى غارقين في دمهم.

يا نهار اسود ومنيل!... لم يبلغ أكثر كوابيسي جموحًا هذه الدرجة. هل جن الإسرائيليون تمامًا؟.. كل طفل يعرف أن هذه سفن مدنية محملة بنشطاء سلام من كل الجنسيات. أي إن أية دولة استعمارية تملك عقلاً كانت ستسمح بمرور هذه السفن وتكسب نقطة، أو – إن كانت ماضية في غيها - تحاصر هذه السفن عدة أيام لتمنعها من المرور وتضطرها إلى العودة. أما أن تطلق النار وتحدث مجزرة فهو الجنون بعينه.

هـل جـن هـؤلاء وصـارت لهـم بـدل العقـول عبـوات مـن النابالم، أم هـم يعرفـون مـا يفعلـون جيـدًا؟.. لعلهـم أرادوا البرهنـة عـلى أنهـم لا يمزحـون ولا يهادنـون عـلى طريقـة (الصدمـة والترويـع). لقـد اعتـادت إسرائيـل عـدم العقـاب.. أدمنتـه منـذ مذبحـة ديـر ياسـين مـرورًا ببحـر البقـر ومذبحـة قانـا وانتهـاء بمهاجمـة هـذه القافلـة المدنيـة.

ومـاذا عـن دم الغربيـين الذيـن ماتـوا أو جرحـوا؟... لقـد اعتدنـا أن الـدم الغـربي لـه ثمـن إلا في هـذه المواقـف.. لقـد رأينـا في موقـف سـابق كيـف تلقـى الناشـطون الغربيـون علقـة عـلى يـد الشرطـة المصريـة لـم يتلقهـا حرامـي في مولـد أو حمـار في مطلـع، ولـم تتكلم دولـة غربيـة واحـدة لأن هـؤلاء ضربـوا أثنـاء قيامهـم بعمـل مشـين هـو الاحتجـاج عـلى إسرائيـل.

لقـد رأينـا الجرافـة الإسرائيليـة تهشـم رأس راشـيل كـوري في جريمـة موثقـة جيـدًا، وهـي مواطنـة أمريكيـة أي أن دمهـا غـال جـدًا، لكنهـا لاقـت حتفهـا وهـي تدافـع عـن الفلسـطينيين.. إذن فلتمـت بـلا ثمـن، ولتتسـامح الحكومـة الأمريكيـة كمـا تسـامحت مـع قتـلى السـفينة ليـبرتي مـن قبـل.

عـلى الفـور تداعـت الأحـداث بسرعـة، وبـدأ الروتـين المعـروف الـذي يتكـرر كلمـا حدثـت مذبحـة: اللعبـة المملـة مسـتمرة.. غضب.. مظاهـرات في عـدة عواصـم.. اجتمـاع عاصـف في مجلـس الأمـن.. العجـز عـن اتخـاذ قـرار يوجـه اللـوم لإسرائيـل خاصـة أن الفيتـو الأمريـكي جاهـز، وعضـو الولايـات المتحـدة يصحـو مـن نومـه يوميًـا ليسـتعد للفيتـو إلى أن يجـيء المسـاء فينـام.

كالعـادة ظهـر عمـرو مـوسى وبـدا منهمـكًا ومتعجـلاً جـدًا تحاصره الميكروفونـات، و دعـا لاجتمـاع مجلـس الجامعـة العربيـة، ثـم أدلى

بتصريح مهم جدًا هو أن إسرائيل على ما يبدو لا تريد السلام!.

تذكرت صديقًا لي يعاني مشاكل لا تنتهي مع جاره (عباس).. الجار قد ألقى القمامة أمام بابه.. سكب الماء القذر على غسيله.. في كل مرة يأتي صديقي لي ليقول في دهشة: «تصدق عباس ده طلع مش جدع؟!».

وتستمر نفس المسرحية.. عباس جرجر صديقي في الأقسام واتهمه بالتحرش بزوجته، واستأجر بلطجية لضربه، واستأجر نسوة يمزقن ثياب زوجته في الشارع.. في كل مرة يأتي صديقي ليقول وهو يجفف عرقه أو دمه: «على فكرة عباس ده طلع مش جدع!». فأجن أنا غيظًا.. عباس فعل كل شيء ممكن ليثبت أنه وغد، فماذا تنتظر أنت؟

بالله عليكم كيف تثبت إسرائيل أنها غير جادة في عملية السلام، بل هي لا تريد السلام أصلاً؟.. ماذا تفعل وعلى أي شيء تقسم؟.. أحرقت الديار وقتلت الأطفال وخنقت غزة وأنتم مصرون على أن السلام خيار استراتيجي.. كيف تثبت هذه الدولة المسكينة أنها عدوانية شيطانية و(مش جدعة)؟.. لو علقت أطفالكم على المشانق وسكبت عليكم الكيروسين المشتعل، لظللتم تعتقدون أن السلام ممكن.. فقط إسرائيل تجعله صعبًا بعض الشيء.

كلما شعرت بأنني فاشل في حياتي أو لم أحقق شيئًا، تذكرت وزراء الخارجية العرب.. عندها أشعر بأنني رائع وترتفع معنوياتي. كل كائن في العالم له نفع ما، حتى الذبابة تلعب دورًا عجيبًا في أنها تنقل لقاح شلل الأطفال من طفل لآخر قد يكون غير مُطعّم، لكن من العسير فعلاً أن تجد نفعًا لهؤلاء السادة.

يأتي رد الفعل الأقوى – كما هي العادة منذ أعوام - من تركيا..

ويبدو أن نبوءة هيكل القديمة عن تضخم دور دولتين محوريتين في المنطقة هما تركيا وإسرائيل كانت دقيقة جدًا. هذا الكلام قيل منذ خمس سنوات تقريبًا.. لا شك في أن تركيا احتلت بالضبط الموقع الذي كان يجب أن تحتله مصر، حتى أنها توشك أن تصير الشقيقة الكبرى لكل العرب، بينما مصر مشغولة.. بم بالضبط؟؟؟ بانتخابات الشورى ومشاكل شوبير ودية سوزان تميمي ومباراة الجزائر وأشياء كثيرة جدًا لا جدوى منها غالبًا.

إن لهجة تركيا قوية وغضبتها صادقة بلا شك، ويبدو أن هذا راق للعرب جدًا.. ان يكسبوا في صف القضية الفلسطينية دولة قوية شامخة مثل تركيا.. دولة من الدول التي يعمل حكامها من أجل شعوبهم لا ضدها. إن تركيا وإيران عمق استراتيجي إسلامي لابد من الاستفادة منه كما قال الأستاذ فهمي هويدي يومًا، ومن الخطأ أن نفقد إيران لأن الولايات المتحدة أقنعت البعض أن إسرائيل أقرب لهم منها. لماذا تعالت صيحة (هؤلاء رافضة يسبون الصحابة) بعد هزيمة إسرائيل مرتين في لبنان؟. لم يتغير شيء وتاريخ الشيعة وفكرهم معروف، فلماذا تعالت حرارة الشحن في الأعوام الأخيرة بالذات؟

لاحظ بعض المعلقين أن لهجة الغضب التركية بدأت تخف مع الوقت، ولربما تغلبت لغة المصالح الاقتصادية والاستراتيجية في النهاية.. إن المصالح الاقتصادية أقوى من أية مبادئ أو عواطف، والدليل أن الدول الغربية لم تحرك ساكنًا ضد إسرائيل بينما المظاهرات الغاضبة تملأ شوارعها، لكننا بالتأكيد نشهد أيامًا فريدة. عزلة إسرائيل تتزايد برغم أنها تثبت للمرة الألف أنها فوق العقاب.. جنون القوة يعميها تمامًا.. ساستها يتصرفون بغباء واضح.. أية جولة في المواقع الغربية

عـلى الإنترنـت تتيـح لـك قـراءة كلام لـم تتصـور أن يكتبـوه عـن إسرائيـل مـن قبـل، لدرجـة أنـني حسـبت بعـض العبـارات قـد كتبهـا عـرب. إن الحقيقـة الـتي نعرفهـا نحـن منـذ عقـود قـد بـدأت تتكشـف ببـطء للغـرب. بالتأكيـد سـتكون هنـاك قوافـل أخـرى ولسـوف يـزداد موقـف إسرائيـل سـوءًا. لا جـدوى مـن أوبامـا فهـو مجـرد رجـل مثقف طيـب وغلبـان أمـام الديناصـورات الـتي تحـرك السياسـة الأمريكيـة. لا جـدوى مـن الحكومـات العربيـة فقـد ارتضـت الجلـوس في كواليـس التاريـخ تراقـب المسرحيـة الدائـرة عـلى الخشـبة، ولا تجـرؤ عـلى المشـاركة ولـو بسـطر.. فقـط تكتشـف بعـد كل صفعـة جديـدة أن (عبـاس مـش جـدع).

رجل لا يتعب

مقالات هذا الرجل تنهمر علينا من كل صوب بحيث لا يمكن ألا تعلق عليها. وبرغم إدراكك التام لعدم جدية ما يقول وصعوبة التعامل معه كرأي، فإن كثرة الشيء وغزارته تعطيانه أهمية لا شك فيها.. عندما يكثر البعوض فلا يمكن أن تتجاهله مهما حاولت والرجل يدرك ذلك.

اسم الرجل هو موريس صادق المحامى الذي يصف نفسه بأنه المستشار القانونى بالولايات المتحدة الامريكية ورئيس الجمعية الوطنية القبطية بالولايات المتحدة. يكتب الكثير من المثقفين عن التعصب الكريه الذي يجتاح المجتمع المصري، ويطالبون بأن يعم الجميع حق المواطنة، هنا يأتي رجل كالأخ موريس يجعل هذه الرسالة شبه مستحيلة، لأنه وهو قابع في واشنطن يرسل رسائل كراهية لا تنقطع يشعل بها الداخل المصري، وعندما تتكلم عن نبذ التعصب يبرز لك أحدهم هذه الخطابات ويقول لك: «فلتر كيف يكرهوننا.. فلتر ما يقولونه سرًا بعيدًا عن عدسات التلفزيون ومكبرات الصوت!».

للأخ موريس آراء عميقة جدًا في السياسة والتاريخ صححتْ الكثير مما كنت أعتقده، ومنها:

١- جماعة الأخوان المسلمين لم يؤسسها حسن البنا وإنما وجدت منذ أن غزا العرب مصر واحتلوها.

٢- عبد الناصر كان من أهم دعاة الخلافة الإسلامية وقد أعلن قيام الدولة الإسلامية عام ١٩٥٢..!.. معلوماتي أن عبد الناصر (بهدل) الأخوان المسلمين، وكان حكمه أقرب للعلمانية،

لكـني كنـت مخطئًـا كمـا يبـدو. لكـن الأجمـل لـم يـأت بعـد: « ونهبـوا ثـروات الأقبـاط واجبروهـم عـلى محاربـة إسرائيـل الدولـة المسـالمة والـتى تعيـش فى أرض الميعـاد بعـد أن حرروهـا مـن الفلسـطينيين المسـلمين الغـزاة لهـا». إسرائيـل مسـالمة؟.. هـذه معلومـة جديـدة أخـرى.

٣- عبـد النـاصر طـرده والـده مـن منزلـه بعـد زواجـه مـن أخـرى فكفلـه عمـه وعطـف عليـه الاقبـاط فعلمـوه عـلى نفقتهـم.

٤- في عـام ٦٧ اعلـن عبـد النـاصر الحـرب عـلى دولـة اسرائيـل المسـالمة وتدفـق جيشـه مـن المسـيحيين والمسـلمين وعـبروا قنـاة السـويس بأحـدث الأسـلحة فحطمتـه اسرائيـل فى سـت سـاعات وقتلـت مائـة ألـف. لمـاذا عـبر نـاصر القنـاة عـام ٦٧ إذا كان جيشـنا يقـف عـلى الضفتـين؟! موريـس يعـرف.

٥- اضطـر الأقبـاط الى الدخـول فى حـرب ١٩٧٣ ضـد إسرائيـل وبفضلهـم وبفضـل أمريـكا عـادت سـيناء لمـصر.

٦- مسـجد السـيد البـدوى كان كنيسـة أيـام الغـزو العـربى لمـصر وحولـه الغـزاة الى مسـجد وأطلقـوا عليـه السـيد البـدوى رمـزا للحاكـم المحتـل.

٧- مـن يفكـر في إلغـاء مولـد أبي حصـيرة يفعـل هـذا تمهيـدًا لإلغـاء مولـد مـار جرجس المسـيحي!

٨- حـاول المجـرم أحمـد عـرابى إقامـة دولـة الخلافـة الاسـلامية فضربـه الانجلـيز واحتلـوا مـصر وأنقـذوا الأقبـاط.

٩- الإنجليز طردوا من مصر بعد ثورة ١٩١٩..

يقـول كذلـك: « سـأدافع عـن أهـل بلـدى المسـيحيين الغلابـة مـن أشرار مسـلمين يقتلـون ويذبحـون البـشر بـكل الطـرق وخاصـة بعـد

صلاة الجمعة». تصور هذا!.. المسلمون يذبحون البشر خاصة بعد صلاة الجمعة!... لم يحدث هذا الجمعة الماضية على ما أذكر..

ثم يقول: « ان عدد الاقباط ١٨ مليونًا يواجهون نفس المشاكل من الإرهاب الإسلامى الذى يواجهه اليهود الخمسة ملايين داخل اسرائيل». لأ بأه.. هل الرجل قال هذا الكلام فعلاً؟.. أنا أشك في أن هذه الخطابات مدسوسة عليه ويجب التأكد من أنه كتبها، ولو كان كتبها يجب التأكد من أنه يعي ما يقول، لأنه بهذا يفصل أقباط مصر ليضعهم في وعاء واحد مع يهود إسرائيل.. ويعتقد أنه بهذا يقدم لهم خدمة!..

هناك الأخت مارينا ميخائيل التي تقول في مقال بالإنجليزية: «منذ غزا الإسلام مصر والأقباط يعاملون كالكلاب.. تخيل هذا.. ثم تخيل أن من يعاملك هكذا هم أجانب!.. تخيل أن قومك يقتلون ويهانون ويعذبون.. تخيل أن تعامل كالفلاحين peasants من قوم يحتلون وطنك». لا أفهم كيف يُعامل الفلاحون، إلا إن كانت الأخت مارينا إقطاعية ممن يضربون الفلاحين بالسياط ويربطونهم في الساقية. ثم هل رأيت قبطيًا يُعامل كالكلاب من قبل؟.. هذه جعجعة تقصد بها إرضاء الأمريكيين لا أكثر ولتذهب الدقة والأمانة للجحيم.

أذكر واحدًا من هؤلاء اتصل بقناة الجزيرة ليقول إن الأدب العربي (كله عُهر) وعلينا أن نرجع للأدب الفرعوني العظيم!.. هكذا ببساطة قرر أن ما كتبه المتنبي وأبو العلاء المعري وطه حسين و.. و.. كله عهر.. فقط قال مداخلته بالعربية ولم يقلها بالديموطيقية للأسف!

مشكلة الأخ موريس إذن ليست مع المتطرفين – وهي مشكلتنا

جميعًا - ولكنها مع الإسلام نفسه، وهو ينطلق من افتراض ساذج أن أمريكا لا تنام من شده الوله بالأقباط، وأن الأسطول السادس جاهز للتحرك لو صرخ أحدهم (وا بوشاه!).. بينما أمريكا بالفعل لا يعنيها في المنطقة سوى إسرائيل والبترول.. ولو اقتضت مصلحة إسرائيل تعذيب الأقباط لجاء وفد من أعضاء الكونجرس يرأسه السناتور (مش عارف مين) للإشراف على هذا. قضية الأقباط لا قيمة لها عندهم إلا حق التدخل. بالفعل يحسن الأمريكان استغلال هذه النقطة كما يستغلون نقطة الديمقراطية، وهم غير جادين في النقطتين.. مجرد طريقة للتدخل من حين لآخر.. مسمار جحا يطمئنون عليه كلما راق لهم هذا..

ثم هو لا يبالي بأن يشعل النفوس هنا، وأن يتأذى من كلامه طانط أنجيل وعمو مينا وبشوي الذين ظلوا في شبرا ويبتاعون الفول والخبز بالمسامير صباحًا. إنه مستريح في واشنطن دي سي ويعتقد أن كل كلمة يقولها تقربه منهم درجات. إنه يقف على الرصيف الآخر يشتمك عالمًا أنك لن تصل إليه..

ما كل هذا الحقد في خطاباته؟.. يمكنك أن تراه يضغط على ضروسه وقد تضخمت العضلة الماضغة عنده من فرط الغل. هل هذه خير دعاية للمسيحية دين المحبة والسلام؟.. أنت لا تكف عن ترك انطباعات سيئة عن المسيحية كالتي يتركها ابن لادن عن الإسلام.

أرى مثل هذه العضلة الماضغة المتضخمة لدى آخرين مثل مجدي خليل و شفيق أبو زيد قس الفاتيكان والمحاضر بأكسفورد الذي تستضيفه قناة الجزيرة كثيرًا.. كلاهما يملك شحنة لا بأس بها من الغل، لكنهما كذلك يقولان كلامًا منطقيًا ذكيًا جديرًا

بمناقشته..

سألت صديقي القبطي عن رأيه في هذا.. صديقي هذا سليط اللسان ولا يجاملني أبدًا، وقد ضحك كثيرًا عندما قرأ هذا الكلام وقال:

ـ «هذا الرجل كالأطفال يتجاهل الحقائق الواضحة كالشمس لمجرد أن يغيظك.. كأن الرجل يفقأ عينه ليخيفك».

ثم أضاف كلمة لن أنساها:

ـ «عندما يذهب مهندس الكمبيوتر اليهودي (ديفيد كاوفمان) إلى نيويورك ويصنع لوبي، فهو يصنع لوبي ذكيًا يسيطر على مصائر العالم، بينما يذهب هذا الأخ إلى نيويورك ويحاول أن يصنع لوبي فيأتي شديد الغباء.. النتيجة هي أن الأمريكان يفهمون جيدًا تفاهة ما يقول، لكنهم يحسنون استغلاله».

لا تتوقع أبدًا أن يرحل المسلمون عن مصر يا عم موريس ويعودوا للجزيرة العربية، كما لا يتوقع أحد أن تختفي المسيحية من مصر.. إذن فلنتعايش كما كنا دومًا..

على كل حال واضح أن أقباط المهجر لا يهيمون به حبًا - وهذا أراحني كثيرًا - إذ صرح مايكل منير رئيس هيئة أقباط المهجر: «لقد أصدرنا البيان بالتبرؤ من مجموعة موريس صادق بعد أن ضج الأقباط المصريون في الولايات المتحدة منه فقد كان يحصل على مقابل مادي كبير لإنهاء إجراءات إقامة الأقباط في أمريكا وكان يغرر بهم بتقديمه لنفسه على أنه محام ويستطيع مساعدتهم. وكانت الطامة الكبرى عندما طالب بمساعدة شارون وهو ما أظهرنا في شكل الخونة وهذه جريمة لأن الشأن القبطي شأن مصري أولا وأخيرًا».

على موريس صادق لو لم يكن قد كتب هذا الكلام أن يعلن

أن هنـاك مـن يسـتعمل اسـمه، وأن يعلـن هـذا في وضـوح، لأن هـذه الخطابـات هـي بنزيـن يُسـكب فـوق نـار حـتى لـو لـم يكـن كلامـه معـبرًا إلا عـن رأيـه الخـاص.

حسب الهوية

أتذكر راجفًا القصة التي حكاها لي أحد المصريين عن صديق له، ذهب إلى بيروت للهو في أعوام الحرب الأهلية المنحوسة. ركب سيارة نقل عام فكان من حظه الأسود أن استوقفتها في شارع جانبي مجموعة من الشباب الملثمين المدججين بالسلاح.. راحوا ينزلون ركاب السيارة واحدًا واحدًا فيسألونه عن ديانته ويفحصون أوراقه، والمشكلة هي أن باقي ركاب السيارة لا يعرفون الإجابة.. هذا يتركونه ينصرف، وهذا يأخذونه على جنب إلى جوار الجدار فيذبحونه بالسونكي كالدجاجة.. كان هذا كمين (إعدام حسب الهوية) من الكمائن التي انتشرت في لبنان وقتها. قل لي بربك ما هي الإجابة الصحيحة؟.. ما هي الإجابة الصحيحة؟.. بسرعة!.. هل الصواب أن تكون مسلمًا في هذه اللحظات أم مسيحيًا؟.. لم يعرف صاحبنا الإجابة قط لأن دوره جاء.. وعندما وقف وسط الجثث المذبوحة لمن سبقوه، وعندما طلبوا منه أوراقه ظهرت دورية من الشرطة؛ ففر المعتدون ونجا بمعجزة شبه سينمائية.. عاد المصري على الفور إلى وطنه، ويحكي صديقي أنه ظل أعوامًا يجلس في غرفة خافتة الإضاءة يحملق في الجدار ولا يتكلم.. لقد احترق جهازه العصبي ولا تثريب عليه..

من انتصر في حرب لبنان ومن الذي فرض كلمته بعد كل هذه الدماء؟.. لا أحد يعرف. ما أعرفه يقينًا هو أنهم يحلمون بهذا المستقبل لمصر ويسعون له سعيًا حثيثًا متحمسًا. المجد للكراهية والحقد والدماء، وليتشرب الأسفلت دماء أبنائنا.. فقط كلما رفع أحد المثقفين – مسلمًا أو مسيحيًا - صوته محذرًا مطالبًا

بالتعقـل اتهمـوه بأنـه متخـاذل وضـد الديـن.. هنـا يجـد المسـلم الـذي يطالـب بالتعقـل نفسـه في موقـف حـرج عندمـا يعـرض أحـد الغاضبـين عليـه خطابًـا مـن موريـس صـادق أو مقـالاً لأحـد أقبـاط المهجـر، ويقـول لـه: « أنظـر لـترى كـم يكرهوننـا!».

اعتـدت أن أقـول إن معاملـة المسـيحيين في مـصر غـير متوازنـة؛ فهنـاك تعصـب في الشـارع لا شـك فيـه، وهنـاك تدليـل لا شـك فيـه لـدى الجهـات الأمنيـة. وقـد نـشرت هنـا خواطـر طالـب جامعـي مسـيحي يصـف مـا يشـعر بـه عندمـا يسـمع الشـتائم تنهـال عـلى دينـه مـن زاويـة جـوار بيتـه، وأعـرف كيـف كان الطلبـة المسـيحيون يعاملـون في اللجـان الشـفوية في الكليـات، لكـن في الوقـت نفسـه حكيـت عـن ضابـط حـرس الجامعـة الـذي يهـدد الطالـب المسـلم المعتـدى عليـه كي يتنـازل عـن المحـضر الـذي يريـد تحريـره ضـد المسـيحي الـذي كاد يفقـأ عينـه... هنـاك عـدم تـوازن طيلـة الوقـت، وهـذا يـؤدي إلى اختـلال واضـح، وقـد كتـب د. عـلاء الأسـواني في مقالـه الأخـير يحلـل العلاقـة المعقـدة بـين الدولـة والكنيسـة، حيـث تسـتعمل الأخـيرة مـع الدولـة طريقـة العصـا والجـزرة.. اعتصامـات في الداخـل وضغـوط مـن أقبـاط المهجـر، وفي الوقـت ذاتـه تأييـد كامـل للنظـام وفكـرة التوريـث..

قضيـة وفـاء قسـطنطين وقضيـة كاميليـا جعلتـا الشـارع المـصري يغـلي مـن الناحيتـين، والسـبب الرئيـس في رأيي هـو الصمـت الزائـد المتعسـف مـن الكنيسـة في القضيـة الأخـيرة بالـذات. كان الـكل يتكلم والترتيـب للمظاهـرات والوقفـات الاحتجاجيـة يجـري، بينمـا الكنيسـة صامتـة تمامًـا عـلى طريقـة (إنهـم يقولـون.. دعهـم يقولـون)، وكانت تكفـي بضـع كلمـات لتهدئـة الأمـور وكان يكفـي النفـي أو الإثبـات.. لكـن كل مـا فعلـوه هـو أن صرح أحدهـم: «لقـد تـم غسـل مخهـا

ونحـن نغسـل مخهـا المغسـول!.».. هـل هـذا كلام؟.. لا غرابـة في كـون العنـف في النفـوس بلـغ مبلغًـا لا يوصـف، وقـد كتـب الأسـتاذ فـراج اسـماعيل في موقـع المصريـين يقـول إنـه لا يملـك معلومـات كافيـة تسـمح لـه بالكتابـة عـن كاميليـا، خاصـة وان لديـه كصعيـدي يعـرف بيئتهـا جيـدًا مـا يدعـوه للتحفـظ عـلى مـا يُقـال، فـكادت الصفحـة تحـترق مـن الهجـوم الـذي انهـال عليـه، مـع قـدر لا بـأس بـه مـن الشـتائم. كميـة عنـف لا توصـف.. وفي النهايـة ظهـر فيلـم غامـض تنفـي فيـه كاميليـا إسـلامها، ممـا جعـل الجميـع يتحولـون إلى خـبراء في علـم الفراسـة وتحليـل الصـورة ويؤكـدون أن هـذا الفيلـم مزيـف.. أحدهـم قـال إنـه طبيـب وقـد قـام بتحليـل صوتهـا عـلى جهـاز كشـف الكـذب فوجدهـا كاذبـة (جهـاز كشـف كـذب مـن دون قيـاس نبـض وضغـط دم؟!). لـو أرادت الكنيسـة أن تحسـم الأمـور لظهـرت كاميليـا في النـور السـاطع وفي برنامـج جماهـيري محـترم لتتكلـم، ولسـوف يحسـم الأمـر.. هـذا لـو كان مـا تقولـه صادقًـا فعـلاً.

زاد الطـين بلـة مـع تصريحـات الأنبـا بشـوي الأخـيرة في (المـصري اليـوم). لقـد اعتـدت سـماع هـذه الأشـياء مـن موريـس صـادق وسـواه مـن أقبـاط المهجـر، حـتى صرت أشـعر بقلـق لـو مـر أسـبوع ولـم أسـمعها، لكـن الـكلام هـذه المـرة يـأتي مـن ثـاني أهـم سـلطة مسـيحية في مـصر.. الرجـل الـذي يعـرف جيـدًا مـا يقـول ويعنيـه حرفيًـا.. لقـد اسـتفز هـذا الـكلام المثقفـين، فتأمـل مـا وقعـه عـلى نجـار المسـلح وسـمكري السـيارات والخبـاز..

اكتشـفت أشـياء مثـيرة فعـلاً مـن هـذا الـكلام.. أنـا ضيـف عـلى مـصر وأبي ضيـف.. وجـد جـد جـدي كان ضيفًـا.. بـل الرئيـس مبـارك نفسـه ضيـف.. صحيـح أن المسـيحيين يمثلـون ٦٪ مـن تعـداد

السكان - حسب إحصاء أجراه مسيحي - فنحن المسلمين ما زلنا ضيوفًا منذ ١٤٠٠ سنة!.. حتى أهل البلاد الذين أسلموا صاروا ضيوفًا فجأة!.. ولماذا لا نقول إن المسيحيين ضيوف على عبدة آمون وإيزيس وعبدة زيوس وأبوللو من بعدهم..؟

الأنبا بشوي يكرر نفس فكرة أقباط الهجر عن الغزاة العرب الذين جاءوا ليستولوا بالسيف على البلاد من أهلها.. بصراحة لا أصدق أبدًا أن أي دين يمكن أن ينتشر بالسيف في بلد مهم ذي كثافة سكانية عالية مثل مصر، وإلا فهي فترة قصيرة ثم يعود الدين الأصلي.. المسلمون لم يحاربوا في إندونيسيا ومعظم جزر جنوب شرق آسيا ذات الكثافة السكانية المخيفة، وكل من يحاول فرض عقيدة على هذه الشعوب نهايته (زي الطين) كما قال الجنرال مكارثر يومًا ما، فكيف أسلم هؤلاء جميعًا؟. الإسلام دخل مصر بتفاعل كيميائي بطيء جدًا دام عشرات العقود، وعن طريق ملاحظة أهل البلاد للاختلاف الواضح بين سلوك الجندي المسلم وسلوك الجندي الروماني البلطجي.. وككل التفاعلات الكيمائية لا الفيزيائية، صار جزءًا من تركيب هذا البلد ولا يمكن أن يخرج منه أبدًا..

لو صارت مصر كلها مسيحية ورحل المسلمون الضيوف كلهم للجزيرة العربية، فهي ليست النهاية، لأن الأنبا بيشوي يشن الحرب كذلك على البروتستانت الذين يحاولون نشر دينهم عن طريق المسابح التي تضم الجنسين معًا!. لابد من رفض الآخر.. كنت ألوم بعض المسلمين على هذا التفكير فاتضح أنه تفكير عام يشمل المصريين جميعًا.. كلمات الأنبا بيشوي - التي أتمنى ألا تكون قد نقلت بدقة - تجعل من المستحيل أن تدافع عن المسيحيين، فكيف أدافع عمن يعتبرني ضيفًا؟

جـاء البـارود الـذي يلقـى عـلى النـار مـن حـوار أحمـد منصـور مـع المفكـر الإسـلامي محمـد سـليم العـوا في قنـاة الجزيـرة. العـوا مفكـر محـترم وكلامـه يـوزن بالميكروجـرام ولا يخـرج إلا بسـبب.. انتقـدت ذات مـرة أحمـد منصـور عـلى حـوار أجـراه مـع عالـم أمريكي مشـكوك في مصداقيتـه بصـدد انفلونـزا الخنازيـر، وقلـت إن كل مـا يريـده هـو تقديـم حلقـة مثـيرة، لكـن الحلقـة هـذه المـرة تسـتمد أهميتهـا مـن ضيفهـا الـذي يعـرف الجميـع تاريخـه. إن لكلامـه ذات ثقـل وأهميـة كلام الأنبـا بيشـوي. بكلمـات واضحـة قـال العـوا إن هنـاك سـفينة تـم ضبطهـا مـن مباحـث أمـن الدولـة قادمـة مـن إسرائيـل وعليهـا أسـلحة ومتفجـرات، وتعـود ملكيتهـا لنجـل وكيـل مطرانيـة بورسـعيد، وقـال إن السـلاح يخـزن في أديـرة الصحـراء. لقـد صـارت الأمـور معقـدة ولـم يعـد الـكلام عـن الإسـلاميين المفترسـين الذيـن يقتلـون المسـيحيين العـزل واردًا. لقـد فقـد أقبـاط المهجـر أقـوى ورقـة في يدهـم. الحلقـة مليئـة بالاتهامـات الخطـيرة والـكل يحفـظ مـا قيـل فيهـا عـلى كل حـال.

الآن صـارت الأمـور خطـرة فعـلاً، والنفـوس مشـحونة بحـق وأنـا أعـني مـا أقـول..

عـلى الدولـة أن تكـف عـن هـذا الصمـت والخـوف مـن وعـلى مشـاعر واشـنطن وأعضـاء الكونجـرس، وأن تخبرنـا فعـلاً بمـا تعـرف. كـرر هيـكل مـرارًا أن لرئيـس الجمهوريـة في مـصر مهمتـين يجـب أن يسـتعمل فيهمـا كامـل قوتـه وصلاحياتـه – لدرجـة العنـف لـو اقتـضى الأمـر – همـا مـاء النيـل والوحـدة الوطنيـة. عـلى الدولـة أن تثبـت الوحـدة الوطنيـة بأيـة طريقـة كانـت، وهـي تعـرف أن أسـلوبها المتخـاذل جعـل النفـوس تغـلي، واسـباب الغليـان متعـددة لكـن هـذا أخطرهـا.

عـلى الكنيسـة أن تنفـي هـذا الـكلام بوضـوح وأن تقـاضي العـوا.. أنتـم تقولـون إنـه كاذب يسـعى للإثـارة، فلتجعلـوا المحكمـة تؤكـد أو تنفـي هـذا.. هـذا الاسـتعلاء والغمـوض سـوف ندفـع جميعًـا ثمنـه فيمـا بعـد، عنـد أول كمـين إعـدام حسـب الهويـة نقابلـه..

تريد حلاً

عندما كتبت عن (الداعية الشاب المتأنق الذي هو تكرار لظاهرة الداعية النجم البروتستانتي في الغرب)، اعتقد شباب كثيرون أنني أتحدث عن عمرو خالد، بينما الحقيقة أنني بالفعل أعتبر عمرو خالد من ضمن إيجابيات قليلة جدًا في حياتنا اليوم، ومن قصدتهم بالكلام دعاة آخرون لا داعي لذكر أسمائهم.

مجتمعاتنا اليوم تواجه مشكلة كبرى في كلام من لا يعرف عما لا يعرفه، وأعتقد أن أكثر ثلاثة مجالات يتم انتهاكها بهذه الطريقة هي الدين والطب والقانون.. إن العبقري الذي يفهم كل شيء في الطب والدين والقانون موجود في كل مكان لحسن الحظ.. إنه أول رجل تقابله لو نزلت إلى الشارع الآن، لكن عمرو خالد لم يزعم قط أنه أستاذ شريعة أو إنه يجيد الإفتاء.. فقط هو يجمع الشباب حول مشروع مشترك، ويذكرهم أن الدين في النهاية هو وسيلة لتحقيق قيم العدل وقيم العمل وقيم السماحة.. عندما أجد الشباب على شبكة الإنترنت يتناقلون محاضراته أقول لنفسي إن قسطًا لا بأس به من هؤلاء كان سيقضي ذات الوقت في تدخين البانجو وتعاطي البرشام.. لقد نجح الرجل سواء قبلنا ذلك أم لم نقبله. النتيجة الحتمية لهذه الشعبية بين الشباب هي أن يُحارَب.. كل من يجذب الشباب ويجعلهم يلتفون حوله تعتبره الحكومات خطرًا داهمًا منذ أرغم سقراط على شرب سم الشوكران حتى اليوم.. دعك من الحرب الشعواء ضده على شبكة الإنترنت.. تم تكفيره مرارًا وأطلقوا على برنامجه (على خطى الشيطان).. الخ..

منـذ البدايـة أؤكـد أنـني لـم أدرس الشريعـة وغـير متخصـص، لكـني – بحكـم كتابـاتي- أملـك اتصـالاً قويًـا بالشـباب وأعـرف مـا يفكـرون فيـه، كمـا أتلقـى عـددًا هائـلاً مـن خطاباتهـم كل شـهر، لهـذا أقـدم للسـادة المتخصصـين هـذا الخطـاب الـذي وصلـني مـن قارئـة في العقـد الثالـث مـن عمرهـا عـبر البريـد الإلكـتروني.. لـم أتدخـل فيـه إلا ببعـض التصحيحـات اللغويـة لأنهـا ككل الشـباب تنصـب خـبر (إن) وتكتـب (هـاذا) و(ذالـك).. وأقـول إنـني لا أطلـب مـن المتخصصـين سـوى النصـح.. خـلاص؟

تقـول القارئـة: أنـا فتـاة محجبـة اسـتلمت العمـل في شركـة مـن وقـت قريـب. وأنـا مـن أسرة متدينـة محافظـة. لكـن بصراحـة يـا سـيدي بـدأت أقـرأ أشـياء غريبـة لـم أسـمع بهـا مـن قبـل مثـل انـه عـلى ان المـرأة العاملـة ان ترضـع زميلهـا فى العمـل حـتى تصـح الخلـوة (تصـورت نفـسى افتـح البلـوزة لارضـع زمـلائي فى العمـل واحـدا واحـدا) وعندمـا قلـت انـنى لا اصدق قالـوا لى ان هـذه الفتوى مـن الازهـر وان هـذا الـكلام صحيـح. ثـم قـرات ان الصحابـة كانـوا يتباركـون بـشرب بـول الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام وقـرأت انـه لـو سـقطت الذبابـة فى الشـاى فعـلي ان اغمسـها واشرب الشـاي. و قـرأت ان شرب بـول الابـل يشـفى امـراض الكبـد. لمـاذا لـم نسـمع هـذا الـكلام مـن قبـل ولـم نسـمع شيء كهـذا فى المدرسـة؟. بصراحـة يـا دكتـور اهـتز ايمـانى كثـيرا وربنـا يسـامحنى فامـا ان هـذه الاشـياء ليسـت فى الاسـلام اذا لمـاذا يلصقوهـا بـه؟ او هـى في الاسـلام وهـم يخفوهـا عنـا طـول هـذه السـنين اذن هـو ديـن يخفـون عنـا اشـياء فيـه. حـرام عليهـم والله العظيـم هـو خـلاص يعـنى كل حاجـة فى الديـن تمـام عندنـا عشـان يطلعـوا الـكلام ده؟ لـو صـح تبقـى مصيبـة ولـو مـش صـح بيقولـوا كـده ليـه؟

«أرجـو أن تسـاعدني لأنى حيرانـة وحاسـة انى بأراجـع كل شئ في حيـاتي مـن جديد».

انتهـى خطـاب القارئـة، ولـن أعلـق أو أبـدي أيـة آراء.. أنـا غـير مؤهـل لذلـك.. فقـط أنـا أطلـب مـن السـادة العباقـرة الذيـن وضعونا في هـذا الموقـف أن يتصرفـوا هـم.. لقـد اهـتز إيمـان هـذه الفتـاة البريئـة وشـكت في كل شيء بفضلكـم، وهـو جهـد عظيـم قـد لا يقـدر عليـه ماركـس وسـارتر ونيتشـه وشـوبنهاور معـاً، فعليكـم أن تسـاعدوها.. أنـا بصراحـة لا أسـتطيع..

فقـط أرجـو ألا تتعاملـوا معهـا بطريقـة: احنـا كـده والـلي مـش عاجبـه البـاب يفـوت جمـل..

أذكـر مـا قالـه صديـق لي عـن أبيـه المستشـار شـديد التديـن الـذي توفـاه الله منـذ عـشر سـنوات: «لقـد عـاش أبي ومـات دون أن يسـمع عـن بـول الإبـل ولا رضاعـة الكبـار، فهـل أثـر هـذا في تدينـه أو أمانتـه في عملـه؟.. هـل أخّـر ركعـة واحـدة عـن وقتهـا، أو بخـل بـزكاة، أو تقـاضى رشـوة؟».

أسـأل بأمانـة، ولا أقصـد أيـة تلميحـات فأنـا فعـلاً أبغـي المعرفـة: هـل هـذا الـذي تقومـون بـه مفيـد للإسـلام حقًّـا؟.. مـن الأكـثر فائـدة؟.. عمـرو خالـد الـذي تكفـره المواقـع الأصوليـة وتعتـبره دوائـر الدولـة دخيـلاً؟.. أم مـا تقولونـه؟.. هـل أنتـم حريصـون عـلى الديـن فعـلاً أم عـلى رضـا المصـادر البـترو دولاريـة، وعـلى الظهـور في الفضائيـات، وعـلى إثـارة فرقعـات إعلاميـة مضمونـة الـدوي؟

هـل يهتـم أحدكـم بالبلبلـة الـتي يحدثهـا في أذهـان الشـباب؟.. هـل يهتـم أحدكـم بالخلـل بعيـد المـدى الـذي سـببتموه؟.. لا أحـد يبـالي بهـذا.. سـوف تخربـون قـدر مـا تسـتطيعون ثـم تتركـون الأطيـان والعمـارات للورثـة، وتتركـون الشـباب لـرب كريـم يتولاهم..

حتى لو كان عمرو خالد غير متخصص، فهل نجا منكم علماء الدين الحقيقيون؟.. ماذا كتبتم وقلتم عن الشيخ (الغزالي) يرحمه الله، وماذا تكتبون وتقولون عن العلامة القرضاوي أطال الله في عمره؟

سوف تبحث الفتاة عن الحقيقة في المنتديات السلفية ولسوف تقابل نغمة أخرى هي خليط من التعالي الكهنوتي، وهو تعال يطول علماء الأزهر أنفسهم الذين ترى معظم هذه المواقع أنه لا قيمة لرأيهم، مع رغبة في التميز والتحدي بإطلاق كل ما هو غريب أو غير شائع، واحتكار كامل للحق في الكلام..

أذكر أن احد تلك المواقع كان يعقد مناظرة حول كتاب (الخلافات السياسية بين الصحابة)، لمحمد المختار الشنقيطي، وبالطبع كان رأي من أداروا المناظرة أنه مليء بالأخطاء كالعادة.. كان الطلب المنطقي لدى كل من تابع المناظرة هو قراءة الكتاب أولاً، هكذا وضعه صاحبه على رابط ليدخله من يرغب. هنا قام مشرف الموقع بحذف الرابط وكتب بالحرف الواحد: «ما دخل نشر الكتاب بالمناظرة؟ المناظرة تقوم على ردك على خصومك كل فقرة بمثلها، أما وضع الكتاب فلا علاقة له بالمناظرة»، وقال مشرف آخر في حزم: «وضع رابط الكتاب الآن ليس بجيد ولا فائدة منه لأن القصد من المناظرة التحذير من هذا الكتاب»!!.. إذن لماذا المناظرة أصلاً والحكم قد صدر منذ البداية؟.. لماذا لا يكتفون بنشر عريضة إدانة؟

من جديد أكرر أنني أطلب النصح ولا أقدمه.. لو كنتم تخدمون الإسلام فعلاً بكل هذا، فأنا أعتذر لكم بشدة، واعتبروا كأن هذا المقال لم يكن، ولكني أرجوكم مجددًا أن تعيدوا قراءة الآية ١٠٤ من سورة الكهف والتي لن أكتبها تفاديًا

للأخطـاء المطبعيـة.

في غير حالة الخطر

منذ أسابيع تعطل مترو المرج حلوان في محطة طرة البلد لأن مواطنًا مستهترًا قام بشد فرملة الطوارئ. الفكرة هنا أن باب المترو انغلق على قدم زوجته الحامل - زوجة الرجل لا المترو طبعًا - وبدأ يتحرك وجسدها يتدلى من المترو، مما دفع الرجل إلى هذه المخالفة الخطيرة. الخبر يؤكد في فخر أن الشرطة قبضت على الرجل وتم تحويله للنيابة التي لم تعطه وسامًا لسرعة بديهته وحسن تصرفه، ولكنها اتهمته باستعمال الفرملة في غير حالة الخطر!. هذا ببساطة يعني أن الحكومة لا ترى خطرًا في أن تسقط أم وجنينها تحت عجلات المترو، فنحن تجاوزنا الثمانين مليونًا والعدد في الليمون.. فلتأخذنا مصيبة إذن. كل هذا جميل ومفهوم.

أتكلم طبعًا باعتبار أن الخبر صحيح ونقل بأمانة. أحيانًا يتم نقل الخبر بطريقة تزيد الطين بلة، وإنني لأتذكر خبرًا نشر منذ أعوام في صحيفة قومية؛ عن القبض على اثنين من المتطرفين حاولا تكوين تنظيم سري، فقال المحرر لا فض فوه بالحرف: «بالقبض على الرجلين تبين أنهما يأمران بالمعروف وينهيان عن المنكر، وتم تحويلهما للنيابة!». لو كنت مسئولاً حكوميًا لحولت المحرر العبقري للتحقيق لأنه أساء للنظام أكثر من ألف جريدة معارضة.

نفترض إذن أن الخبر صحيح.. لكن السؤال الحقيقي هنا هو: ما الذي تعتبره الحكومة خطرًا فعلاً؟.. سقوط أم وجنينها

تحت العجلات ليس خطرًا، فمتى يبدأ الخطر ليعرفه المواطن الصالح؟. وما نفع الفرملة إذن؟.. أم هي عهدة تسلمتها الهيئة مع القطار الفرنسي ولم تجرؤ على نزعها؟

تعال نقرأ معًا أجزاء من خطاب كتبه لي أ. ج طالب الهندسة السكندري، ويحكي فيه عن موقف آخر لا تراه الحكومة خطرًا:

مساء يوم الاثنين الموافق ٣٠ نوفمبر ٢٠٠٩، إتجهت برفقة ثلاثة من أصدقائى لنستقل الترام من محطة الإبراهيمية للذهاب إلى سان ستيفانو، واستقللنا العربة رقم ٢٢١ خط رقم واحد (باكوس) نحو الساعة التاسعة مساء.

وبمجرد ركوبنا للترام لاحظنا وجود نحو ٢٠ شابًا تتروح أعمارهم بين ١٤-١٩ سنة - من الذين لا يظهرون سوى فى المواسم والأعياد ولا يفعلون أى شىء سوى قلقلة الأمن العام- يقومون بإستمرار بقذف زجاج السيارات المركونة أو السائرة بالقرب من الترام بالحجارة متوسطة الحجم، وقاموا بكسر وتدمير زجاج ما يزيد على ١٥ سيارة، ولم يحرك أحد ساكناً من ركاب العربة أو الكمسارى الذى يظهر على وجهه الجبن الشديد والذى كان مسئولاً عن العربة، ولم يحاول أحد منا أنا أو أصدقائى الإحتكاك بهم بسبب عددهم وإحتمال وجود سلاح معهم.

لكن إختلف الأمر عندما وجدنا أن بحوزتهم ألواح كبيرة من الخشب، يقومون بضرب المارة السائرين إلى جانب الترام بها من شبابيك وأبواب الترام أثناء سيرها، وقاموا بضرب الكثير من الناس بعنف، ومن ضمنهم كانت إمرأه تسير قرب الترام وتحمل طفلها على يديها!!!

إتجهت إلى الكمسارى بغيظ وسألته عن رقم العربة التى نستقلها وأخبرته أنى سأتصل بشرطة النجدة وأبلغهم بما

يحـدث، فأخـذ يـصرخ بـكل مـا أوتى مـن قـوة لـكى يصـل كلامـه إلى مسـامع هـؤلاء البلطجيـة «بلـغ البوليـس مـش هيعملولـك حاجـة!!». ولـم أعلـم مـا حكمتـه فى هـذا الـصراخ سـوى أنـه لفـت نظرهـم أننى قـد قـررت الاتصـال بالشرطـة!! كأننـا فتحنـا أبـواب الجحيـم، أخـذوا يضربونـا بألـواح الخشـب المدججـة بالمسـامير ثـم توقـف الـترام تمامـاً بـين محطـتى باكـوس وصفـر، ونزلـوا منهـا جميعـاً وأخـذوا يقذفونـا بالحجـارة، وجـرى كل مـن فى العربـة واختبـأ تحـت الكـراسى لـكى لا يصـاب أحـد، وأصيـب صديقـى فى يـده مـن أحـد ألـواح الخشـب وكدنـا نصـاب فى رءوسـنا بالحجـارة أكـثر مـن مـره لـولا العنايـة الإلهيـة!!

ثـم وقفـوا جميعـاً أمـام الـترام وإمتنعـوا عـن التحـرك إلا إذا نزلنـا لهـم، فوجئنـا حينهـا بأغـرب ردود الفعـل، وجدنـا السـائق تـرك مكانـه فى العربـة الأولى (كنـا مسـتقلين العربـة الثالثـة والأخـيرة) ونـزل وصعـد إلى عربتنـا، وأخـذ يعنفنـا ويـصرخ فينـا ويطالبنـا بـأن نـنزل مـن العربـة حـالاً لـكى يتمكـن هـو مـن التحـرك وإلا عـلى حـد قوله إن لـم نفعـل ذلـك فإنهـم «سـيقومون بتكسـير عربتـه تمامـاً!!!».

فلنـنزل ونُقتـل ولا يهمـه سـوى عربتـه!! وعندمـا رفضنـا الـنزول حـاول خداعنـا بقولـه أنـه يريـد منـا أن نـنزل لـكى نركـب معـه فى مقصورتـه حمايـة لنـا، ونحـن نعلـم جيـداً أنـه لا يريـد سـوى التخلـص منـا ليهـرب بالـترام ويكمـل طريقـه.

صرخ فيـه جميـع مـن بالعربـة حينهـا أن يتركنـا وشـأننا ويتحـرك، وقتهـا كنـت قـد تركتـه يـصرخ وقمـت بالإتصـال بشرطـة النجـدة، رد عـلىّ شـخص مـا لا أعلـم إن كان بطـيء الفهـم أم أنـه يدّعـى الغبـاء، قمـت بـشرح الموقـف ووصفـه وقلـت لـه مـكان توقـف العربـة أكـثر مـن ٥ مـرات وهـو يعيـد نفـس أسـئلته أكـثر مـن مـرة،

فأضطـررت لإنهـاء المكالمـة. أخـيراً بـدأت العربـة بالتحـرك. بعـد إنصرافهـم وتحـرك الـترام إتجهنـا وجميـع الـركاب إلى الكمسـارى وأخذنـا فى الـصراخ أن هـذه مسـئوليتهم أن يوفـروا الأمـن للـركاب، فقـال لنـا مـا معنـاه أنهـم طلبـوا مـن الهيئـة مـن قبـل أن توفـر أمنًـا خاصًـا بالهيئـة أسـوة بهيئـة السـكة الحديـد لكنهـم رفضـوا الفكـرة لتوفـير النفقـات، ولأن تلـك الممارسـات لا تحـدث سـوى في الأعيـاد والمواسـم فقـط ولا تسـتدعى الإهتمـام نهائيـاً!!

فقلـت لـه ولمـاذا لا تحـاول إبـلاغ الشرطـة؟ قـال لى «يابـنى الشرطـة فى أجـازة كلهـم دلوقـتى، انـت لمـا كلمتهـم حـد إهتـم؟؟ انـا بقـالى خمسـة وعشريـن سـنة شـغال عـلى الخـط ده وكل مـره بتحصـل الحاجـات دى ولا حـد بيهتـم، وانـا مليـش دعـوه بالنـاس دى انـا عنـدى عيـال!!!!!».

هـذا هـو مـا حـدث معنـا، فى الإسـكندرية فى مـصر، وليـس فى السـودان، فهـل سـيهتم بنـا أحـد؟؟ أم أن الاهتمـام كلـه مـن نصيـب مطربينـا وأعضـاء الحـزب الوطـنى الذيـن أهينـوا فى السـودان بينمـا نحـن فى الأصـل لـم يكـن لنـا أى قيمـة داخـل بلدنـا؟».

بلطجـة العيـد المعروفـة، والسـلوك الجماعـي العـدواني الخـارج عـلى القيـود، وربمـا المخـدرات كذلـك.. كل هـذا لا تـراه الحكومـة خطـرًا..

يـوم ٢١ نوفمـبر يحـاول عامـل بشركـة أتوبيـس غـرب الدلتـا الانتحـار بالوثـب مـن فـوق بـرج التقويـة، لأنـه يتقـاضى ١٧٠ جنيهًـا بعـد ١٣ عامًـا مـن العمـل، ولـم تتحمـل كبريـاؤه أن يعجـز عـن شراء كيلـو لحـم لأسرتـه في عيـد الأضحـى. لـم يتراجـع إلا بعـد وصـول المحافـظ لسماع شكواه. هـذا الحـظ الحسـن لـم يسـتمر حـتى يـوم ٣ ديسـمبر، حيـث نعـرف مـن الصحـف أن ثلاثـة شـبان انتحـروا في

يـوم واحـد بسـبب الفقـر.. الأول عامـل مـن دكرنـس تـزوج ولـم يسـتطع أن يجـد عمـلاً أو يسـتقل عـن أسرتـه، وهكـذا دخلـت زوجتـه لتجـده معلقًـا بحبـل. عاطـل آخـر ألقـى بنفسـه مـن الطابـق الرابـع في كفـر الشـيخ.. السـبب ببسـاطة أن دخلـه ٤٠٠ جنيـه يدفـع منهـا ٣٠٠ إيجـارًا لشـقته. وفي الشرقيـة يفضـل شـاب ثالـث – أكـبر أخوتـه - أن يشـنق نفسـه لأن خطبتـه مهـددة بالفسـخ بعـد فشـله في العثـور عـلى شـقة.

كل هـذا ليـس خطـرًا.. الأمـور تحـت السـيطرة، ومـن ضمـن الأمـور المطمئنـة كذلـك لا ننـسى قصـة الطفلـة مريـم الـتي ترقـد الآن في غيبوبـة بسـبب اللـودر.. لا.. لـم تقـف أمـام اللـودر محاولـة منعـه مـن هـدم منـازل الفلسـطينيين عـلى طريقـة الأمريكيـة (راشـيل كـوري)، لكـن اللـودر اقتحـم بيتهـا بـلا إنـذار وهـدم البيـت عـلى رأسـها، وهـو بهـذا يبرهـن عـلى أن المصريـين أشـد كفـاءة وحزمًـا مـن الإسرائيليـين (الخرعـين) الذيـن يهـددون بالهـدم أولاً.

إذن مـا هـو الخطـر بالضبـط؟... ومـا الـذي يجعـل الدولـة تهـب في حـزم لتهـوي بقبضتهـا؟.. أنـا أسـأل بأمانـة لأنـني مواطـن صالـح أكـره أن أزعـج الدولـة لسـبب تافـه. هـل الخطـر هـو مائـة شـاب نحيـل بنظـارة يقفـون عـلى سـلالم نقابـة الصحفيـين؟ أم هـو البرادعـي أم مـاذا بالضبـط؟..

ركاب سوارس

سوارس كانت حافلة بلا محرك يجرها حصان في شوارع القاهرة قبل ظهور الترام، وكانوا يستعملون الاسم هكذا (سوارس) كعلم بلا أداة تعريف، وقد جرى تعبير (راحت علينا زي سوارس) على الألسنة بمعنى (زال عهدنا). هناك لعمنا العظيم (بيرم التونسي) قصيدة جميلة اسمها (ركاب سوارس) يصف فيها مغامرته مع وسيلة النقل الشعبية المهينة هذه:

ركاب سوارس بعيد عنك شلق هلافيت
والعبدلله معاهم وابن حنت حنيت
أول ما نركب يدور القفش والتنكيت
وإن طالت السكة نحكي لبعضنا حواديت
قصدت يوم الحسين أشرب هناك خروب
جات قعدتي بين جدع عايق وبين كركوب
وشابة ف الوش قاعدة وابنها المقلوب
بيعوي زي اللي راكبه ستميت عفريت

ثم بلسانه الساخر الحاد الذي يمتلئ بالشاعرية والبلاغة كذلك يقول:

القفلة سارت تلملم كل صنف وصنف
في خطوة والتانية يتشعبط علينا جلنف

تذكرت هذه القصيدة وأنا في القطار المتوقف في لا مكان، لفترة طالت ثم عرفنا فيما بعد أنه إضراب عمال البلوكات.. قالها لنا رئيس القطار الجالس في الكافتيريا يدخن.. ثم دفن وجهه في كوب الشاي كي لا يسمع احتجاجات الناس وغضبهم.. فقط من حين لآخر يعلن أنه غير مسئول عن شيء مما يحدث. هنا بدأت دراما إنسانية شديدة الروعة أعادت القصيدة لذهني على الفور.. هذا قطار أسباني من المفترض أنه فاخر، ونحو ثمانين عامًا تفصلنا عن قصيدة بيرم لكن البشر هم البشر..

أحد العالمين ببواطن الأمور قال في غموض إن (رمسيس مقلوب برضه وفيه مظاهرات). ثم ذلك الشاب ذو الشعر الطويل والكوفية الذي ذكر ألف مرة لألف واحد أنه مخرج، يضرب كفًا بكف ويعلن أن هذا سيعطل عمله الإعلامي المهم. آخر مرة سمعته فيها كان يحكي أنه مخرج لعامل البوفيه.. يقول إنه يجب أن يقدم برنامجًا عن هذا الموضوع...

الطالبات اللاتي كن ذاهبات للامتحان في حالة هستيرية يبكين بلا توقف.. أرجوكم لابد من عمل شيء.. اقترحت على واحدة منهن أن يطلبن شرطة النجدة.. هذا هو الحل الوحيد الممكن لأن الموضوع قد يطول.. العالم ببواطن الأمور يؤكد أنه سيستمر حتى العاشرة مساء..

الفتاة ذات الماكياج الصارخ والجينز الضيق والحجاب المزركش المليء بالترتر تنهض من مقعدها في حالة هستيرية:

ـ «يا خيابي.. لو بابا عرف حتبقى مصيبة.. ده كان يحيقني».

لا أتعب نفسي في فهم سبب غضب أبيها لدرجة الحرق من إضراب عمال البلوكات.. لكن ذلك الرجل المتظاهر بالخطورة ذا النظارة السوداء يدنو ليجلس جوارها ويشرح لها في وقار وحكمة

سياسة البلد وما ينبغي أن يكون.. ثم يصل لنظريته المعقدة التي تؤكد أن عمال البلوكات عملاء من الغرب لتدمير الإسلام..

هنا أتذكر بيرم التونسي من جديد:

يا خلق لسه الولد نازل بكا وعياط
والوش غرقان لشوشته في عماص ومخاط
الحلوة قالت لأمه: ياختي ابنك شاط
قالت: عايزني اشتري له ادلعدي كتاكيت
قال الأفندي: هاهع.. ابنك ده طالع ديك
والحلوة قالت: هيء هيء.. والديك مالهش شريك..

البعض بدأ يتسلق عربة القطار نازلاً ليبحث عن مواصلة أخرى.. تلك السيدة العجوز الوقور تجلس في مقعدها وتبتسم في استسلام من رضي بالقضاء.. هي لن تذهب لأي مكان وسوف تبقى في القطار حتى يتحرك أو تموت.. نفس ابتسامة قبطان السفينة الغارقة الذي لن يتركها لأنها قدره...

الرجل الغامض يحكي للفتاة قصته عندما أرسلته المخابرات المصرية لفرنسا كي يقتل أحد عملاء الموساد، والفتاة تصغي في رعب ثم تقول له: «رفقًا بالقوارير!».

يمسك بزجاجة ماء ويلوح بها في خطورة أمام عينيها الخائفتين ويقول:

ـ «انت بتقولي كلام مش عارفه معناه.. عارفة يعني ايه قوارير؟.. دي مثلاً قارورة.. فاهمة عاوز أقول إيه؟.. دي قارورة..».

ـ «أيوه قايوية.. لكن بايضُه معناها إيه؟».

يخلـع نظارتـه ويفـرك عينيـه مفضـلاً ألا يتكلـم أكـثر.. أمـور المخابـرات هـذه لا يفهمهـا الجميـع. المخـرج يؤكـد لبائـع الشـاي أن تجاربـه مـع (فاتـن حمامـة) في التصويـر محبطـة لأن وجههـا لا يعكـس النـور بمـا يكفـي.. مـش كل وش ينفـع يتصـور يـا حبيـبي.. دي حاجـات نفهمهـا احنـا..

الآن قـررت الفتـاة أن تثـب مـن القطـاي.. أقصـد القطـار.. ينهـض الرجـل الغامـض ليسـاعدها عـلى الوثـب بيـده القويـة، ثـم يعلـن أنـه سـيرحل معهـا ليوقـف لهـا مواصلـة إلى القاهـرة لأننـا عـلى بعـد ثلاثـة كيلومـترات مـن أقـرب مدينـة.. هنـا أتذكـر بـيرم التونـسي:

الحلوة ساوت هدومها يعني أنا نازلة
لفندي بالمثل ساوى البلطو والبدلة

هنا بدأ ركاب القطار الباقون يتغامزون.. فيقول بيرم التونسي:

كان في الجماعة جدع أحمق نطق ف الحال
وقال تمام يا غجر.. معلوم.. تمام.. أمال!
اتقل يا واد.. مش كده.. بزيادة يا ختي دلال
آه يا غجر يا شلق.. يا دون يا عكاريت!
قال العجوز: يا بني خلي الخلق للخالق
قال: انت مالك يا بارد؟. قال حتتخانق؟
ماهو انت أهه في اللي جنبك منغرز زانق
كان حد قال لك إحم؟. أو حد قال لك كيت؟

هـذا مـا حـدث حرفيًـا تقريبًـا.. وكنـت أنـا غارقًـا في خواطـري وسـط أصـوات الشـجار.. مـن حـق عمـال البلـوكات أن يطالبـوا بوضـع أفضـل، ولكـن مـا ذنـب الزهـرات الصغـيرات المذعـورات اللاتي وقفـن باكيـات يلوحـن لأي سـيارة متجهـة للقاهـرة؟.. مـا ذنـب السـيدة العجـوز الوقـور الـتي لـن تسـتطيع أبـدًا الـنزول مـن القطـار حـتى لـو ظـل واقفًـا إلى يـوم الديـن؟.. كل المواعيـد الـتي ضاعـت.. والتذاكـر الـتي أهـدرت. في الوقـت ذاتـه مـا ذنـب العمـال الذيـن لا يجـدون مـا يكفـي لإطعـام أطفالهـم ومواجهـة حيـاة صـارت عسـيرة عـلى الجميـع؟. شـعور محـير فعـلاً.. لابـد للغضـب مـن ضحايـا ولابـد مـن خاسريـن عـلى كل الجبهـات باسـتثناء هـذا الأخ الغامـض خبـير القواريـر..

لمـا طـال الانتظـار سـاعتين توكلـت عـلى الله ووثبـت بـلا رشـاقة مـن القطـار، وسـاعدت السـيدة الوقـور عـلى الـنزول. وهنـا وجـدت منظـرًا مذهـلاً.. عربـات الشرطـة تصرفـت بكفـاءة ملحوظـة، فسـدت الطريـق السريـع بالعـرض بامتـداد القطـار لتكـون هنـاك مسـاحة خاليـة تسـمح بعبـور مئـات مـن ركاب القطـار إلى الطريـق السريـع، وهنـاك وقـف رجـال المـرور يوقفـون سـيارات الميكروبـاص المتجهـة للقاهـرة لنسـتقلها.. السـيارات الـتي اكتشـف سـائقوها كـنزًا ينتظـر هنـاك جـوار قضيـب القطـار.. وسرعـان مـا كان الميكروبـاص ينطلـق بسرعـة مجنونـة نحـو موقـف عبـود حيـث يجـب أن نجـد مواصلـة أخـرى لرمسـيس..

الخلاصـة الـتي توصلـت لهـا هـي أن الإضراب ليـس قـرارًا سـهلاً، وأن النـاس ثرثـارون، وأنـني لا أجـذب الفتيـات لأن شـكلي مرعـب، وأن بـيرم التونـسي عبقـري حقيقـي.. ومـن جديـد تذكـرت نهايـة القصيـدة:

نزلوا الجميع الحسين ونزلت أنا منكاد
نازل لوحدي.. ولا صيدة ولا تزفيت!

القسم الثاني

وفيه حديث عن توحش الإعلام، وتأثير ذلك على عقول الأنام

رجل واحد أمين

عندما سافرت – منذ أعوام - للعمل في المملكة العربية السعودية، كان عملي في بلدة صغيرة اسمها (الدوادمي)، وقبل السفر رحت أسأل عنها، فكانت شهادات المصريين الذين يعرفونها جيدًا كما يلي: « الدوادمي صحراء مترامية.. خذ معك الكثير من الطعام لأنك لن تجد ما تأكله لعدة أشهر.. الماء غير مأمون ويُحفظ في براميل صدئة.. عامة يجب أن تضع أرجل السرير ليلاً في أربعة أوعية مليئة بالماء لتجنب العقارب فهي كثيرة... لا تفتح الباب مباشرة لأن العواصف الرملية تقذف بالعقارب خلف الباب، ولأن الذئاب تجيد طرق الأبواب». واحد فقط قال لي إنها بلدة متحضرة وحديثة. ذهبت إلى هناك شاعرًا بما شعر به (روالند امندسن) وهو يستكشف القطب الجنوبي، متأكدًا أنني لن أرى أسرتي ثانية، فكانت المفاجأة أن أرى بلدة نظيفة جميلة جدًا تذكرك بالمعادي نوعًا، فيها عدة مطاعم ومتنزهات وأكثر من مركز تسوق ومستشفى كبير وأكثر من إنترنت كافيه. كان هذا أول درس أتلقاه عن أن الناس تتكلم ببراعة وإفراط، بالذات في المواضيع التي لا تعرف عنها أي شيء على الإطلاق، و لسوف أموت وأنا أؤمن أن مقولة (من قال لا أدري فقد أفتى) من أروع ما سمعت في حياتي.

كان (ديوجين) يفتش بالمصباح عن رجل واحد أمين.. واضح أنه لم يجده. وها نحن أولاء نبحث عن رجل واحد أمين ينقل لنا الأشياء كما هي أو يعترف بأنه لا يعرف فلا نجده، وهنا تقابلنا مشكلة أخرى هي ازدهار الإعلام بحيث تجد المعلومات

الخاطئة أو الزائفة فرصة نادرة للانتشار.

الحقيقة هي أن الإعلام قد توحش وصار كالمحيط الثائر الذي لا يمكن الإمساك به أو حبسه. هذه المقولة سوف تستفز كل من يؤمن بتدفق المعلومات. نحن اليوم نعيش ثورة إعلامية غير مسبوقة، سواء على مستوى الصحف أو الفضائيات التي لا تهمد أبدًا أو طوفان المعلومات القادم عبر شبكة الإنترنت. دعك من أن كل من يملك مدونة على الإنترنت صارت لديه جريدة خاصة يعلن فيها آراءه.

والنتيجة؟.. نحن بالفعل لم نعد واثقين من أي شيء على الإطلاق. في مقال نشر بالمصري اليوم يوم ٥ أكتوبر ٢٠٠٩، يقول الإعلامي الكبير (حمدي قنديل) إن قصة القراصنة الصوماليين كلها أكذوبة.. القراصنة الحقيقيون هم مصريون قاموا بأسر بعض الصيادين الصوماليين الأبرياء. ويقول: «الواقع أن هذا التضليل قد تم عن عمد أو عن غفلة، ضمن خطة غربية للسيطرة على مداخل البحر الأحمر وبحر العرب واحتلال الصومال ذاته إثر انهيار الدولة وتفشى الفوضى وتقدم الحركات الإسلامية المسلحة.....القراصنة إذن ليسوا هؤلاء الذين احتجزوا السفينتين المصريتين خمسة أشهر متواصلة منذ شهر مارس الماضى وعاد بهم بحارتنا مؤخراً، ولكن هم بحارة هاتين السفينتين الأربعون الذين استقبلناهم استقبال الأبطال وحشوا صفحات جرائدنا وساعات إرسال قنواتنا الفضائية بأكاذيب عن مغامرتهم..... فقد أصبح القراصنة المصريون أكثر القراصنة شهرة فى مياه الدول الأفريقية، سواء تلك المطلة على بحر العرب والمحيط الهندى شرق القارة أو المطلة على البحر الأبيض شمالها».

هـذا يعـني ببسـاطة أن الزفـة الـتي اسـتقبلنا بهـا بحارتنـا، وكل المانشـيتات الـتي تقـول (عملوهـا الدمايطـة) وكل التهـاني الـتي انهالـت عليهـم صـدرت عـن أشـخاص مخدوعـين.

(حمـدي قنديـل) إعلامـي كبـير ويعـرف مـا يتكلـم عنـه، وهكـذا يمكـن معرفـة الطـرف الـذي قـال مـا لا يعلـم: الصحـف الـتي هللـت لانتصـار الصيادين المصريـين الجدعـان طبعًـا.

فلنـترك هـذا الموضـوع إذن ونتكلـم عـن حـرب أكتوبـر الـتي نحتفـل بهـا هـذه الأيـام.. لقـد نشـأنا عـلى أنهـا نـصر عظيـم حطـم أسـطورة الجيـش الـذي لا يقهـر، وفتـح البـاب لاسـترداد سـيناء، وهذا مـا تعلمـه جيلنـا وانتهـى الأمـر. لكـن الإعـلام لـن يـتركك تعتقـد هـذا.. عـشرات المقـالات تؤكـد أن خسـائرنا أكـبر بكثـير مـن خسـائر الإسرائيليـين، والجيـش الثالـث كان محـاصرًا تحـت رحمـة الإسرائيليـين بالكامـل، ولـم نسـترجع سـوى شريـط أرض ضيـق، وسـيناء عـادت كاملـة لكـن لقـوات حفـظ السـلام الدوليـة ولـم تعـد لنـا. عـلى كل حـال هـذا جـدل طويـل معقـد قـد نقبلـه باعتبـار أن مـن حـق الناس أن تعـرف كل شيء، ولكـن لمـاذا لا تتكـون لجنـة مدققـة تـدرس كل شيء وتجـري تحقيقًـا، ثـم تضـع شـهادتها النهائيـة بـدلاً مـن أن يؤلـف كل واحـد في مـصر كتابًـا عـن رأيـه في الحـرب؟

ومـاذا عـن عبـد النـاصر؟.. في أحـد كتـب (شـهود العيـان) يؤكـد المؤلـف أن عبـد النـاصر كان يقـول وهـو نائـم قبـل الثـورة: «سـوف أصـير ملـك مـصر»، فمـتى وكيـف تمكـن الشـاهد مـن دخـول غرفـة نومـه؟.. ويؤكـد كذلـك: «مـن المعـروف أن عبـد النـاصر هـو مـن حـرق القاهـرة». لمـاذا ومـتى صـار هـذا معروفًـا؟. حاولـت تخيـل عبـد النـاصر يحمـل مشـعلاً وجركـن كيروسـين ويجـري في الشـوارع فلـم أفلـح..

أما عن السادات فالكلام عنه كثير.. هناك سادات متسرع ملول لا يدقق في قرارته، شيطاني يشرب الخمر (الفودكا بالذات لأن رائحتها لا تعلق بالفم)، ويشاهد الأفلام الغربية قبل عرضها على الرقابة (غاوي مناظر كذلك)، ويفشي أسرار حرب أكتوبر لكيسنجر بينما القتال دائر، ويسلم كل شيء لبيجين... هذا السادات الذي اصطلح على أنه (سادات هيكل) وربما سادات الشاذلي ومحمد إبراهيم كامل كذلك، وهناك سادات آخر عبقري شديد التدين، ثعلب سياسي يتنبأ بكل شيء حتى انهيار الاتحاد السوفيتي الذي لم تتوقعه المخابرات المركزية نفسها، وهو الذي استعاد سيناء بينما عجز العرب كلهم عن استعادة ملليمتر واحد من أرضهم. هذا السادات اصطلح على تسميته (سادات موسى صبري) ولعله سادات إبراهيم سعدة كذلك.

(رفعت الجمال) ضربة قوية وجهتها المخابرات المصرية لإسرائيل وهو بطلنا القومي..

(رفعت الجمال) ضربة قوية وجهتها المخابرات الإسرائيلية لمصر..

هيكل واحد ممن يعرفون ما يتكلمون عنه وهو يؤكد في ثقة أن مصر لم يكن لها أي جاسوس ذي أهمية في إسرائيل وقت حرب ١٩٦٧، وكل ما قيل خيال روائيين، وجمعة الشوان يؤكد أنه كان متزوجًا من سعاد حسني، مما يدفعك للشك في بعض ما يحكيه من قصص..

حتى الشهادة في أمور رآها حشد من الناس لا يمكنك فهم شيء منها: فتاة العتبة لم تُمس.. فتاة العتبة تم اغتصابها وسط الميدان وفي الزحام دون أن يتدخل أحد. المحاسب المتزوج رب الأسرة الذي قبض عليه وظهر على غلاف أكثر من

جريـدة مضروبًـا يـنزف الـدم مـن أنفـه وبثيابـه الداخليـة، أفرجـت عنـه المحكمـة بعـد هـذا لأنـه لـم يفعـل شـيئًا، ولأنهـا لـم تفهـم مـا حـدث بالضبـط بسـبب تضـارب الروايـات..

***

فنـان كاريكاتـور خليجـي - لـن أذكـر اسـمه لأن هـذا ليـس موضوعنـا- ضُبـط متلبسًـا بسرقـة رسـومه مـن المجـلات العالميـة.. ليـس اقتباسًـا وليـس تأثـرًا بـل هـو نقـل مسـطرة، مـع فـارق شاسـع في المعالجـة الجرافيكيـة طبعًـا يـشي بقلـة براعتـه. قـام أحـد المدونـين المخلصـين للحقيقـة بوضـع رسـوم الفنـان ملاصقـة للمصـادر الـتي سرق منهـا، مـع ذكـر التاريـخ والمصـدر الـذي يؤكـد مـن أخـذ ممـن. إدانـة واضحـة صارخـة لا تحتـاج إلى تعليـق. هكـذا انهمـرت الشـتائم والاتهامـات.. عـلى مـن؟.. عـلى مكتشـف السرقـة طبعًـا!. فهـو مسـطول تـارة.. وهـو شـاذ تـارة أخـرى.. وهـو يتعاطى المخـدرات.. وهـو عبـد الغـرب.. وهـو لفـق الرسـوم الغربيـة بنفسـه ليتهـم الفنـان في شرفـه. وأنهـى أحدهـم الصفحـة صارخًـا مشـجعًا الرسـام اللـص: «إلى الأمـام يـا (.....).. لأنـك تسـير في المقدمـة قذفـك أنصـاف الرجـال بالحجـارة!».

مدرسـة (الحـق عـلى المقتـول) مدرسـة عربيـة معروفـة، لكـني لـم أتوقـع أن تصـل الأمـور لهـذا الحـد في أمـر واضـح كالشـمس. لقـد لجئـوا إلى الكثـير مـن الـصراخ ليخفـوا الحقيقـة، والنتيجـة أن مـن يبـصر الصفحـة يجـد مجموعـة مـن الشـتائم ضـد المـدوّن ولا يفهـم الموضـوع أصـلاً. ومثـل هـذا كثـير في برنامـج الاتجـاه المعاكـس الذي يقـدم عـلى قنـاة الجزيـرة، حيـث ينفجـر الطرفـان في الـصراخ قبل أن

تبدأ الحلقة، فلا تسمع حرفًا، وتتطاير الاتهامات في شقتك، بينما المذيع (فيصل القاسم) يقف في الوسط صارخًا: «يا رجل!.. يا زلمة!.سأعطيك المجال»، وتنتهي الحلقة دون أن نعرف شيئًا يتجاوز ما كنا نعرفه قبل بدء الحلقة.

رجل واحد أمين.. سوف يزحف الشيب على رأسك دون أن تلقاه.. لا تنظر لمرآتك فهو ليس هناك.. صدقني...

مثال آخر قوي وخطير جدًا هو حملة التشكيك في لقاح إنفلونزا الخنازير قبل أن يعرف صانعه نفسه آثاره الجانبية، إلى حد أن اللقاح لن يجد من يأخذه بالتأكيد. ومن جديد نرى على قناة الجزيرة ضيفًا قيل إنه خبير في الأوبئة ينصحنا بعدم أخذ اللقاح، وهنا يمارس الإعلام لعبة حجب تفاصيل معينة.. فنحن مثلاً لم نعرف أن الضيف طبيب أسنان ولا علاقة له بالأوبئة، وله كتب مليئة بالخزعبلات ونظرية المؤامرة.. هكذا تم حجب جزء من الحقيقة لتحقيق غاية معينة هي البحث عن أخبار مثيرة مهما كان الثمن النهائي لذلك، وهو عبث خطير لو فكرت في الأمر، لأنه يعني أن ملايين الناس لن يأخذوا اللقاح.. وهذا قد يعني وفاتهم لو توحش الفيروس أكثر. اليوم وجد العلم اللقاح لكن أحدًا لن يمسه بسبب العبث في الإعلام وبسبب ثقافة (الفوروورد) هذه، والأصوات عالية جدًا بينما صوت منظمة الصحة العالمية بطبيعته خفيض عقلاني، وهكذا حسمت المعركة في عالم لا ينتصر فيه إلا الأعلى صوتًا، وما من رجل واحد أمين.

كما قلت، هناك تدفق شديد للمعلومات ونقيضها، وهو تدفق لا يعرف التعقل ولا يعطي فرصة للتمحيص واتخاذ القرار، والمهم أن الجميع تقريبًا يكذبون.. يكذبون بوجه صلب

وأعصاب باردة. والنتيجة هي أن المرء يزداد جهلاً كلما عرف أكثر. بعض القضايا التي تثيرها الصحف وتحدث خلافات، هي في الحقيقة تصفية خلافات بين رجال أعمال، والعاملون في كواليس الصحافة يعرفون هذا جيدًا.. أما رجل الشارع فيجري وراء عواطفه والأعلى صوتًا..

قد تقول لي إن اللون الأسود أو الأبيض لا وجود لهما، وإن كل الأشياء رمادية، لكن هناك أمورًا لا تقبل الجدل: هل فلان رجل وطني مخلص أم هو عميل؟...

كنت أتكلم في جلسة خاصة عن أحد الوزراء السابقين الذي نعرف أنه المسئول عن تدمير الزراعة في مصر والمبيدات المسرطنة، وهو من فتح زراعة مصر لإسرائيل تعبث فيها كما تشاء.. هنا سمعني أحد أساتذة الزراعة الكبار - وهو رجل محترم جدًا واسع العلم يمقت إسرائيل كالجحيم - فقال لي: «لا تصدق الصحف.. الآن لا أحد يسمعنا، وأنت لن تنفعني أو تضرني، لهذا أقول شهادتي لله.. أنت بعيد عن الصورة تمامًا ولست مختصًا، ولا تعرف ما فعله هذا الرجل للزراعة في مصر.. لو كان عندنا اثنان منه لصرنا من أهم مصدري القمح في العالم. لقد كان مدمنًا للعمل شديد النشاط، والحقيقة أنه أُبعد لأنه كان أنجح من اللازم!».

ـ «يا سلام؟!!... وماذا عما كتبته عنه الصحيفة الفلانية والجريدة العلانية؟ وكل هذه القضايا ضده؟».

ـ «تسوية حسابات لا أكثر..».

إديني عقلك!!.. أحيانًا يؤدي سماع الرأي والرأي الآخر إلى أن تقترب من الجنون..

أحد الطرفين كاذب أو مخدوع.. لكن أيهما؟.. بالطبع أميل إلى

أن ما نعرفه من صحف المعارضة هو الحقيقة، لكن هل يمكنك تجاهل كلام يقوله أستاذ زراعة شريف واسع العلم والخبرة؟.

ثمة مشكلة أخرى أعتقد أنها حقيقية، هي أن البخار يصدر من كل مكان.. مئات الثقوب في مجتمعنا يخرج منها البخار الغاضب، والكل ينفث عن كبته في الصحف.. على شبكة الإنترنت.. في المدونات.. أعتقد أن هذا أضعف قوة عزم البخار فلم يعد قادرًا على رفع الغطاء. هذه الضغوط من قبل هزت الأرض في ١٨ و١٩ يناير لأنها كانت مركزة، لكن البخار اليوم يخرج بانتظام وشكل منهجي فلم يعد قادرًا على عمل شيء على الإطلاق، وكما ترى نحن نتكلم بغضب وصراحة منذ عام ١٩٩٠ ولم يتغير أو يحدث شيء.. ومن الواضح أننا يمكن أن نتكلم ثلاثين عامًا أخرى.

لا يمكن أن يقيد أحد الإعلام من جديد، حتى لو أردنا هذا.. كل التجارب أثبتت أن هذا مستحيل في عصر الفضائيات والإنترنت، وأنت تعرف اختراع البروكسي وسواه..

والحل؟.. هل ستبقى هذه الفوضى للأبد؟

ربما كان غيري أقدر على إيجاد الحلول، لكني أرى أنه يجب أن يبدأ المرء بنفسه أولاً.. يجب أن يتقي من ينقل الخبر الله فيمن يسمعونه، وأن يبعد أهواءه الشخصية وميوله الأيديولوجية وينقل ما حدث بالضبط.. ما رآه بالضبط وليس ما يتصور أنه حدث أو ما يتصور انه كان يجب أن يحدث..

القصة التي تؤثر في كثيراً هي قصة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم مات ابنه (ابراهيم) وحدث خسوف للشمس.. قال المسلمون: لقد خسفت الشمس حزناً على (إبراهيم).. عندها كان غضبه صلى الله عليه وسلم شديداً مخيفاً وقال لهم: «إن

الشـمس والقمـر آيتـان مـن آيـات الله، لا تخسـفان لمـوت أحـد ولا لحياتـه». هـذا درس في الموضوعيـة والدقـة.. مـا حـدث حـدث ومـا لـم يحـدث لـم يحـدث.. فقـط..

العـدل.. العـدل والحياديـة، حيـث لا يجرمنكـم شـنآن قـوم عـلى ألا تعدلـوا.. يجـب تحـري الدقـة.. ثقافـة التمريـر يجـب أن تكـون لهـا فرامـل.. يجـب أن يقـرأ المـرء الرسـالة بعـين ناقـدة قبـل أن يمررهـا لسـواه. أعتقـد أن معظـم مسـتعملي الإنترنـت يمـررون مـا يصلهـم قبـل أن يـروا محتـواه.

نفـس الـروح الناقـدة المتشـككة يجـب أن يتحـلى بهـا مـن يتابـع الفضائيـات. ليـس كل مـا يقـال صحيحًـا. أمـا عـن الإعلاميـين أنفسـهم، فعليهـم ألا يفرحـوا باهتمـام الجماهـير المؤقـت مـع كل مقـال أو خـبر.. إن الفـوضى هـي نهايـة هـذا الطريـق، ويـوم تجتـاح الجميـع سـوف يعضـون عـلى أناملهـم ويقولـون: ليـت كان بيننـا رجـل واحـد أمـين.

المجد للكراهية

من الأفضل أن يصمت المرء هذه المرة بعد ما وصلت الأمور إلى هذا الحد؛ فلو تكلمت قائلاً أي شيء لقلت الشيء الخطأ.. إما أن تلهب النفوس وتزيد النار اشتعالاً وتسكب عليها المزيد من البنزين، أو تدعو للحكمة والتعقل وتذكر الناس بالقومية العربية، وهي دعوة تبدو مائعة رقيعة جدًا أمام كل العنف الذي تعامل به الجزائريون مع انتصارهم.

كل الناس يتكلمون وقد فُتحت طاقة القدر لوسائل الإعلام التي وجدت مادة تكفي لملء الصفحات وساعات الإرسال لمدة شهر على الأقل، فلن أضيف شيئًا جديدًا إلى كل ما قيل ويقال، لكن لا بأس من أن يوجه المرء بعض الاتهامات.

الاتهام الأول موجه بالطبع للإعلام الذي سقط سقوطًا ذريعًا في هذا الاختبار منذ اقتربت المباراة. قمة انعدام المسئولية أظهرتها وسائل الإعلام المصرية والجزائرية على حد سواء، وهكذا تم شحن الجماهير على الطرفين لحرب حقيقية لا خيارات فيها سوى النصر أو الشهادة، مع ولع سادي مجنون بنقل كل حرف.. لو أطلق مشجع جزائري أحمق سبة في مصر، سرعان ما تسوِّد مقالة كاملة عن هذه السبة، ثم يجلس كاتب المقال ويسترخي في مقعده ممسكًا بقدح النسكافيه، ويتابع في استمتاع ردود القراء على الإنترنت.. القراء الذين احمرت عيونهم وصفّر الدم في آذانهم فلم يعودوا يعون ما يكتبون. شتائم مهينة جدًا انهالت على رأس مصر ورأس الجزائر في الفترة الأخيرة، فنحن عملاء الصهاينة الذين نتصرف بحقارة، وهم البربر أبناء

الفرنسيين الذين لا يعرفون العربية ولا الإسلام ولا آباءهم الحقيقيين، حتى إنني فعلاً لا أعرف بأية معجزة يمكن أن تصفو العلاقات مرة أخرى.

هذه عينة مما يكتب عندنا: « استهزأت جريدة أخبار اليوم الجزائرية بالدعوات الصحفية المصرية بضرورة التهدئة، وقالت: لم تتردد بعض الصحف المصرية أمس، في دعوة النظام المصرى المتحالف مع الصهاينة جهاراً نهاراً إلى (تقبيل الحذاء الجزائرى). عدد من المواقع الجزائرية على شبكة الإنترنت يبث مقطع فيديو لمئات من الجماهير الجزائرية الذين صنعوا نعشًا من الخشب، ووضعوا عليه علم مصر ثم حملوه على سيارة نصف نقل وكتبوا على أحد أوجهه كلمة (الإعلام المصري) ومن الجانب الآخر (سمير زاهر)، فضلاً عن ذلك فقد طافت الجماهير الجزائرية بهذا العلم في شوارع العاصمة الجزائرية فيما يشبه جنازة للإعلام المصري.».

بأمانة. هل نشر هذا الخبر مفيد لواحد آخر غير كاتبه؟.. هل ازداد القارئ حكمة أو علمًا؟.. فقط ازداد حقدًا وسوف يبحث عن أي جزائري ليفتح رأسه. عشنا في هذا الجو عدة أشهر حتى وقعت الواقعة، والآن حقق الإعلام في البلدين هدفه الأسمى واشتعلت النفوس، فهل هم راضون؟.. لديكم مادة ممتازة لبيع الصحف وشغل الفضائيات لمدة طويلة.. هنيئًا لكم.. إنها ظاهرة جديدة فعلاً هي أن الإعلام لا يتابع ما يحدث، بل يخلق الظروف المناسبة لحدوثه ثم يتكلم عنه عندما يحدث. كالصحفي الذي يقتل الناس ليجد أخبارًا يملأ بها صفحة الحوادث.

نقطة أخرى مهمة هي أن الأخبار التي ترشح ليست دقيقة

وليست كاملة، فلماذا تصر الفيفا على أن اللاعبين الجزائريين هوجموا فعلاً في القاهرة، ولماذا تصر على فرض عقوبات على مصر وليس الجزائر؟.. هل الفيفا متواطئة لهذا الحد المهين، أم أن بعض الجماهير غير المسئولة فعلت ذلك فعلاً؟.. لقد رأينا الزجاج خارج الحافلة لكن من أين جاء الجزائريون بالدم على رءوسهم؟.. هل هو ميركيروكروم كما يزعم البعض في فيس بوك؟.. هل جرحوا أنفسهم؟.. تخيل أن تقوم أنت بفتح رأس عصام الحضري ومتعب وأبي تريكة لمجرد أن تلفق تهمة للجماهير الجزائرية. صعب أن تصدق ذلك. كما أنه من الصعب أن تصدق وجود مؤامرة تحالف فيها الفيفا والجزائر وقناة الجزيرة وأنت الطرف الوحيد الصادق، ولو صدقنا هذا فأين ذهب الأخوة في فيس بوك الذين كانوا يدعون كل بلطجية مصر وسفاحيها لتكريم الفريق الجزائري وإضافة ١١ شهيدًا إلى المليون؟.. لو كان الجمهور المصري بريئًا فأنت قد جعلته متهمًا بكل ما فعلته قبل المباراة.

الغريب أننا كنا نتندر دومًا على الحرب التي نشبت عام ١٩٦٩ بين الهندوراس والسلفادور بسبب تصفيات قارة أمريكا الجنوبية المؤهلة لكأس العالم. كان المرء لا يصدق (هيافة) هؤلاء القوم عندما خسرت هندوراس أمام السلفادور بعد انتصارها، فقام الرئيس الهندوراسي بترحيل المزارعين السلفادوريين من بلاده. وتطورت الأمور بغارة قامت بها طائرات هندوراس على مواقع لجيش السلفادور.. ردت السلفادور بغزو هندوراس.. ودارت حرب قصيرة كلفت البلدين آلاف الأرواح، برغم الكلام عن أخوّة الأمريكيين الجنوبيين والتاريخ والكفاح المشتركين!... مضحك.. أليس كذلك؟... تذكر كذلك أن البلدين كانت بينهما مشكلة حدود قبل المباراة. نحن فعلنا الشيء ذاته تقريبًا مع فارق أنه

لا يوجـد أي توتـر سـابق بـين البلديـن.

كل الـكلام عـن الأخـوة والوحـدة العربيـة يسـقط مـع أول اختبـار أو خـلاف. وهـا هـي ذي مهزلـة اسـتدعاء السـفراء تبـدأ.. اسـتدعاء للسـفير الجزائري.. اسـتدعاء للسـفير المـصري في الجزائر والسـودان.. مـصر مختلفـة مـع الجزائـر.. السـودان متضايقـة مـن مـصر لأنهـا تتهـم الأمـن السـوداني بالتراخي.. ثـم تدخـل غـزة عـلى الخـط؛ فهـي ضـد الجزائريـين لأنهـم سـخروا مـن أهـل غـزة الذيـن خرجـوا يهتفون لمـصر.. هكـذا تـدب الفرقـة بـين أربـع دول عربيـة..

طريقـة (عـركات السـلخانة) هـذه لـن تفـضي إلى أي شيء. أنـت لـن تـضرب الشـعب الجزائـري كلـه فلنكـف عـن الجعجعـة والتهديـدات إذن، ولكـن يجـب أن يعـود حقنـا عـن طريـق التعقـل.. هنـاك عريضـة تخاطـب الفيفـا تـدور في شـبكة الإنترنـت للتوقيـع عليهـا، وبرغـم أسـلوبها الإنجلـيزي الركيـك فإنهـا تنفيـس عـن الغضـب لا بـأس بـه. هنـاك قنـوات دبلوماسـية كثـيرة يجـب أن تجـرب كلهـا لإعـادة حقنـا الـذي يوشـك عـلى الضيـاع، مـع اسـتخدام حـوادث حقيقيـة موثقـة وليـس هـذا الهـراء الـذي ينـشر في الصحـف. مـصر بلـد مهـم قـادر عـلى أن يضغـط عـلى الفيفـا. إن جـزءًا كبـيرًا ممـا يحـدث لنـا يعـود لأن وزارة الخارجيـة لا تـؤدي عملهـا كمـا يجـب أو لا تؤديـه عـلى الإطـلاق. هـل أنـا متجـن؟.. الكاتـب أسـامة غريـب كان في السـلك الدبلومـاسي لفـترة طويلـة، وقـد كتـب مقـالاً قاسـيًا في كتابـه فائـق الإمتـاع (مـصر ليسـت أمـي..) بمناسـبة حـادث سرقـة مخـزن الخمـور الخـاص بسـياسي شـهير، والـذي يحـوي المشروبـات الـتي يقدمهـا للضيـوف الأجانـب: «في حديـث تلفزيـوني لوزيـر الخارجيـة السـابق أحمـد ماهـر قـال إن العمـل الدبلومـاسي ليـس نزهـة ولـم يعـد حفـلات وبروتوكـول وكوكتيلات.....إنـني أشـعر

بالأسف عندما أسمع هذا الكلام يتردد كأنه حقيقة، لأن البعثات الدبلوماسية المصرية في أرجاء المعمورة لا تفعل سوى حضور حفلات الشراب ومآدب الطعام، وهذا لا يقتصر على السفارات والقنصليات بل يمتد ليشمل الجيوش الجرارة من الموظفين في البعثات المصرية في ١٨٨ دولة..... آلاف الموظفين يتقاضون مئات ملايين الدولارات من لحم الوطن العاري لا يفعلون سوى ارتياد صالات المزادات وتنمية مواردهم.....لقد وصلت الرسالة كاملة للدبلوماسيين في الخارج.. لا تصدقوا أنكم دبلوماسيون بجد.. السياسة الخارجية لمصر لا علاقة لوزارة الخارجية بها!. كل المطلوب منكم أن تأكلوا وتشربوا في حفلات السمر وتدعوا للسلطان بالنصر، والقيام بالتشهيلات ووضع خبراتكم في الشوبنج تحت الطلب.... إن غياب الدبلوماسية المصرية هو أحد أهم الأسباب لاختفاء الدور المصري وهوان مصر على الجميع. وليسمح لنا السيد أحمد ماهر بأن نختلف معه فنحن لا نرى العمل الدبلوماسي سوى تشريفات وبروتوكولات وثرثرة وشراب ومرح».

هذا كلام شاهد من أهلها وليس كلامي..

ما حدث بروفة مخيفة لما يمكن أن يحدث عندما تجن الجماهير، فلا يصغي أحد لصوت العقل أو صوت علماء الدين مثل القرضاوي، ويصغون فقط لشهوة الدم ونداء الثأر بينما يتحول المطالبون بالتهدئة إلى جبناء وكلاب. هذه بروفة للطريقة التي يمكن أن تحدث بها حرب أهلية.. الحقيقة أننا – العرب - شعب متعصب ضيق الأفق، والإسلام لم يزل كل ما في نفوسنا من بقايا الجاهلية بعد..

عن سوبرمان الجديد

بسبب ولعي بالسينما أتابع الأفلام الغربية باهتمام شديد، وإن كان هذا الاهتمام يقتصر غالبًا على روائع الستينات والسبعينات التي سمعت عنها ولم أرها لأن سني لم تكن تسمح بهذا في ذلك الوقت، والتي تقدم غالبًا على قناة TCM، ولهذا أندهش عندما أتابع الأفلام الغربية الحديثة جدًا بسبب نغمات تتكرر بإلحاح مزعج وبلا توقف.. هناك نغمة تقدير واضحة للزنجي.. هذا شيء جميل فعلاً، ويناقض ما عرفته في صباي من نوازع عنصرية لا تخفى لدى السينما الأمريكية.. ويبدو أن هذه النغمة قد بلغت ذروتها على أرض الواقع بانتخاب أول رئيس أسود للولايات المتحدة.. لو كنت قد رأيت دور (مورجان فريمان) في فيلم (بروس كلي القدرة) لفهمت إلى أي مدى يمكن أن يبلغ تقديس الزنجي، وأعتذر عن التفسير أكثر..

النغمة الثانية هي نغمة تقديس اليهودي، وهي نغمة قديمة جدًا ومعروفة.. لا جديد فيها لو تذكرنا أن أول فيلم أمريكي ناطق على الإطلاق كان هو فيلم (مغني الجاز) الذي يحتوي على صلاة يهودية كاملة ويحكي عن معاناة أسرة يهودية للوصول للمجد.. من يعرف السينما الأمريكية جيدًا يدرك أن المسيحي كيان نادر في هذه الأفلام، فبطل الفيلم العبقري اليهودي (ديفيد) أو (روبين) هو الأساس.. ولابد من مشهد بالطاقية في المعبد اليهودي حتى لا تنسى. وغالبًا ما يتم خلط مفهوم اليهودي بمفهوم الإسرائيلي بخبث شديد بحيث يصير من يمقت إسرائيل معاديًا للسامية. وفي حوار قرأته مع الثنائي

اليهـودي الأخويـن (كويـن) - وهمـا علامـة معـاصرة مـن علامـات السـينما الأمريكيـة - يقـول أحدهمـا إن مـا يجذبـه لكتابـة سـيناريو هـو شيء واحـد فقـط: هـل هـذا السـيناريو مفيـد لإسرائيـل أم لا..

النغمـة الثالثـة الـتي لـن أقبلهـا ولـو بعـد ألـف عـام هـي نغمـة تقديـس الشـاذ جنسـيًا. هـذا شـخص حسـاس يعـاني الاضطهـاد وسـوء فهـم المجتمـع، وكل شيء قـد يجـرح مشـاعره.. لنكـن متحضريـن ونحـترم رغبتـه هـذه.. هـذه نغمـة لـم تكـن موجـودة منـذ عشريـن عامًـا لكنهـا اليـوم ملحـة بشـدة، وتعرضهـا السـينما الأمريكيـة بكثـير مـن الفهـم والفرحـة وربمـا الفخـر!

هكـذا تجـد أن السـوبرمان الجديـد الـذي تعدنـا بـه السـينما الأمريكيـة هـو اليهـودي الزنجـي الشـاذ!.. وقـد بحثـت - عـلى سـبيل التسـلية - عـن هـذا الشـخص عـلى شـبكة الإنترنـت فوجـدت موقعًـا مخصصًـا لليهـود السـود الشـواذ يتكلمـون فيـه بتعـال وغطرسـة باعتبارهـم الصفـوة! وفي فيلـم (أفضـل مـا تصـل لـه الأمـور) يلعـب جـاك نيكلسـون دور شـخص عنـصري مريـض لا يُطـاق، يضطـر للتعامـل مـع الزنـوج واليهـود والأسـوأ مـع جـاره الشـاذ.. يكتشـف أن جـاره إنسـان حسـاس رقيـق جـدًا وشـفاف يوشـك عـلى التحليـق بجناحـين.. تكـون نتيجـة هـذه التجربـة أن نيكلسـون يغتسـل بالكامل مـن قذارتـه السـابقة ويسـمو!

لا أحـد يطالـب بقطـع رأس الشـواذ أو سـجنهم ولكـن أطالـب بعلاجهـم أولاً، وبعـدم اعتبارهـم النمـوذج الأسـمى للجنـس البـشري كما يحاولـون إقناعنـا، وهـي صـورة عجيبـة للسـوبرمان لابـد أن الخواجـة نيتشـه كان سـيصاب بالفالـج لـو سـمع عنهـا!

الشـذوذ الجنـسي مـرض نفـسي عـلى عيـني وراسي.. مـرض يحتـاج إلى عـلاج كالـدرن بالضبـط، لكـن الأخـوة الغربيـين في أمريـكا وأوروبـا

يـصرون عـلى أن الـدرن ليـس مرضًـا.. إنـه طريقـة حيـاة!...لا تتضايقـوا مـن هـذا البائـس عندمـا يسـعل.. اتركـوه يبصـق دمًـا.. أتركـوه يتنفـس في وجوهكـم فأنتـم متحـضرون ولسـتم عنصريـين.. هـذا حـق طبيعـي ورفضـه مـن الفظاظـة بمـكان.. الأدهـى أن يحاولوا إقناعـك أن مريـض الـدرن أفضـل منـك وأسـمى...

هنـاك تيمـة تتكـرر في الأفـلام الأمريكيـة ورأيتهـا مثـلاً في فيلـم (كابـوت) و(أن تكـون جـون مالكوفيتـش) و(كنـيزي)، هـي تيمـة أن البطـل / البطلـة يعـاني التوتـر والاضطـراب النفـسي والاكتئـاب ثـم يصـل للسـلام مـع نفسـه ويتصالـح معهـا عندمـا يعـترف لهـا أنـه شـاذ. وفي فيلـم مـصري شـهير يصـل البطـل للسـلام مـع نفسـه وهـو يشـاهد حفـلاً لأم كلثـوم تغـني فيـه (قـد ايـه مـن عمـري قبلـك راح وعـدى يـا حبيـبي) فتدمـع عينـاه ويكتشـف أنـه شـاذ.. ويقـرر أن يسـتكمل حياتـه بهـذه الطريقـة!

عندمـا يكتـب أحدهـم تعليقًـا مـا في الإنترنـت أو يبـدي شـيئًا مـن السـخرية، يهـب الجميـع صارخـين: عـلى رسـلك.. هـذا قـد يجـرح نفسـية المثليـين!. ويجـد صاحـب التعليـق نفسـه في موقـع المدافـع عـن نفسـه الـذي يؤكـد أن نيتـه كانـت صافيـة والله العظيـم.. مـن أنـا كي أجـسر عـلى إيـذاء نفسـية هـؤلاء القـوم مرهفـي الحـس؟

أحيانًـا يثـير الغرييـون جنـوني.. إن دودة (أنكوسـيركا فولفويولـس) الـتي سـببت عمـى الأنهـار في قطاعـات كاملـة مـن أفريقيـا توشـك اليـوم عـلى الانقـراض؛ بسـبب سياسـة منظمـة الصحـة العالميـة الناجحـة والرجـل العظيـم (إبراهيـم مالـك سـامبا). هنـا تفاجـأ بمـن يطالـب بالتعقـل والتوقـف باعتبـار هـذه الـدودة مـن الأنـواع المهـددة بالانقـراض Endangered species!.. قـرأت مقـالاً عـن هـذا الموضـوع كاد يصيبـني بالشـلل.. مـا هـذه الرقـة؟ هل تحـول الجميع

إلى نسخ من (غاندي) بينما ظللت أنا وغدًا؟

رهاني هنا هو أن هذا التسامح والتقديس غير المبررين ينشئان المزيد من الشواذ الجدد.. الطبيعة تقلد الفنان وهناك كثيرون لم يكونوا ليصيروا كذلك لولا هذا التسامح الإعلامي الأسطوري. بينما من المفيد للمجتمع فعلاً أن يظل اسم الخطأ هو (الخطأ).. المؤمن العاصي له وضع خاص أفضل بكثير من وضع الكافر. تقول لهم إنه سيأتي يوم يبيحون فيه السرقة باعتبارها مجرد خلل نفسي، فيقولون لك: السرقة فيها مساس بممتلكات الغير وحريتهم بينما الشذوذ لا يفعل ذلك!

كل واحد من الناس له أركان روحه المظلمة، لكن من الخير لهذه الأركان المظلمة أن تظل حيث هي.. وإذا بليتم فاستتروا.. ليس من الواجب أن تصير الانحرافات شيئًا معتادًا وحقًا مكتسبًا من يرفضه عنصري ووغد ذو ميول نازية.. إن المجتمع الغربي هو من سمح للعقدة أن تبلغ أقصى مداها وإلا لعاملها كمرض وعالجها.

والنتيجة هي أن ترى في كل يوم صورة لمظاهرة في ميدان عام بالغرب، يقف فيها حلوف مشعر عاري الصدر يضع مساحيق أنثوية كاملة، ويحتضن حلوفًا مشعرًا آخر في حنان. هذان عاشقان.. لماذا تضايقونهما يا متوحشون؟.. وتقرأ عن مئات الأسر الغربية التي تتكون من أبوين من نفس الجنس..

كالعادة تلح هذه المفاهيم كقطرة الماء على عقولنا المصرية.. قطرة.. قطرة.. قطرة.. في النهاية تتكون الفجوة. يمكنك أن ترى كيف قدم الشذوذ الجنسي على استحياء في فيلمي (حمام الملاطيلي) و(الصعود إلى الهاوية) برغم صراحة الفيلمين الصادمة عامة، واليوم صار الشاذ جنسيًا موجودًا في معظم

الأعمال الفنية المصرية، وعما قريب سوف يصير وجوده عاديًا وربما مطلوبًا..

***

يبدو أن الثقافة الغربية تفرغت لتكريس فكرة أن سوبرمان الجديد هو اليهودي الزنجي الشاذ. ورهاني الذي لا أملك دليلاً علميًا يؤيده هو أن هذا الاتجاه الإعلامي يضيف للوجود المزيد من الشواذ (فهو لن يضيف زنوجًا ولا يهودًا بالطبع!).

تخيل أن (جيمي) يهوى العبث في أنفه.. هذه عادة قذرة، وهو يحاول إخفاءها والتخلي عنها.. ثم يجد أن الإعلام كله يؤكد أن العبث في الأنف شيء طبيعي وحق للبشر، ومن يعترض عليه عنصري، ويكتشف أن هناك جمعيات كاملة ومظاهرات تدعو لحرية العبث في الأنف.. هل يتخلى (جيمي) عن عادته؟.. بالطبع لا.. سيدس إصبعه في أنفه في كل مكان والويل لك لو اعترضت.. بينما كان من الممكن أن ينجح بمعونة بسيطة في التخلي عن هذه العادة.

هكذا يعود الغربيون لمراجعة كل شيء، وبالتالي لم يعد هناك شيء بريء على الإطلاق. هم لا يبحثون عن هذه العلاقات من منطق الرقابة، بل من منطق أن هذا موجود منذ زمن سحيق ونحن كنا أغبياء لا نفهم.. قرأت مقالاً عن شيرلوك هولمز وصديقه العتيد د. واطسن.. يرى صاحب المقال إن واطسن كان امرأة على الأرجح، أو هو رجل على علاقة بهولمز.. لا يوجد لدى الغربيين اليوم تفسير لصداقة حميمة بين رجلين سوى هذا. لا يوجد شيء بريء لكن هناك افتراض سوء نية رهيب.

هناك مواقع إنترنت تحلل العلاقة بين المحاربة (زينا)

وصديقتها.. من جديد هناك شكوك في تلك الصداقة. هل كان العجوز البخيل الذي يستضيف (أوليفر تويست) مولعًا بالأطفال pedophile؟.. حتى (دان بويل) مخرج فيلم (مليونير العشوائيات) قيل إنه يحمل ميلاً غير طبيعي نحو الأطفال.. والدليل؟.. أنه قدم فيلمًا جميلاً عنهم!!

كل شيء مريب.. كل شيء غير مريح.. في الوقت ذاته هم لا يفتشون في الضمائر من أجل تدعيم القيم المحافظة مثلاً، بل ليؤكدوا أن (العملية بايظة) منذ عشرات السنين.. لقد كانت هذه الأمور موجودة دائمًا ونحن نتجاهلها بضيق أفق!!

هل يمكنك أن تجد شيئًا مريبًا في قصص (باتمان) التي ابتكرها (بوب كين)؟.. هناك عالم نفسي مجنون اسمه (فيرتام) رأى أن القصص غير أخلاقية تمامًا وكتب عام ١٩٥٤ كتابًا اسمه (غواية الأبرياء)، وفي هذا الكتاب يلاحظ أن عالم (باتمان) رجولي تمامًا... هو والفتى (روبين) فقط.. أليس هذا دليلاً كافيًا على كل شيء؟.. هكذا اضطر مؤلف (باتمان) اضطرارًا إلى خلق شخصية الفتاة الوطواط والمرأة القطة وجاء بعمة (بروس واين) من بلدهم لتقيم معه في قصره!... هذه شخصيات اخترعت اختراعًا لدفع التهمة!!

في ذلك العصر كانت تهمة.. ربما يصنعون تمثالاً لبوب كين اليوم، وكان سيسعى سعيًا لتأكيد التهمة لا نفيها!

(ملحوظة خارج السياق: القصص المصورة التي اعتمد عليها فيرتام في كتابه لإثبات أنها مفسدة للنشء، تباع اليوم بسعر الذهب!).

شاهدت حلقة عن مفهوم الأسرة في برنامج (هراء) - الترجمة المهذبة للعنوان – الذي يقدمه شيطانان ظريفان سليطا اللسان

هما (بـن) و(تلـر). البرنامـج قائـم عـلى هـدم معظـم الخرافـات الـتي صـارت عـادة لدينـا، ومنهـا الطـب البديـل ومخاطـر البيئـة.. الـخ. في تلـك الحلقـة يضيـف البرنامـج لقائمـة الخرافـات خرافـة جديـدة هـي الأسرة!!

البرنامـج يلتقـي بعالمـة نفسـية مخبولـة تؤكد لـه أن مفهـوم الأسرة يتطـور مـع الزمـن.. لـم يعـد مفهـوم الأب والأم والأطفـال الذيـن يعيشـون في بيـت واحـد هـو المعـنى الصحيـح لـلأسرة.. نكتشـف الأرقـام التاليـة:

طفـل مـن كل ٢٥ طفـلاً أمريكيًـا ليـس لـه أبـوان معروفـان عـلى الإطـلاق!

طفل من كل ٣ أطفال يعيش مع أبوين غير متزوجين!

طفل من كل طفلين يعيش في بيت مع والد واحد فقط.

عـشرة ملايـين طفـل يعيشـون في بيـت مكـون مـن أبويـن شـاذين (يعـني الطفـل يعيـش مـع أب وأب أو أم وأم!).

يلتقـي البرنامـج مـع مفكـر متحفـظ يدعـو لـلأسرة التقليديـة الـتي خلقهـا الله : أب يسـعى للـرزق وأم تعـنى بالأطفـال والبيت.. يوسـعه البرنامـج سـخرية، باعتبـار هـذه الأسرة هـي بالضبـط مـا كان يفعلـه رجـل الكهـف. ثـم يقـول البرنامـج إن المدافـع الرئيـس عـن فكـرة الأسرة هـم السياسـيون الجائعـون إلى أصـوات الناخبـين، ويظهـر صـورة لجـورج بـوش.. هكـذا صـارت الأسرة التقليديـة تعـني جـورج بـوش بأذنيـه الكبيرتـين وعينيـه الغبيتـين.. قضيـة خـاسرة تمامًـا.. ربـط أيـة قضيـة ببـوش معنـاه أنهـا خـسرت..

ويرينـا بيتًـا مـن عـشرة ملايـين بيـت تعيـش فيـه أمّـان تربيـان طفلـين.. لا يوجـد أب.. أمـا عـن كيفيـة رزقهمـا بالطفلـين، فقصـة معقـدة تقـوم عـلى الحصـول عـلى الأمشـاج مـن شـقيق واحـدة

منهما!... كيف يكون الطفل ابنهما إذن؟.. ما تفعلانه في الواقع هو أن واحدة تربي ابن أخيها!.. إنها عمته يا مخابيل وليست أباه أو أمه ...

لكن البرنامج يحاول إقناعنا أنها أسرة مستقرة، تطهو للأولاد وتعلمهم الرسم وتقرأ لهم القصص. ويلتقي بالعالمة النفسية التي تؤكد أن ما يمكن أن يؤدي لخلل نفسية الطفل ليس نوع الأبوين، بل الفقر والبطالة.. يعني الاقتصاد هو المقياس الوحيد لتربية الأطفال..

هناك أمثلة أخرى يشيب لها شعر رأسك، لهذا لن أقدمها لأنني صدمتك بما يكفي اليوم.

النتيجة؟... فعلاً لا أفهم لماذا لا تنهار تلك المجتمعات حتى هذه اللحظة؟.. ربما كانت عملية النخر تحتاج إلى وقت أطول مما تصورت، أو أن انهيار المجتمعات يعتمد على عوامل اقتصادية أكثر منها أخلاقية.. أو لأن المجتمع الغربي يملك قدرة فائقة على تصحيح المسار بسبب حيويته الديمقراطية..

هم أحرار فيما يعتقدون لكني بالفعل أخشى تسرب هذه الثقافة إلينا.. المشكلة أن خرطوم الثقافة الذي يتدفق من عالمهم لعالمنا فيه مرشحات ضيقة تسمح بمرور هذه السخافات، بينما تمنع مرور الأشياء المهمة فعلاً مثل ميكانيكا الكم وقيم العمل والدقة العلمية.. الخ..

هذه الثقافة تتسرب لنا.. لا تزعم أن هذا ليس صحيحًا لو سمحت، ويكفي أن تبحث في بعض المنتديات والصفحات السرية على النت، لتجد أن هناك من يرفع صوته خافتًا معتبرًا نفسه أقلية مظلومة في بلد متوحش متعصب.. ولسوف تتساقط قطرات أكثر في الأعوام القادمة، ولسوف ترسم خطًا على الصخر بلا

شـك. ومـن جديـد أكـرر: أنـا لا أطالـب بقطـع الـرءوس والسـجن.. أطالـب بالطبيـب النفـسي لا أكـثر ولا أقـل.

الطريف في فنون التخويف

تأخر الخطاب كثيرًا لكنني كنت أدرك يقينًا أنه قادم، ومع الوقت بدأت أقلق.. هناك خلل في بريدي أو في شخصي بالتأكيد.. ربما أنا لا أستحق أن ينذروني؟

ثم جاء الخطاب الذي انتظرته طويلاً... الحمد لله.. الدنيا ما زالت بخير..

خبيرة غذائية تحذرنا من استعمال المكرونة الآسيوية الدقيقة المسماة (إندومي)، التي يدخل في تكوينها ملح صيني يدعى (إجني موتو)، وهو يسبب تلفاً في خلايا المخ ويسبب سرطان الدماغ. إن الإندومي يحتوي مادة E621 التي تسبب تسمم المخ وتسبب تراجع الذاكرة وضعفها، وتدهور القدرات العقلية وفقدان القدرة على التركيز ومعالجة الأمور الحسابية أو الرياضية المتوسطة، ثم تؤدى إلى غباء فعلي بدون مبالغة. كذلك تؤدي الإندومي إلى الإصابة بالشلل الرعاش والزايمر والصداع المزمن، ومع الاستمرار في تناولها تؤدى للسرطانات مثل سرطان الثدي وارتفاع الكولسترول وضغط الدم والأزمات القلبية الحادة وغير ذلك الكثير.... ونحن – والكلام لخبيرة التغذية - نقدمها ونجعلها الوجبة الرئيسية للعشاء لفلذات أكبادنا ونستغرب عندما نراهم لا ينامون، ونراهم في المنزل يجرون ويصرخون ويقلبون البيت، وتظهر منهم مشاغبات ليس لها حد، ونقول هذا جيل اليوم.. أما حان الوقت لنأخذ موقفا من هذه المنتجات والتأكد من مكوناتها، والبحث عن مضارها ومنافعها قبل استعمالها؟.

وهكذا أضيف عنصر جديد إلى قائمة الانذارات اليومية التي

سترسل بنا إلى معهد الأورام ثم القبر. كلنا ذاهبون للقبر قطعًا، لكن لا يحب أحدنا أن يسبق ذلك ترانزيت في معهد الأورام أو مركز الكلى أو معهد الكبد لا سمح الله. على كل حال يسهل تصديق هذا الخطاب جدًا لأن كل أب يعتبر أبناءه أغبياء وغير طبيعيين.. ما هو السبب؟.. لا يمكن أن يكون السبب وراثيًا لأنه – الأب - عبقري.. إذن المشكلة فيما يأكله هؤلاء الأوغاد الصغار. هذا الخطاب بالذات قوي التأثير جدًا لدرجة أنه أدى لصدور فتوى عراقية تقضي بتحريم أكل الإندومي، ولا لوم على صاحب الفتوى طبعًا لأنه استند إلى كلام العلماء الذي يقضي بوجود ضرر أكيد.

هذه القائمة الطويلة من الأمراض التي تسببها الإندومي – كأنك تتعامل مع مخلفات الشيطان – تثير الريبة فعلاً. عندما يشكو لي المريض من رأسه وقلبه ومعدته وقدميه وتنفسه فإنني أرجح أن المرض الحقيقي موجود في عقله.

مادة مونو صوديوم جلوتامات أو MSG هي نفسها E621، ونحن نعرف أنها تستخدم كمكسب طعم في كل شيء تقريبًا. معظم الدراسات التي أجريت عليها تقول إنها مأمونة بالجرعات العادية... لو أخذت أي شيء بجرعات زائدة حتى لو كان (فيتامين) فهو مضر بالتأكيد، وبالطبع هناك أشخاص قد يكونون مصابين بحساسية للجلوتامات، أو لا يجب أن ينالوا جرعات إضافية من الصوديوم. هم يعرفون هذا، لهذا اشترطت الحكومات كتابة أن المنتج يحتوي هذه المادة. الدراسات كثيرة جدًا لأن هذه المادة مفضلة للذعر.. ومن حين لآخر يعود الكلام عن أنها خطرة أو مسرطنة.. لكن العالم الأمريكي (هارولد مكجي) يؤكد في كتابه (عن الطعام والطبخ: العلم وتقاليد المطبخ - ٢٠٠٤) خلاصة

هـذه الدراسـات الـتي تؤكـد أن هـذه المـادة بـلا أي خطـر. نفـس الـشيء أكدتـه الـ FDA. الصينيـون أجـروا دراسـة مدققـة واسـعة فوجـدوا أن الخطـر الوحيـد لهـذه المـادة زيـادة الـوزن.

عـلى كل حـال تبـين أن هـذا التهديـد الزائـف يـدور عـبر الإنترنـت منـذ عـام ٢٠٠٧، وهنـاك تهديـد زائـف آخـر يعـود لعـام ٢٠٠٠ عـن أن الأكـواب الرغويـة الـتي تقـدم فيهـا (النودلـز) تسـبب تسـممًا بالمـادة الشـمعية المغطيـة للمكرونـة. كلام فـارغ هـو الآخـر.

تهديـد آخـر مـن هـذا الطـراز العجيـب يتعلـق بـأكل الجمـبري.. لـو أكلـت جمـبري ثـم أكلـت بعـده البرتقـال أو أقـراص فيتامـين (ج) فأنـت تكتـب شـهادة وفاتـك. الباحثـون في جامعـة شـيكاغو وجـدوا ان لحـم الروبيـان (الجمـبرى) يتضمـن تركـيزًا عاليـاً مـن مركبـات الزرنيـخ مـع البوتاسـيوم. مع فيتامـين سي يتحـول الزرنيـخ إلى ثالـث أكسـيد الزرنيـخ، ويقتـل الشـخص الأحمـق. حـتى قبـل أن تبحـث عـن المعلومـة، فمـن الصعـب تصـور أن يؤكسـد فيتامـين سي الزرنيـخ بينمـا هـو عامـل مخـتزل معـروف.. فيتامـين سي لا يؤكسـد بـل يمنـع الأكسـدة!. طبعًـا تبـين أن هـذا التهديـد كلام فـارغ خـال مـن الصحـة، وهـذه الإشـاعة تجـوب شـبكة الإنترنـت منـذ عـام ٢٠٠١، ولا يبـدو أنهـا سـتموت أبـدًا لأن كل واحـد يعرفهـا يعتقـد أنـه عـرف شـيئًا لـم يعرفـه أحـد مـن قبـل.

ما أريد قوله هنا يتلخص في نقاط:

١- نصـف العلـم جهـل.. والإنترنـت كمـا أفـادت، نـشرت الجهـل والمعلومـات الخاطئـة بسرعـة الـبرق. ومـن الصعـب أن تقـرر: هـل انتشـار المعلومـات الخاطئـة أفضـل أم عـدم انتشـار المعلومـات عـلى الإطـلاق؟

٢- في قصـة لبرخـت يحـكي عـن رجـل لـم تعـد لديـه لـذة في الحيـاة

سوى الكلام عن السرطان الذي أصيب به.. هنا نجد أن الناس لم تعد لديها لذة في الحياة سوى التهديد بالسرطان.. هذا ما أطلق عليه (شهوة السرطان) حيث كل شيء مسرطن، وهذا الكلام يظفر بالتصديق دومًا بسرعة البرق. بعض التحذيرات حقيقي وثابت علميًا ولا يحتمل المزاح، مثل أن رقائق البطاطس التي يلتهمها الجميع تحتوي مادة الأكريلاميد المسرطنة، ومثل أن السواد الدفين تحت قشرة البصل هو مادة أفلاتوكسين التي تسبب سرطان الكبد.. لكن هناك الكثير من الهراء كذلك: موجات الميكروويف تسبب السرطان (بحثت بدقة عن هذه النقطة وأعرف يقينًا أنها كاذبة). وفي أحد المؤتمرات العلمية الكبرى وقف أستاذ مصري كبير ليؤكد أن عقار البرازيكوانتل الذي أنقذ مصر من البلهارسيا يسبب السرطان، وهنا سأله أحد الأساتذة الذين يديرون الجلسة: «أين قيل هذا؟». قال مصرًا: «في الأبحاث.. في كل مكان..». هنا قال الأستاذ الثاني: «أنا لا أتحمل مسئولية أن تقال هذه الكلمات غير المسئولة في مؤتمر علمي، وأمام مئات من شباب الأطباء، الذين سيعتقد كل منهم أن هذا العقار الرائع يسبب السرطان، وبالتأكيد لن يكتبوه بعد اليوم بسببك». نفس الشيء قيل عن عقار آخر مهم هو (رانيتيدين).. لا مشكلة.. قل عن أي دواء أنه يسبب السرطان وسوف يصدقك الجميع لأن الناس تحب أن تكون الأطعمة والأدوية خطيرة وقاتلة، وتكره جدًا من يقول العكس.

١- جزء كبير من هذه الحملات يتعلق بمعارك طاحنة بين علامات تجارية.. إشاعة أن الببسي كولا تنقل التهاب الكبد سي هي بالتأكيد من هذا الطراز. طبعًا يعرف أصغر طالب طب أن هذا كلام فارغ. هناك كذلك الرغبة في الشعور بالتميز وأنك تعرف ما لا يعرفه الآخرون. لا ألوم المواطن العادي الذي لا

يعرف، لكن ألوم الأطباء الذين يجرهم تيار الخرافة معه وهم قادرون على التحقق.. عندما يقول طبيب على شاشة التلفزيون إن الجزر – مثلاً – يسبب السرطان، فهل تلوم المواطن العادي عندما يخاف؟

٢- الخوف موجات.. موجة الخوف من جنون البقر – الذي لم يثبت قط أنه ينتقل من اللحم للبشر – ثم ظهرت انفلونزا الطيور.. هذا مرض حقيقي مخيف، لكنك قادر على الوقاية منه ببعض التعليمات الصحية، والتخلص من جلد الدجاج والطهي الجيد والابتعاد عن أي مكان تغطي أرضه مخلفات الدجاج. لكن الناس أصيبوا بالذعر وهكذا نسوا ما كان وعادوا يأكلون اللحم.. ثم ظهرت انفلونزا الخنازير فنسى الناس كل شيء عن انفلونزا الطيور وعادوا يأكلون الدجاج!. ومن جديد لا لوم عليهم فلابد أن يأكلوا شيئًا، لكني ألوم الإعلام غير المسئول وثقافة الرعب السائدة. أحيانًا يلعب النجوم دورًا في هذا.. مثلاً كان هناك برنامج جماهيري استضاف الفنان (محيي إسماعيل) ليعلن إعلانًا خطيرًا: هو لن يأكل أي شيء بعد اليوم!.. كل شيء ملوث مسمم وخطر، وتكلم عن الدودة التي تسكن عروق ورقة الخص لتبدو مثلها بالضبط فنلتهمها.. بعد هذا العمر لم أسمع عن هذه الدودة قط. لابد من طريقة انتقال تتحمل العصارة المعدية والحمض، والخص لا ينقل الفاشيولا أو الاسكاريس بهذه الطريقة أبدًا.

٣- لابد من أن يزداد حظنا من العقلية النقدية: هل هذا ممكن؟.. ما الدليل؟.. لا تصدق كل شيء بل كن وغدًا متشككًا.. بعض البحث على شبكة الإنترنت في المواقع المحترمة (وليس المنتديات) مفيد، وقد يفيد كذلك استشارة من تعرف من

أطبـاء. ولا ترسـل الرسـالة لطـرف ثالـث قبـل أن تكـون واثقًـا مـن أن هـذه هـي الحقيقـة.

حمى عدم اليقين

حمى كيو.. مرض قديم يعرفه كل طالب طب، ينقله ميكروب اسمه (كوكزيلا برنتي) الذي يمت بصلة قرابة للتيفوس. تم وصف المرض في أستراليا منذ قرن تقريبًا والميكروب معروف منذ عام ١٩٣٧. هذا المرض ينتقل عن طريق الخراف والماعز إلى الإنسان بوساطة الاستنشاق واللبن غير المغلي. في المناطق الريفية في مصر يمكن القول إن كل طفل أصيب به يومًا ما. الأعراض عامة ومبهمة جدًا لهذا سمي المرض (حمى كيو Q) بمعنى Query أو (عدم اليقين)، لكنها قد تشبه الإنفلونزا، والأشعة على الصدر تريك ظلالاً من الالتهاب، وقد يحدث التهاب في صمامات القلب التالفة أصلاً. عامة يستجيب المرض بسهولة لبعض كبسولات التتراسيكلين أو السلفا وتنتهي المشكلة، ومن السياسات العامة التي تعلمتها أيام الوحدة الريفية أن تجرب التتراسيكلين مع هذه الحميات الغامضة لو لم يكن هناك مانع طبي، لأن فرصة عمل اختبارات معقدة شبه مستحيلة مع إمكانياتنا، ولأن التتراسيكلين قد يقضي على مرض اللجيونيلا والسيتاكوزس بالمرة.

المرض قديم كما قلت ومتوطن في مصر..

لماذا قررت الصحف إذن أن (إنفلونزا المعيز تجتاح العالم)، بينما بدأ الأمر بخبر في موقع غربي يقول إن هولندا تواجه انتشارًا لحمى كيو؟

هي ليست إنفلونزا على الإطلاق ففيروس الإنفلونزا لا يسببها، وهي قابلة للعلاج بالمضادات الحيوية العادية، ومنظمة الصحة العالمية لم تستعمل سوى اسم (حمى كيو).. وهي

لا تجتـاح العالـم.. لقـد كانـت موجـودة في مـصر طيلـة الوقـت، ولا أسـتبعد أن يكـون الصحفـي الـذي كتـب الخـبر نفسـه مصابًـا بهـا. منتهـى الجهـل وعـدم المسـئولية واسـتغلال الفـرص والأنانيـة وعـدم التدقيـق والبحـث عـن الإثـارة بـأي شـكل، وهكـذا التقطـت كل الصحـف ومواقـع الإنترنـت الخـبر وصـارت هنـاك ظاهـرة جديـدة اسـمها (إنفلونـزا المعـيز)، وجـاء اليـوم الـذي يسـألني فيـه سـائق التاكـسي:

ـ «حنعمل إيه في انفلونزا المعيز دي يا باشمهندز؟».

قلـت لـه إنـني لسـت مهنـدزًا لكنـني طبيـب أمـراض معديـة، وكل هـذا كلام فـارغ، فـراح يهـز رأسـه ويمصمـص شـفتيه مـع ترديـد (يـا سـلام) مبديًـا انبهـاره بدقـتي العلميـة وأنـا أشرح لـه مـا هـي حمـى كيـو هـذه، ثـم في النهايـة قـال في أسى وهـو يتصعـب:

ـ «مشكلة انفلونزا المعيز دي فعلاً..!».

لا جـدوى... لا أحـد يصغـي لأحـد في هـذا العالـم.. كل كلامـي قـد نـزل في البالوعة..

المشـكلة ليسـت انفلونـزا المعـيز، بـل هـذا التكاثـر السرطـاني لمسـاحات النـشر في الصحـف ومواقـع الإنترنـت والفضائيـات. هـذا لـم يـؤد لحيويـة الديمقراطيـة بـل فتـح المجـال لنـشر الـكلام الفـارغ.. إن مـصر تعـاني فعـلاً مـن حمـى كيـو أو حمـى عـدم اليقين. هـذه المسـاحات يجـب أن تُمـلأ.. بالـرأي.. بالفكـر.. بالأخبـار الكاذبـة.. بالأسـمنت والطـوب.. المهـم أن تُمـلأ..

في صحيفـة مختصـة بالجرائـم وجـدت منـذ عامـين خـبرًا مثـيرًا عـلى الصفحـة الأولى: «حـشرة غريبـة تثـير الرعـب في الزقازيـق وتقتـل ٧٠٠ مواطـن.. الحـشرة تنقـل الكوليرا بعضتها!..».

أبسـط شيء أن الكولـيرا لا تنتقـل بلـدغ الحـشرات.. كل تلميـذ في

الابتـدائي يعـرف هـذا، ومعـنى ذلـك ببسـاطة أن المحـرر سـاقط ابتدائيـة. أمـا عـن صـورة الحـشرة ذاتهـا فصـورة بالمجهـر الإلكـتروني لنـوع مـن (الحلـم) الـذي يعيـش في طبقـات الجلـد الميتة السـطحية ويأكلهـا، ويسـبب نوبـات الربـو لـدى المـرضى. طبعًـا عندمـا تُكـبّر صورتـه تصـير أقـرب للقطـة مـن فيلـم خيـال علمـي مرعـب.

المهـم هـو البيـع.. المهـم هـو مـلء الصفحـات وليذهـب المنطـق العلمـي للجحيـم، والأهـم فليذهـب القـارئ العـادي للجحيـم، ذلـك الـذي سـيصاب بالهلـع وهـو يشـعر أن الحيـاة كلهـا ضـده .... لقـد خـرج المـوت ليظفـر بـه هـو وأطفالـه..

الآن نـأتي لجريـدة مسـتقلة محترمـة واسـعة الانتشـار (برضـه ليسـت الدسـتور!) نـشرت في الصفحـة الأولى منـذ أعـوام خـبرًا يقـول مـا معنـاه إن أسـدًا في حديقـة حيـوان الجـيزة التهـم لحـم حمـار مصـاب بجنـون البقـر.. النتيجـة أن الأسـد جـن وأصابـه هيـاج فظيـع ممـا اضطـر السـلطات لقتلـه رميًـا بالرصـاص. طبعًـا لا أحـد يذكـر هـذا الخـبر لكـني قصصتـه مـن الجريـدة عالمًـا أنـني سـأكتب عنـه يومًـا مـا.

مـن كتـب هـذا الخـبر؟.. هـل كان بكامـل قـواه العقليـة؟.. ومـن رئيـس التحريـر الـذي سـمح لـه بهـذا؟.. هـل الحمـير تصـاب بجنـون البقـر؟.. وهـل المـرض ينتقـل للأسـود؟.. وهـل يسـبب اللحـم المـرض خـلال دقائـق بينمـا نحـن نعـرف أن الأمـر يسـتغرق نحـو عـشر سـنوات؟.. وهـل جنـون البقـر يسـبب الهيـاج بينمـا نحـن نعـرف أنـه مجـرد نـوع مـن فقـدان التـوازن يجعـل الأبقـار تمـشي كالسـكارى؟

أمـا عـن التوالـد الـذاتي لمقـال (سـارة سـتون) وكلام النصـاب الأمريـكي (هوروفيـتز) والوليـة وزيـرة الصحـة الفنلنديـة المزعومـة،

فظاهـرة تثـير الإعجـاب فعـلاً. كلمـا حسـبت النـاس نسـيت هـذا الـكلام الفـارغ عـاد للسـطح بقـوة في مقـال في جريـدة هنـا أو هنـاك. لا تأخـذوا اللقـاح.. اللقـاح فيـه سـم قاتـل.. اللقـاح مؤامـرة لجعـل نصـف البـشر أغبيـاء متخلفـين عقليًـا ومشـلولين.. إياكـم والسـكوالين.. السـكوالين يقتـل يـا حلويـن....

وهـا هـي ذي جريـدة الدسـتور تخصـص نصـف صفحـة مـن عددهـا الأسـبوعي لتعيـد نـشر كلام هوروفيـتز وسـارة سـتون، برغـم أن سـارة سـتون كتبـت مقالهـا عـن مخاطـر اللقـاح قبـل أن تُنتـج مـن اللقـاح جرعـة واحـدة. وهـل الوقـت وقـت هـذا الـكلام غـير العلمي بينمـا المـرض يـزداد توحشًـا؟. هنـاك خـبر يقـول: « كشـفت خبـيرة اللقاحـات بمنظمـة الصحـة العالميـة مـاري بـولي عـن الاشـتباه في إصابـة مـا لا يقـل عـن ١٢ شـخصاً مـن مختلـف دول العالـم بالشـلل نتيجـة حقنهـم باللقـاح المضـاد لإنفلونـزا الخنازيـر، وأضافـت: لـم يثبـت بالدليـل القاطـع ارتبـاط أي مـن حـالات الإصابـة بمتلازمـة (جوليـان بـاري) باللقـاح حـتي الآن». هـل فهمـت أي شيء؟.. هنـاك ١٢ شـخصًا أصابهـم اللقـاح بالشـلل لكـن لـم يثبـت أن اللقـاح أصابهـم بالشـلل!.

هنـاك موقـع إنترنـت أعلـن في انتصـار عـن وفـاة تلميـذ مـصري أخـذ اللقـاح، ثـم تقـرأ الخـبر فتكتشـف أنـه يتحـدث عـن الطفـل الـذي أصيـب بانفلونـزا الخنازيـر ومـات عقـب جرعـة مـن الفولتاريـن. السـبب أن الأخ محـرر الخـبر ظـن أن اللقـاح اسـمه (فولتاريـن). وبهـذه المناسـبة أعتقـد أن عقـار (دايكلوفينـاك) أو فولتاريـن تلقـى ضربـة قويـة جـدًا بعـد هـذه الدعايـة السـيئة لـه برغـم أنـه مـن أهم الأدويـة في ترسـانة مضـادات الالتهاب/مخفضـات الحـرارة. لمـاذا وضعتـه وزارة الصحـة في قائمـة الممنوعـات بهـذه السـهولة برغـم

أن أحـدًا لـم يتهمـه بـشيء سـوى في بعـض حـالات التهـاب المـخ في اليابـان، وهـذا كلام قديـم ؟. اليـوم يمكـن أن يمـزق المريـض طبيبـه لـو كتـب لـه (دايكلوفينـاك)، ولسـوف تكتـب الصحـف صفحـات كاملـة عـن مسلسـل الجهـل لـدى الأطبـاء.. يـا لله.. خـلي النـاس تقـرا وتنبسـط..

الآن صـارت مشـكلة المواطـن المـصري مزدوجـة: اللقـاح قاتـل ويحـدث شـللاً. اللقـاح غـير متوافـر ويُعطـى للمحظوظـين فقـط!!! هــذا يذكـرك بكلمـة وودي آلـين السـاخرة: الحيـاة قاسـية مليئـة بـالآلام لكنهـا كذلـك قصـيرة.. قصـيرة جـدًا!

هنـاك عـشرات المشـاكل تواجـه مـصر اليـوم، بـدءًا بالتوريـث مـرورًا بميـاه النيـل والتعليـم والبطالـة.. وانتهـاء بإنفلونـزا الخنازيـر. لكنـني أضيـف لهـا خطـرًا يعبـث عبثًـا مروعًـا في عقـل المواطـن الـذي يصـدق كل شيء ويشـك في كل شيء..هـذا الخطـر هـو النـشر غـير المسـئول أو الجاهـل أو معـدوم الضمـير.

لا تكن ساذجًا

عندما كنا طلابًا، مشيت مع صديقي هذا في الكلية نتبادل عبارات المزاح.. كان في حالة من الانبساط والرغبة الشيطانية في العبث، عندما دنا منا ذلك الطالب المذعور يسألنا عما إذا كانت نتيجة البكالوريوس قد علقت.. قال صديقي: «لم تعلق بعد.. إنهم يقومون بتغييرها!». نظر له الطالب في عدم فهم، فقال صديقي في غموض: «ألم تفهم بعد؟.. ابنة العميد ضمن الطلبة.. لا تكن ساذجًا كطفل!.. افهم!». أطلق الطالب المذعور سبة على غرار «آه يا بلد الـ..».. وانصرف يجري كالمجنون، بينما انفجر صديقي ضاحكًا.. لقد ولدت إشاعة قوية سوف تحتاج لوقت طويل حتى تتلاشى، ولسوف يرددها الجميع ناسين أن العميد – وقتها - ليس له أولاد على الإطلاق!!

خلاص لم أعد أتحمل المزيد من نظرية المؤامرة.. بلغت روحي الحلقوم، فلم أعد أطيق أن أرى واحدًا من هؤلاء الأذكياء الذين يضيقون عيونهم ويضحكون في غموض، ويقولون: «لا تكن ساذجًا». كل شيء مؤامرة.. كل شيء تم التخطيط له من قبل وليس كما يبدو.. إن نظرية المؤامرة لذيذة جدًا وتشعرنا بالتفوق على الآخرين السطحيين. تمطر السماء فينظر لك في حنكة وذكاء ويقول: «البلهاء يعتقدون أن هذا المطر طبيعي. لا يعرفون أنها مؤامرة من الحكومة الأمريكية». وبالطبع في مناخ مرضي مظلم كالذي يعيشه العالم العربي تزدهر فطريات وطحالب وجراثيم نظرية المؤامرة جدًا، حتى أنك قد تصاب بالعته لو واظبت لفترة على متابعة المنتديات الخليجية، والأكثر طرافة أن الكل

يصدق ويشكر صاحب النظرية لأنه جعلهم يعرفون ما كانوا يجهلون..

منذ أعوام سادت العالم الغربي نظرية حمقاء عن أن الأمريكان لم يصلوا للقمر قط.. قالوا إن ناسا تلعب أكبر خدعة في التاريخ، وقد تبنى كثيرون في العالم العربي هذه الإشاعة حتى بدأت إشاعة أخرى تقضي بأن لويس أرمسترونج - أول من مشى على القمر - سمع صوت الآذان على القمر ثم سمعه بعد عودته للأرض فأسلم على الفور، وبالطبع تتكتم الحكومة الأمريكية هذه القصة. الطريف أن ذات المنتدى يضم الرأيين معًا غالبًا.. ترى هل مشي أرمسترونج على القمر فأسلم، أم لم يصل أحد للقمر أصلاً؟.. والأظرف أن صاحب الموضوع لابد أن يكتب قائلاً: «نحن العرب سذج نصدق كل شيء وسهلو الخداع!». هذا كلام دقيق جدًا، لكن ليس بالطريقة التي تريدها يا صاحبي..

إن إشاعة ناسا شهيرة على كل حال، وقد بدأت ببرنامج سخيف قدمته قناة فوكس الإخبارية عام ٢٠٠١. يرى من صنعوا البرنامج أن صور الهبوط على القمر تم تصويرها في ستوديو في قاعدة جوية في (سان برناردينو).. مثلاً انعكاسات الأشياء على زجاج قناع رواد الفضاء يوحي بوضع معكوس للعلم الأمريكي غير الموضع الذي غرس فيه فعلاً. العلم يرفرف مع النسيم فكيف يوجد نسيم على ظهر القمر؟. لا توجد أية نجوم في أية صورة التقطتها ناسا برغم أنه من المنطقي أن تزدان السماء بها متى غادرنا غلافنا الجوي. يقول المدافعون عن ناسا إن هذا منطقي لأن ضوء الشمس يغمر سطح القمر ويحجب أية نجوم، والأمر يشبه خروجك من غرفة ساطعة الإضاءة إلى الليل.. عندها لن

تـرى أي نجـم. قـال المشـككون إن آثـار المركبـة القمريـة واضحـة ومحـددة أكـثر مـن الـلازم، ولابـد مـن خلـط التربـة بالمـاء لإحـداث أثـر كهـذا.. الإجابـة هـي أن التربـة القمريـة ناعمـة جـدًا كالدقيـق تلتصـق بالأحذيـة وترسـم أي شـكل يلتصـق بهـا مـن دون مـاء.

كيـف لـم تحـدث المركبـة ثقبًـا تحتهـا عندما لمسـت تربـة القمر؟.. الإجابـة هـي أن مسـاحة القاعـدة الـتي تمـس التربـة عريضـة ممـا أدى لتوزيـع الضغـط وبالتـالي صـار الضغـط عليهـا لا يتجـاوز وزن رائـد الفضـاء ذاتـه، دعـك مـن أن عـدم وجـود ثقـب هـو أقـرب للتصديـق مـن وجـوده، لأنـه كان بوسـع ملفقـي المشـهد أن يصنعـوا واحـدًا.

قـال المشـككون إن أحـد الجبـال عليـه حـرف C بشـكل واضـح وإن هـذه علامـة تخـص صاحـب (العهـدة) كمـا يكتبـون (بيومـي) عـلى ظهـر الكـراسي عندنـا.. الحقيقـة أن هـذا الحـرف لـم يوجـد في الصـورة الأصليـة الـتي صـار عمرهـا ثلاثـين عامًـا، إنمـا في النسـخ المسـتخدمة منهـا فهـو مجـرد عيـب تحميـض. أمـا النقطـة الأهـم الـتي يكررونهـا في كل مقالاتهـم تقريبًـا فهـي: كيـف اسـتطاع رواد الفضـاء اخـتراق حـزام (فـان ألـين) الإشـعاعي القاتـل المحيـط بـالأرض؟... الإجابـة هـي أنهـم يجتازونـه مرتـين فقـط أثنـاء المغـادرة وأثنـاء الرحيـل، وتكـون سرعتهـم خمسـة وعشريـن ألـف ميـل في السـاعة لهـذا يتعرضـون لـه أقـل مـن سـاعة، وهـذا لا يكفـي إلا لإصابتهـم ببعـض الغثيـان.

يتسـاءل البعـض: لمـاذا لـم ترسـل ناسـا رجـالاً آخريـن للقمـر منـذ عـام ١٩٧٢؟.. الإجابـة هـي أن العمليـة كانـت مكلفـة وخطـرة.. وقـد أرسـلت ناسـا ١٢ رجـلاً بالفعل..وأثبتـت أنهـا قهـرت الاتحـاد السـوفييتي. هـذا يكفـي.. خاصـة أن تنفيـذ نفـس المهمـات اليـوم سـوف يكـون باهظًـا جـدًا بحسـاب التضخـم.

مـن ضمـن مـا يقـال كذلـك إن عـشرة رواد ماتـوا أثنـاء مـشروع أبوللـو بظـروف غامضـة لا تفسـير لهـا في مركبـات أو طائـرات نفاثـة. قالـوا إنهـا حـوادث متعمـدة كي لا يتكلمـوا عـن الفضيحـة الـتي لمسـوا أبعادهـا. السـؤال هنـا هـو: لمـاذا تفعـل ناسـا هـذا؟ ومـا مصلحتهـا؟.. يجيـب المشـككون أن الهـدف بسـيط جـدًا. لـكي تحصـل عـلى ٣٠ مليـار دولار مـن أمـوال دافعـي الضرائـب.. ثـم أن الحكومـة الأمريكيـة كانـت تعـاني الويـلات في فيتنـام لـذا أرادت أن تشـغل النـاس بموضـوع آخـر، ولـو لاحظـت التواريـخ لوجـدت أن تاريـخ الخـروج مـن فيتنـام يتزامـن مـع توقـف رحـلات الهبـوط عـلى القمـر بعـد أبوللـو ١٧. دعـك مـن رغبـة الحكومـة الأمريكيـة في قهـر السـوفييت الذيـن كانـوا يعملـون بحمـاس مجنـون للهـدف ذاتـه، لهـذا اخترعـت هـذا الهبـوط لتدعـي التفـوق عليهـم.

هكـذا تنهـال النظريـات عندنـا.. صـدام لـم يقبـض عليـه.. صـدام قبـض عليـه في زمـن غـير الـذي أعلنـوه بدليـل البلـح.. صـدام لـم يعـدم وإنمـا أعـدم البديـل (هنـاك كتـاب كامـل سـميك عـن هـذا الموضـوع عـلى كل حـال عنـد عـم مدبـولي يرحمـه الله).. قاتـل نادين ليـس قاتـل نادين.. وكل مـن يقبـض عليـه في أيـة جريمـة ليـس هـو الفاعـل.. يـاسر عرفـات ليـس مريضًـا إنمـا هـي خدعـة.. الفراعنـة لـم يبنـوا الأهـرام وإنمـا قـوم عـاد.. مايـكل جاكسـون هـو جيفـارا لكـن الحكومـة الأمريكيـة تخفـي ذلـك.. فـيروس سي أكذوبـة ولا وجـود لـه وإنمـا اخترعتـه شركات الإنترفـيرون..

لكـن أصحـاب نظريـة المؤامـرة لا يتعبـون ولا يخجلـون.. سـوف ينسـون هـذا الموضـوع ويبـدءون في تبـني نظريـة جديـدة.. شـعارهم هـو: لا تكـن سـاذجًا.. أنـت أذكى مـن ذلـك. كمـا تـرى فالغـرب يملـك نظريـات مؤامـرة مثلنـا، لكنـه يتعامـل معهـا بحجمهـا الحقيقـي ولا

يجعلها أسلوب حياة كما نفعل نحن، لكننا بالفعل نعاني مشكلة مع التذاكي واحتكار الحقيقة.

القسم الثالث

وفيه حديث طيب كالعنبر،عن الأدب والفنون وحفلات الأوسكار

(سلام بومباي) بشكل آخر

لأسباب تتعلق بي أنا، لم أستطع أن أحب فيلم (الحالة الغريبة لبنجامين باتون) كما أحبه الجميع تقريبًا، لأنني شعرت بأنه مفرط الطول وأنه صمم بالقلم والمسطرة كي يحصد جوائز الأوسكار.. مثلما يقرر الشاعر أن يكتب قصيدة رقيقة فيحشد كل كلمات (الربيع) و(الندى) و(الشفاف) و(عبير) في بيت واحد. ثمة شيء ما غير أصيل ولم أرتح له، بينما شعرت أن فيلم (مليونير العشوائيات Slumdog millionaire) يفوح برائحة الصدق والعرق والوحل وروائح أخرى لا داعي لذكرها. يبدو أن الأكاديمية التي تمنح جوائز الأوسكار اتفقت معي في الرأي فنال (مليونير العشوائيات) ثماني جوائز أرى أنه يستحقها فعلاً.

هل يمكن أن تصنع فيلمًا جميلاً عن القبح؟.. هذا ما راهن عليه (دان بويل) وهو ذات ما صنعه (محمد خان) عندنا في (أحلام هند وكاميليا). لقد رأيت من قبل فيلم دان بويل (مراقبة القطارات) الذي رأى أيرلندا كما لم يرها أحد من قبل، وقد قدم لنا قاع قاع ذلك المجتمع..

من قاع قاع المجتمع الهندي يبدأ فيلم (مليونير العشوائيات) الذي كتب عن رواية للكاتب والدبلوماسي الهندي (فيكاس سواراب) وأعد له السيناريو السيناريست البريطاني (سيمون بوفوي). الفيلم يتحرك بطريقة شائقة بين الماضي والحاضر والمستقبل.. والمستقبل لن يظل كذلك للأبد لأن الحاضر سيسبقه.. لكن كل هذا اللعب الزمني مفهوم وسلس وخال من استعراضات العضلات الفكرية كالتي رأيناها في فيلم (ساعات).

هـذا الاسـتعراض الـذي تشـعر بـأن غرضـه أن يشـعر المشـاهد بأنـه – البعيـد – غـبي بطـيء الفهـم.

المحـور الرئيـس حـتى قـرب النهايـة هـو التحقيـق الـذي يجريـه ضابـط شرطـة هنـدي مـع الشـاب (جمـال) أي الممثـل الهنـدي (ديف بيتـل).. الشـاب الفقـير الـذي يعـرف الجميـع أنه نشـأ في العشـوائيات والـذي لا تسـمح إمكانياتـه الثقافيـة ولا العقليـة بالكثـير. نـرى الكثـير مـن التعذيـب عـلى الطريقـة المصريـة.. الفـتى يتلقـى علقـة ممتـازة في قسـم الشرطـة تبلـغ ذروتهـا بالصعـق بالكهربـاء.. ربمـا لهـذا نشـعر بألفـة كلمـا رأينـا أفلامًـا هنديـة؛ فالـدم واحـد والفقـر واحـد والمشـاكل واحـدة، ومعاملـة الشرطـة واحـدة..

نفهـم مـن الحـوار أن الفـتى يتـم اسـتجوابه لأن الشرطـة متأكـدة مـن أنـه يغـش بطريقـة مـا في برنامـج (مـن سـيربح المليـون؟) الهنـدي. الفـتى يجيـب إجابـات صحيحـة بطريقـة مذهلـة، ويتقـدم نحـو حاجـز عـشرة ملايـين روبيـة ويتجـاوزه نحـو العشريـن مليونًـا، لهـذا صـار رجـال الشرطـة عـلى يقـين مـن أنـه يغـش.. هنـاك مـن يرسـل لـه إشـارات وسـط الجمهـور أو هـو زرع جهـاز اتصـال في جسـده..

مـا يدعـم شـكوك ضابـط الشرطـة هـو أن الفـتى يجهـل أشـياء بديهيـة فعـلاً يعرفهـا أي طفـل في الخامسـة، مثـل الكلمـات المكتوبـة عـلى العلـم الهنـدي أو الصـورة الموجـودة عـلى العملـة الهنديـة.. هنـا يسـأل الفـتى الضابـط عـن سـعر نـوع مـن الحلـوى الهنديـة الرخيصـة، فـلا يعـرف.. يسـأله مـن سرق دراجـة الصـبي فـلان؟.. لا يـرد الضابـط فيجيـب الفـتى في سـخرية: كل طفـل في (دارافي) يعـرف الإجابـة!

هنـا ينطلـق الفيلـم مـن فرضيـة مثـيرة، هـي أن حيـاة الفـتى

العاصفة ومرمطته في أزقة (مومباي) لقنتاه الإجابات الصحيحة.. لقد كانت الأزقة هي مدرسته الحقيقية.. ولهذا استطاع أن يصمد لكل الأسئلة. طبعًا الفرضية غير معقولة، لأنه لا أحد يملك حظًا كهذا الحظ الذي يجعله يجيب عن كل الأسئلة، لكنك تقبل هذا من منطلق قاعدة (التعطيل الإرادي لعدم التصديق) التي اخترعها الخواجة كولريدج، أو قاعدة (دعني أنخدع - دعني أخدعك) التي اخترعها العبد لله..

يحكي الفتى قصة حياته للضابط ويتداخل هذا مع مشاهد من برنامج (من سيربح المليون) نفسه.. نسمع الأسئلة وسخرية مقدم البرنامج المغرور وتظرفه، خاصة عندما عرف أن الفتى (شاي والا) - (ولد شاي) - مهمته تقديم الشاي للعاملين في شركة اتصالات كبرى.

ثم نرى رد فعل الفتى الذي يستحضر من خبرات الماضي تجربة كانت لها علاقة بالإجابة.. مثلاً السؤال عن الصورة التي يرسم بها الهندوس الرب (رام).. ماذا يمسك به في يده اليمنى؟.. هنا يتذكر الفتى طفولته وهو يلعب في النهر المتسخ بينما أمه تغسل.. ثم يهجم على الحي مجموعة من الهندوس البلطجية ليفتكوا بالمسلمين.. تتلقى أم الفتى ضربة قاتلة على رأسها وتسقط في الماء، بينما يفر (جمال) وأخوه.. هنا يجدان أمامهما واحدًا من الهندوس صبغ نفسه بالأزرق ليبدو مثل إلههم (رام).. مشهد لا يمحى من ذاكرته أبدًا.. طبعًا في يد (رام) اليمنى قوس وسهم..

الإجابة الصحيحة هي: قوس وسهم.. وهكذا تتوالى الإجابات مع مقدم البرنامج الخبيث المراوغ (أنيل كابور) الذي يتلاعب بأعصاب الفتى ليخسر.. مثلاً الفتى يذكر أفلام الممثل (أميتاب

باتشان) كلها، والسبب أنه كان مجنونًا به في طفولته.. إن هذه المنطقة العشوائية قرب المطار ترى هبوط طائرة (أميتاب) من ثم يعم الجنون بين الفقراء ويهرعون ليروه.. ولع الصبي يؤدي به لمغامرة مؤسفة هي أن يغوص بالكامل في حفرة من الفضلات البشرية ويخرج مكسوًا بها ليطلب توقيع (أميتاب) على صورة له.. من الواضح أن الغوص في الفضلات البشرية تيمة مفضلة عند (دان بويل)؛ لأنه يصور في فيلم (مراقبة القطارات) رجلاً يغوص في مرحاض مليء ليبحث عن أقراص مخدرة، ويتحول الأمر لحلم فانتازي من السباحة وسط الفضلات!!

هكذا تتوالى الأسئلة التي يحلها الفتى بمعجزة ما، وبخبرات طفولته فقط... مع الأسئلة نرى بانوراما كاملة لحياته وصراعاته وقصة حبه الأليمة مع فتاة شوارع مثله اسمها (لاتيكا)، كان مصيرها محددًا بالطبع.. كل الأطفال يتسولون.. يكبر الفتيان فيصيرون لصوصًا وبلطجية، وتكبر الفتيات فيصرن عاهرات.

نكتشف هذا كله بينما ثلاثة خيوط لا تتوقف عن النمو وتتداخل وتتعقد مع بعضها:

١- خيط التحقيق في قسم الشرطة ومحاولة إقناع الضابط.

٢- خيط حياة الفتى وعلاقته بأخيه والبحث عن حبيبته التي غاصت في أمواج المدينة.

٣- خيط البرنامج نفسه مع مقدمه الخبيث الذي يحاول إقناع الفتى أنه في صفه، وهو يخدعه، وفي النهاية يشكوه للشرطة بتهمة الغش في البرنامج ومن هنا نعرف لماذا بدأ الخيط الأول.

تتصاعد الأحداث، فلا داعي لسرد كل شيء.. هناك كذلك خطأ في السيناريو لن نتوقف عنده طويلاً (عندما قال في التحقيق إنه لم ير أخاه قط بعد الفراق في الفندق). فقط ينتهي الفيلم

بمشـهد اسـتعراضي ضخـم عـلى محطـة القطـار، هـو نـوع مـن التحيـة للسـينما الهنديـة التجاريـة أو (بوليـوود) كمـا يسـمونها.. لكـن مـا أبعـد الفـارق بـين هـذا البطـل التعـس النحيـل وفتاتـه السـمراء الواهنـة، وبـين أبطـال بوليـوود المفعمـين صحـة ورجولـة وجمـالاً.. مـن المسـتحيل أن يظفـر هـذان الشـابان بالبطولـة في فيلـم هنـدي تجـاري.

هـذه هـي الهنـد الحقيقيـة.. الهنـد الـتي لا نعرفهـا نحـن.. الهنـد كمـا لـم تصورهـا الكاميـرا مـن قبـل. بلـد مـليء بالفقـر والجريمـة والبـؤس لكنـه برغـم ذلـك سـاحر. يمكنـك في لحظـات كثـيرة أن تتنهـد ارتياحًـا لأننـا لا نعيـش في هـذا الفقـر الصـادم الموجـع. عـلى فكـرة لـم أعـرف مـن قبـل أن عشريـن مليـون روبيـة تقـترب مـن نصـف مليـون دولار.

بالطبـع أثـار الفيلـم الكثـير مـن الاحتجـاج في الهنـد لأنـه يظهرهـا بطريقـة فاضحـة غـير سـياحية بالمـرة، واحتـج الهنـدوس عـلى إظهارهـم كوحـوش.. هنـاك جبـل مـن القضايـا مرفوعـة عليـه، لكـن هـذا كل شيء.. مـن المسـتحيل أن نتصـور أن يقـدم هـذا الفيلـم في مـصر أصـلاً سـواء قدمـه مخـرج مـصري أو بريطـاني. بالمنطـق الرقـابي عندنـا ليـس هـذا الفيلـم سـوى حبـل طولـه سـاعتين لنـشر الغسـيل المتسـخ.

مـن ناحيـة أخـرى لا أعـرف لمـاذا لـم يتذكـر أحـد تشـابه هـذا الفيلـم الشـديد مـع (سـلام بومبـاي)، وهـو فيلـم جميـل آخـر قدمتـه عـام ١٩٨٨ المخرجـة الهنديـة المشـاغبة (مـيرا نايـر) الـتي يسـبب كل فيلـم لهـا عاصفـة مـن الجـدل.. في ذاك الفيلـم أطفـال شـوارع في (مومبـاي) وقصـة حـب بـين طفـل شـارع وفتـاة لا تلبـث أن تتحـول إلى غانيـة خصوصيـة لأحـد الأثريـاء. لا أعـرف لمـاذا نسـيه

الجميـع..

(مليونـير العشـوائيات) فيلـم ممتـع ولاهـث الإيقـاع، فـلا تشـعر لحظـة أنـك جلسـت متسـمرًا أمـام الشاشـة سـاعتين. كل هـذا مجـدول بالأغـاني الرائعـة لـ (أ. ر. رحمـن) الـذي اسـتحق بحـق جائـزتي أوسـكار عـن الموسـيقا التصويريـة وأفضـل أغنيـة. تصويـر فائـق الجمـال يتعامـل مـع القبـح والقـذارة بعذوبـة شـديدة لا تعـرف كيـف، ويعتمـد كثـيرًا جـدًا عـلى الكاميـرا المحمولـة باليـد.

مـن الطريـف أن بويـل يعـترف بأنـه رأى الكثـير مـن أفـلام بوليـوود إياهـا ليتعلـم طريقتهـا في التعامـل، وقـد أخـذ السيناريسـت الكثـير مـن خيـوط أشرار بوليـوود لينسـج بهـا شـخصيات الأشرار في فيلمـه، كمـا أخـذ خيوطًـا مهمـة مـن فيلـم هنـدي بوليـسي اسـمه (ديـوار).. حـتى طريقـة بوليـوود في التعبـير عـن مـرور السـنين اقتبسـها، حيـث يثـب الشـقيقان مـن القطـار فـإذا همـا لحظـة السـقوط قـد تقدمـا سـبع سـنوات في العمـر.

باختصـار: لـو ابتلعـت منطـق أن خـبرات الفـتى في طفولتـه تكفـي للإجابـة عـن كل أسـئلة البرنامـج، فأنـت لـن تجـد مشـكلة في هـذا الفيلـم ولسـوف يـروق لـك بشـدة.

أفاتار: الرقص مع الذئاب الفضائية

لا يمكنـك أن تحتفـظ بـرأي محايـد تجـاه فيلـم أفاتـار، فإمـا أن تهيـم بـه حبًا وتعتـبره قطعـة مـن الشـعر المـرئي، أو تمقتـه وتعتـبره تافهًـا لا يسـتحق هـذه الضوضـاء. بعـد دخـول الفيلـم كتبـت هـذا المقـال وتأثـيره لمـا ينمـح بعـد مـن شـبكيتي .عنـوان الفيلـم (أفاتـار) كان موضـع خـلاف قانـوني بـين المخـرج جيمـس كامـيرون والمخـرج هنـدي الأصـل (م. نايـت شـليمان) الـذي كان ينـوي تقديـم فيلمـه الجديـد بـذات العنـوان. هـواة الكمبيوتـر يحفظـون الكلمـة طبعًـا؛ لكـن معناهـا اللغـوي الدقيـق هـو تجسـد الإلـه الهنـدوسي فيشـنو في صـورة إنسـان أو نبـات. إنـه مفهـوم معقـد مرتبـط جـدًا بعقيـدة تناسـخ الأرواح، لكنـه في هـذا الفيلـم يرمـز للكيانـات البديلـة الـتي ابتكرهـا الجيـش الأمريـكي لتتمكـن مـن العيـش عـلى كوكـب لـه هـواء سـام وبيئـة معاديـة.

أما عن الفيلم نفسه.....

أولاً: يجـب التفرقـة بـين فـن السـينما، وبـين التقنيـات الـتي يتم بها تحسـين هـذا الاخـتراع، والغـرض في النهايـة إغـراء المشـاهد بالخـروج مـن بيتـه للذهـاب لـدار السـينما.. يعـني يفـارق بيتـه الـدافئ ويبحـث عـن قميـص مكتمـل الأزرار، ويفتـش عـن الحـذاء تحـت الفـراش، ويخـترق زحـام الشـوارع، ثـم يبتـاع تذكـرة غاليـة – ثمنهـا ثمـن كيلـو لحـم في حالتنـا هـذه - ليجلـس في مـكان واحـد لمـدة ثـلاث سـاعات تقريبًـا. مـن أجـل هـذا الغـرض ظهـرت التقنيـات المختلفـة الـتي لـن يقدمهـا التلفزيـون أبـدًا؛ مثـل السـينراما والآيماكـس.. وفي مـصر رأينـا فيلـم (الزلـزال) يعـرض بطريقـة (سنسـور سـاروند) الـتي كانـت تهـز

دار السينما هـزًا لدرجـة أن الغبـار كان يتسـاقط مـن سـقف السـينما عـلى رأسي. في الخمسـينات كانـت في الخـارج تجـارب الـ Smellies أو الأفـلام ذات الرائحـة، والـتي تتلخـص في أن يفتـح المشـاهد كراسـة صغـيرة مرقمـة ليشـم رائحـة معينـة حسـب المشـهد، كمـا كانـت هنـاك أسـطوانات تضـخ الروائـح في نهايـة السـينما. بعـد هـذا ظهـرت تقنيـات التجسـيم الـتي شـهدت فـترات مـن الظهـور والتراجـع. كل هـذا لا علاقـة لـه بفـن السـينما ذاتـه، ولكنهـا أشـياء تزيـد الإبهـار وتخفـي الحقيقـة إلى حـد مـا. وانطباعـي عنهـا أنهـا فقرة مـن فقـرات الملاهـي في النهايـة، لا تختلـف عـن (السـيميولاتور) أو (مـسرح المحـاكاة) الـذي تدخلـه في دريـم بـارك أو ماجيـك لانـد. معظمنـا رأى السـيمولبيتور ولـم يتكلـم قـط عـن جـودة سـيناريو وتصويـر وإخـراج الفيلـم المصاحـب لـه لأن المؤثـرات هـي الهـدف.

لهـذا عندمـا عرضـت الأفـلام المجسـمة في مـصر في سـينما ريفـولي، ورأينـا (بيـت الرعـب المجسـم) و(هجـوم عـلى المتفرجـين) و(الأطفـال الجواسـيس).. الـخ.. لـم تكـن أفلامًـا جيـدة عـلى الإطـلاق. كانـت القصـة مجـرد ذريعـة مصممـة بعنايـة بحيـث يقـذف الأبطـال أشـياء عـلى الجمهـور طيلـة الوقـت، وتنفجـر النـيران أو الميـاه في وجوههـم. بالتـالي هـي مجـرد فقـرات مـلاه لا أكـثر، دعـك بالطبـع مـن الصـداع الـذي يهشـم رأسـك طيلـة اليـوم التـالي.

فيلـم (أفاتـار) ثـلاثي الأبعـاد.. وقـد نجـح بالفعـل في أن يأخـذك مـن يـدك ليلقـي بـك في قلـب هـذا العالـم الغريـب (بنـدورا). أعتقـد أن الأبعـاد الثلاثيـة كانـت موفقـة جـدًا خاصـة مـع شريـط الصـوت الممتـاز. في بعـض المشـاهد كنـت تسـمع الأصـوات مـن خلـف كتفـك، وكانـت السـهام تـضرب سـقف السـينما. لكـن هـذا يعـني كذلـك أنـه لا وجـود لـه بعيـدًا عـن شاشـة السـينما.. سـوف يتـلاشى

ويضمحل.. لا يمكن أن تراه في التلفزيون لأنه سيبدو أضعف من أية حلقة من مسلسل ستار تريك.

ثانيًا: قصة الفيلم ليست خارقة وليست تحفة فنية. قصة بسيطة جدًا اشتقاقية تذكرك بعد دقائق بـ (يرقص مع الذئاب). جندي أمريكي مارق يتعرف حياة البدائيين فيكتشف أن لهم حضارتهم الخاصة الثرية، وأنهم ليسوا بالتخلف الذي حسبه، ويتعلم الكثير جدًا منهم. بعد قليل يقع في الحب مع واحدة منهم، وفي النهاية يحارب قومه معهم.. هناك عملية جلد ذاتي للعسكرية الأمريكية ولربما تذكرنا العراق وأفغانستان إلى حد ما، مما يضفي على الفيلم لمسة سياسية لا بأس بها، لكن يجب الاعتراف بأن هناك الكثير من المباشرة في الحوار.. «أصحاب الأسهم يكرهون الموت والدمار، لكنهم يكرهون هبوط الأسهم أكثر».. هناك الكثير من مادة نسيت اسمها تحت الشجرة الأم لذا لابد من تدميرها غير مبالين بمشاعر هؤلاء. والجنرال فظ بطريقة مبالغ فيها يقف في الطائرة المهاجمة يشرب القهوة ويتلذذ بالقصف و(أول دورة كئوس الليلة على حسابي).. حوار مباشر جدًا يذكرني بالمسرحيات الوطنية التي كانت توزع مع مجلة بناء الصين: (أنا شرير ورأسمالي لذا أحارب البروليتاريا وقوى الشعب العاملة البطلة).

من أجل هذه النقطة بالذات لم يكن الكل سعداء بالفيلم، وعندما تراقب وجوههم بعد العرض تشعر بأنهم خدعوا بشكل ما، وهذا يقودنا لاستنتاج مهم هو أن الناس تتفاوت في تقيم التجربة البصرية.. هناك من يضعها في المقدمة، وهناك من يضع القصة في المقدمة.

ثالثًا: الفيلم يثير قضية أخلاقية مربكة نوعًا.. هل بطل الفيلم

يعتبر بطلاً فعلاً؟.. وبأية مقاييس؟.. مقاييسنا أم المقاييس الفضائية؟.. لقد حارب قومه وأحرق طائراتهم، فلماذا لا نعتبره خائنًا؟ وهل مفاهيم الإنسانية تسري على أهل ذلك الكوكب وهم ليسوا بشرًا أصلاً؟.. عندما تشاهد الفيلم ستكون الإجابة محسومة في صالح أهل الكوكب، لكن هل الأمور بهذا الوضوح دومًا؟.. لو كلف طيار عربي بقصف مدينة إسرائيلية، فهل من الطبيعي والمستحب أن يتمرد ويقتل زملاءه العرب؟

رابعًا: جرعة الإبهار البصري في الفيلم لا تصدق ولا يمكن وصفها أو التعبير عنها. لن تصدق أن هذا قد تم عمله في الستوديو وأن هناك بشرًا وراء هذا كله. كل عود نبات وكل شظية مشتعلة وكل بتلة زهرة تحت السيطرة الكاملة وعوملت بعناية تامة. إن الفيلم قد حرك سقف الإبهار البصري إلى آفاق جديدة بحيث تزداد المهمة صعوبة على القادمين بعده، وهي مشكلة حقيقية لأن هناك لحظة لن يستطيع فيها القادمون إضافة جديد وعندها يعلن الناس سأمهم. لو قدم فيلم (ماتريكس) اليوم لبدا لمن رأى أفاتار تافهًا بدائيًا. إن المشاهد يتحول بالتدريج إلى طفل مدلل رأى كل شيء ولا يمكن إبهاره أبدًا. بشكل خاص انبهرت بمشهد الليلة الأولى للبطل على الكوكب عندما هاجمته الوحوش، وعندما اكتشف أن كل النباتات تضيء ليلاً، وركوب ذلك الديناصور المجنح في السماء، والغارة الجوية الضخمة الأخيرة، كما أن الاتصال بكل الكائنات عن طريق الضفيرة العصبية التي تخرج من الرءوس كان ساحرًا.

الخلاصة بعد كل هذا الكلام المتضارب: الفيلم تجربة بصرية بالغة الثراء. لو كنت تنوي مثلي الاكتفاء بهذا والاستمتاع برحلة في صاروخ الملاهي تنقلك إلى كوكب آخر كل شيء فيه غريب،

فـلا تـتردد لحظـة.. الفيلـم قـد صنـع مـن أجلـك. أمـا لـو كنـت مـن هـواة القصـص المحبوكـة ومـن سرق المسـتند مِـن مَـن، ومـن يخـبئ الميكروفيلـم في ضرسـه، فالفيلـم لا يناسـبك ومـن الأفضـل أن تحتفـظ بالخمسـة والأربعـين جنيهًـا الحبيبـة في جيبـك لأنهـا لـن تعـود للأبـد.

فالس مع البشير: صبرا وشاتيلا بعيون إسرائيلية

من الفرص النادرة أن تتاح لك مشاهدة فيلم إسرائيلي لتعرف كيف يفكر هؤلاء القوم، والأغرب أن يكون عن مذبحة (صبرا وشاتيلا) بالذات. قرأت عن فيلم (فالس مع البشير) من قبل فلم أوله اهتمامًا واعتبرته نوعًا من احتفال إسرائيل الدائم بذاتها، مع الحماس الغربي المعهود لكل ما هو إسرائيلي. لكن أتيحت لي مشاهدته مؤخرًا فأصابتني الدهشة من نضج الفكرة وجودة التنفيذ وجرعة الفن العالية، لدرجة أنني شعرت بالذنب لأنني أعجبت لهذا الحد بفيلم صنعه أعداؤنا. وإن خفف من هذا الشعور إدراكي أنني أشاهد نسخة غير قانونية (بالعربي: مهبوشة) أي أنني لم أسهم في تمويل صناع الفيلم بمليم!.

الفيلم الذي عرض عام ٢٠٠٨ تسجيلي، لكنه يحمل الكثير من التدخل الروائي الذي يرقى به لدرجة الشعر، وقد أخرجه المخرج (آري فولمان) بطريقة الرسوم المتحركة واستغرق العمل فيه أربع سنوات. التحريك خشن نوعًا لكنه فعال، وهي الطريقة القديمة: إن لم تستطع منافسة ديزني – وهذا مستحيل- فكن نفسك. من شاهدوا فيلم (الغواصة الصفراء) للبيتلز سوف يلاحظون تشابهًا شديدًا في الأسلوب. طريقة الرسم تذكرك بالأفلام التي تعتمد على تحويل صور أشخاص حقيقيين إلى رسوم، وهي الطريقة التي تدعى (روتوسكوب Rotoscope)، لكن صناع الفيلم لم يفعلوا ذلك بل ابتكروا طريقة تحريك خاصة بهم على الكمبيوتر.

عرض الفيلم في مهرجان كان الفرنسي مرشحًا للسعفة الذهبية،

ولـم ينلهـا لكنـه نـال حشـدًا مـن الجوائـز في مهرجانـات عـدة وأرى أنـه يسـتحقها، كمـا نـال جائـزة الكـرة الذهبيـة كأول فيلـم تسـجيلي ينالهـا في التاريـخ. كمـا رشـح للأوسـكار في قائمـة التحريـك لكنـه لـم ينـل الجائـزة.

كل الفيلـم يحمـل لمسـة لونيـة وصوتيـة قاتمـة كابوسـية تجثـم عـلى الأنفـاس وتشـعرك بالحـزن والاختنـاق. يبـدأ الفيلـم بصديـق للمخـرج – يظهـر بشـخصيته المرسـومة - كان جنديًـا معـه عـام ١٩٨٢ في لبنـان، واليـوم يأتيـه ليشـكو مـن كابـوس غريـب.. هنـاك سـتة وعـشرون كلبًـا تطـارده في شـوارع المدينـة عازمـة عـلى تمزيقـه.. لمـاذا سـتة وعـشرون وليـس ثلاثـين مثـلاً يـا أخـي؟.. يقـول صديقـه الجنـدي إن السـبب هـو أنـه قتـل فعـلاً ٢٦ كلبًـا في الحـرب.. كان عاجـزًا عـن قتـل البـشر لـذا كلفـوه بقتـل كلاب القـرى الـتي تنبـح فتنبـه الفلسـطينيين بعوائهـا.

هنـا يفطـن (فولمـان) إلى أن لديـه كابوسـه الخـاص.. إنـه عـار تمامًـا مـع مجموعـة مـن الجنـود الإسرائيليـين العـراة يسـبحون في الظـلام في البحـر ويخرجـون أمـام سـاحل بـيروت بفنادقـه الفاخـرة.. الأدهـى أنـه لا يذكـر حرفًـا عـن تلـك الحـرب ولا مـا جـرى في صـبرا وشـاتيلا.. لقـد مُحـي هـذا الجـزء مـن ذاكرتـه تمامًـا، لـذا يقـرر أن يقـوم برحلـة للبحـث عـن ذاكرتـه الضائعـة بـين زمـلاء الحـرب.

يقـوم ببـطء بجمـع أجـزاء الصـورة الشـنيعة مـن ذكريـات أصدقائـه، والبحـث عـن الخيـط يسـتدعي السـفر لهولنـدا للقـاء صديـق قديـم صنـع ثـروة مـن بيـع الفلافـل هنـاك، أو لقـاء طبيبـة نفسـية تحدثـه عـن فقـدان الذاكـرة المحـدود، وكيـف أن كثـيرًا مـن الجنـود ينجـون بأنفسـهم مـن الجنـون عـن طريـق تخيـل أن مـا يرونـه لقطـات فوتوغرافيـة غـير حقيقيـة..

إنهـم هناك..مجموعـة مـن الجنـود المراهقـين يدخلـون أرضًـا معاديـة وهـم يغنـون: ليفانـون بوكرتـوف (صبـاح الخـير يـا لبنـان) في إشـارة واضحـة لحـرب أمريـكا في فيتنـام، ثـم يصـيرون مذعوريـن لدرجـة انفـلات أعصـاب كامـل، حـتى أنهـم يعيشـون داخـل الدبابـة ويطلقـون الرصـاص بغـزارة في كل الاتجاهـات طيلـة الليـل، ويسـأله زميلـه وهـو يطلـق الرصـاص:

ـ «على من نضرب؟».

فيرد:

ـ «لا أعرف.. أطلق الرصاص وكفى..».

ـ «أليس من الأفضل أن نصلي؟».

ـ «صل بسرعة ثم أطلق الرصاص!».

يمطـرون سـيارة مرسـيدس بطلقاتهـم حـتى تتحـول لمصفـاة، ثـم يكتشـفون أنـه لـم يكـن فيهـا سـوى أسرة كاملـة. دبابـة صديقـه تنفجـر وزمـلاؤه يموتـون بينمـا يتـوارى صديقـه مذعـورًا خلـف صخـرة.. ويراقـب الفلسـطينيين بينمـا أحدهـم يتبـول فـوق جثـة إسرائيـلي ملقـاة عـلى الرمـال.. هـذا أول فلسـطيني يقدمـه الفيلـم لنـا. ويفـر ذلـك الجنـدي ليسـبح ليلـة كاملـة في البحـر المظلـم الهائـج إلى أن يبلـغ زمـلاءه.

هنـاك مشـهد للجنـود يمشـون في شـارع في بـيروت حيـث يظفـر بهـم مجموعـة مـن القناصـة الفلسـطينيين. واضـح أن حـرب لبنـان الأولى لـم تكـن نزهـة لهـم كمـا نعتقـد.. وسـط الطلقـات المنهمـرة يحمـل أحـد الإسرائيليـين المترليـوز أو الـ MAG ويطلـق الرصـاص في جنـون وشـبه انتشـاء وهـو يتلـوى، بينمـا صـور الرئيـس اللبنـاني بشـير الجميـل تمـلأ الخلفيـة، ويـدوي لحـن فالـس يوحـي لـك بأنـه يرقـص.. هـذا هـو مصـدر عنـوان الفيلـم، وبالطبـع هنـا خيـط

واضح من الفيلم الرائع (يرقص مع الذئاب).

ضائعون.. مذعورون.. فاقدو الهدف.. هكذا يقدم الفيلم الجنود الإسرائيليين، أكثر ما يسعدهم قضاء ليلة في قصر لبناني فاخر تركه سكانه، وقائدهم يقضي الليل في مشاهدة فيلم بورنو فاضح على الفيديو وهو لا يصدر أمرًا سوى: «أسرع بتقديم الشريط.. أسرع بتقديم الشريط». ونعرف أن حبيبة المخرج تخلت عنه ليلة ذهابه للجبهة لذا ظل يتمنى أن يموت في الحرب كي يسبب لها عقدة ذنب دائمة!.

يصل الفيلم للمأساة.. لقد تم اغتيال بشير الجميل، وهو بالنسبة لحزب الكتائب شخص أسطوري.. رمز.. يقول صديق المخرج: «لقد كانوا يحبونه لدرجة التقديس... لا.. بل لدرجة الاشتهاء الجنسي!».. مات الجميل وقرر رجال الكتائب الانتقام من الفلسطينيين المتهم الأول باغتيال الرجل. هكذا يرينا الفيلم التواطؤ التام بين رجال الميليشيات المسلحين بقيادة السفاح (إيلي حبيقة)، وهم يدخلون المعسكر تحت حراسة إسرائيلية كاملة.. كل إسرائيلي يعرف تمامًا ما سيحدث، لكنهم يجلسون على الدبابات يراقبون ويطلقون طلقات مضيئة طيلة الليل لتكشف كل ركن في المعسكر. فقط من حين لآخر يتصلون بشارون ليخبروه أن مذبحة نازية تدور أمامهم، فيكرر وهو يلتهم طبقًا مليئًا بالبيض المقلي واللحم: «لقد أبلغتموني.. شكرًا».. ويضع السماعة.

يراقبون أسرة كاملة تقف ووجهها للجدار بينما مسلحان يفرغان الرصاص في أفرادها. يرون مسلحًا يقتاد عجوزًا إلى بيت ثم يسمعون طلقات ويخرج المسلح.. يسألونه عما يحدث فيشرح لهم بالإشارة أنه أفرغ رصاصتين في رأس العجوز لأنه رفض

أن يسجد أمامه. يراقبه الجنود في لا مبالاة مع لمسة اشمئزاز بسيطة. السيارات تنقل الأسر الفلسطينية للاستاد ثم تعود خالية.. لا يحتاج المرء لذكاء كبير كي يعرف ما جرى لحمولة هذه السيارات.. ويتذكر المخرج نفسه في سن التاسعة عشرة وهو يعبئ القنابل المضيئة طول الليلة لينير للسفاحين أرض مذبحتهم..

استمرت المذبحة حتى الصباح، وفي النهاية جاء قائد إسرائيلي ملول ليطلب من الكتائب الرحيل بمكبر الصوت.. هكذا ينتهي كل شيء.. كل هذا كان يمكن أن يتوقف بعبارة واحدة تقال في مكبر صوت!. يقرر (فولمان) أن يدخل المعسكر ليرى الهول الذي صنعوه..

الجثث مكومة في كل مكان.. ارتفاعها يصل لكتفي الرجل الواقف.. جثث أطفال ونساء وشيوخ.. الرائحة لا توصف.. الذباب....

ثم نرى لقطات تسجيلية حقيقية التقطها الفرنسيون للنساء الصارخات المولولات يبحثن عن الزوج / الأخ / الابن / الأب وسط الجثث، مع العبارة الشهيرة: «وين العرب؟.. وين؟».

وتظلم الشاشة ثم تتصاعد التترات.. إنه ليس كابوسًا نصحو منه ونتنهد بل هو الحقيقة المرعبة. لقد عرف فولمان لماذا فقد الذاكرة طيلة تلك السنوات. إنه اعتراف كامل بالصوت والصورة يقدمه للعالم، لعله يتخلص من ذلك الكابوس الذي لم يفارقه طيلة عشرين عامًا. أنت شجاع وموهوب يا فولمان لكن هذا لن يعيد لأطفال صبرا وشاتيلا - ومعهم ثلاثة آلاف شهيد - حياتهم.. لهذا لن نغفر لقومك أبدًا.

قرص مهدئ قبل المشاهدة*..

يمكنك أن تكره الولايات المتحدة لكن ليس بوسعك تجاهلها. تذكرت هذه الجملة التي قالها ناشر أمريكي كبير لمحمد حسنين هيكل وأنا سهران في تلك الليلة السوداء أنتظر أن يبدأ حفل الأوسكار، وسط زحام الإعلانات ومجموعة من الشباب التقت بهم القناة في مول مصري ما، يصرخون في الكاميرا: أوووووه أوسكار!.. هكذا كل ثلاث دقائق كأن هذا أظرف شيء في العالم..

في الثانية صباحًا – ولما يبدأ شيء بعد - سألت نفسي بصراحة: ما جدوى هذا التعذيب؟.. لا أتوقع سوى نفس اللقطات والدموع المفتعلة والتظاهر بالتأثر والـ (ووه) والـ (واو).. وذات مجموعة الأوغاد النرجسيين التي أراها منذ كنت في الكلية. لكن المناسبة كانت أقوى مني.. أريد أن أعرف هل نال العبقري الراحل (هيث لدجر) جائزة الأوسكار عن أدائه المذهل في (الفارس الأسود)؟.. وماذا عن أبطال (سلام دوج مليونير)؟.. كم جائزة سوف يحصدها الفيلم الجميل الممل قليلاً (الحالة الغريبة لبنجامين باتونز)؟.. أقنعت نفسي أنني يجب أن أعرف...

برغم هذا، يعد الأوسكار درسًا محكمًا في الافتعال والتصنع وعدم التلقائية.. كل شيء مرسوم ومحدد مسبقًا، وقد راهنت مجلة (إمباير) البريطانية المفروسة مثلنا قراءها على تكرار هذه المشاهد في كل حفل أوسكار:

---

*حفل أوسكار العام ٢٠٠٩

١- يُذكـر اسـم ممثـل بريطـاني فيصيـح أحدهـم في مـرح: البريطانيـون قادمـون!

٢- تثبت الكاميرا عـلى وجـه جـاك نيكلسـون وهـو بالنظارة السـوداء يضحـك ضحكتـه المفتعلـة الـتي تكـشر عـن أسـنانه كلها.

٣- يطيل أحد الفائزين كلمته فتبدأ الموسيقا لتخرسه.

٤- ينتهـز أحـد الفائزيـن الفرصـة ليلقـي خطبـة سياسـية مـا ليـس الوقـت وقتهـا.

أذكـر أوسـكار عـام ١٩٩٣ الـذي قـدم في يـوم حزيـن لأمريـكا؛ لأن التلفزيـون العـراقي عـرض يومهـا صـورًا لجثـث قتـلى أمريكيـين وعرض لقـاءات مـع الأسرى. هنـا ظهـر عـلى المـسرح ذلـك الممثـل (ادريـان بـرودي) الـذي يحمـل وجـه حصـان، وألقـى بعينـين دامعتـين كلمـة عـن السـلام، وطلـب مـن (هـؤلاء القـوم) المتوحشـين في العـراق أن يكفـوا عـن العنـف.. صفـق النـاس ولـم يسـأل أحـد: مـن هاجـم مـن؟.. ومـن قطـع نصـف الكـرة الأرضيـة ليحتـل بلـد مـن؟.. هـل كان العراقيـون سيأسرون جنودكـم لـو ظلـوا في الولايـات المتحـدة؟. ريتشـارد جـير كذلـك ألقـى خطبـة عصمـاء عـن احتـلال الصـين للتبـت وطـرد الـدلاي لامـا.. السـبب طبعًـا هـو أنـه بـوذي.

عندمـا فـاز الممثـل الإيطـالي (بانيـني) عـن فيلـم (الحيـاة جميلـة)، تذكـر أنـه ممثـل كوميـدي ويجـب أن يكـون ظريفًـا، لـذا راح يتواثـب كالقـرد فـوق المقاعـد إلى أن بلـغ المنصـة فقبـل صوفيـا لوريـن وكلمهـا بالإيطاليـة. كل هـذا جميـل.. لكـن مجلـة إمبايـر تذكـرت أنـه فعـل ذات الـشيء حرفيًـا وكـرر ذات المشـاهد مـن قبـل في مهرجـان كان. كل هـذا الانفعـال تمثيـل تـدرب عليـه مـرارًا.

أمـا عـن الفـوز فقـد قالـت مجلـة فرنسـية شـهيرة إن جائـزة أفضـل ممثـل مضمونـة لـو كنـت تقـوم بـدور تاريخـي أو دور مدمـن

مخـدرات في صراع مـع إدمانـه، وجائـزة أفضـل ممثلـة مضمونـة لـو كنـت تقومـين بـدور عاهـرة لهـا قلـب مـن ذهـب!. هنـاك قواعـد عديـدة.. مثـلاً أوسـكار المؤثـرات الخاصـة محجـوز للملتحـين.. جائـزة أفضـل فيلـم مضمونـة لـكل مـن يصـف عـذاب طفـل يهـودي في معسـكرات النازيـين.

أمـا عـن الضحـكات فحـدث بـلا حـرج.. تـرى تلـك الممثلـة شـاردة الذهـن بوجههـا القـاسي الشريـر (يطـق الـشرر مـن عينهـا كأنهـا الشـيطان) وفجـأة تشـعر بحاسـتها بـأن الكاميرا عـلى وجههـا، فتتسـع ضحكتهـا كاشـفة عـن صفـين مـن الـلآلئ في ضحكـة مفتعلـة باهـرة.. هـذه هـي أمريـكا فعـلاً..

أشـعر كلمـا شـاهدت احتفـالات الأوسـكار أنهـا نـوع مـن فـرض نمـط الحيـاة الأمريـكي عـلى العالـم. هكـذا يمـرح أسـيادكم أيهـا البؤسـاء.. هـا هـو ذا عبـاس وحسـين وسـنتريسي يهللـون فرحًـا لأن (أنجلينـا جـولي) ظهـرت.. ثـم يتسـاءلون عـن سـبب عـدم ظهورهـا مـع بـراد بيـت. يـا تـرى يـا هـل تـرى؟.. هـل بـدأت بـذور الشـقاق بـين الزوجـين؟.. يبـدو أن البنـت جنيفـر أنسـتون سرهـا باتـع فعـلاً..

هكـذا تفـرض أمريـكا أولوياتهـا عـلى العالـم، وهـي تعـرف في فخـر أن مواعيدهـا الشـيطانية لا تناسـب أيًـا مـن شـعوب الأرض لهـذا جلـس الـكل في أوروبـا وأفريقيـا سـاهرين. تذكـرت كذلـك زعماءهـم عندمـا يـزورون المنطقـة العربيـة فيضبطـون موعـد الزيـارة عـلى أنسـب وقـت مشـاهدة لـدى المواطـن الأمريـكي، ولهـذا مثـلاً قـد يزورنـا مسـئول أمريـكي كبـير في الثانيـة بعـد منتصـف الليـل، كمـا أرغـم الملـك حسـين رحمـه الله عـلى لقـاء الرئيـس الأمريـكي عـصرًا في الصحـراء تحـت القيـظ؛ لأن الرئيـس الأمريـكي أراد أن يـرى المواطـن الأمريـكي هـذه المشـاهد قبـل ذهابـه للعمـل.

الحفل لم يبدأ بعد.. وكما يقول المترجمون عندنا: (ارتدى الرجال الفراك وكشفت النسوة عن نحورهن).. إنهم يقومون بعرض أزياء على البساط الأحمر.. ربنا ياخدهم جميعًا.. تعالوا نتكلم عن جائزة الأوسكار نفسها. الأمر سهل في وجود الإنترنت حيث كل شيء متاح. لكني سأرجع للكتاب الجميل (جوائز الأوسكار) لمحمود عبد الرحمن الزواوي (كتاب الهلال – ٤٥٣) الذي كان يساوي ثقله ذهبًا في ذلك الوقت من عام ١٩٨٨، حيث كان من المستحيل أن تجد كل هذه المعلومات في مكان واحد.

جائزة الأوسكار ليست الأكثر دلالة على قيمة العمل الفني، لكنها الأشهر والأكثر إبهارًا. طبعًا الفوز بالأوسكار يترجم إلى ارتفاع فلكي في إيرادات الفيلم وأجور ممثليه. عندما فاز (طار فوق عش المجانين) بالجائزة عام ١٩٧٥ وثبت إيراداته ٥٠ مليون دولار مرة واحدة.. هناك ٣٢ منظمة أمريكية تقدم جوائز للأعمال السينمائية لكن القليل منها جدًا ينقل على شاشات التلفزة. ولدت الفكرة عام ١٩٢٧ مع تأسيس الأكاديمية الأمريكية لفنون وعلوم السينما – ومقرها بيفرلي هيلز بلوس أنجيليس - فأقيم أول حفل أوسكار عام ١٩٢٩. لم يبدأ التلفزيون تغطية الحفل إلا عام ١٩٥٣. عندما ولدت فكرة تقديم جائزة للأعمال الفائزة، تم اقتراح ١٢ جائزة، وطلب من شركات الانتاج تزويدها بقوائم عن أفلام العام. تتم عملية الاقتراع السري بطقوس شبه بيزنطية، ولا يشارك الجميع في التصويت إلا في قائمة أفضل فيلم، فيما عدا هذا يصوت كل في مجال تخصصه. مجلس الإدارة الذي يصوت عدده ستة وثلاثون عضوًا. ثم ترسل الأصوات لمؤسسة محاسبة محايدة هي (برايس ووتر هاوس) التي تتولى العد. هناك اتهامات عديدة بالتلاعب في الأصوات، أغلبها وجه للويس ماير – بتاع شركة مترو جولدن ماير- مؤسس الأكاديمية. وهو

السبب في عدم فوز جريتا جاربو بالجائزة أربع مرات، وهذا لصالح الممثلة نورما شيرر زوجة مدير الإنتاج في شركته.

أما عن التمثال نفسه فهو خليط من النحاس والقصدير ومطلي بالذهب. فارس يقف بسيفه فوق بكرة فيلم تمثل الفروع الخمسة للأكاديمية (تمثيل - كتابة - إخراج - إنتاج - تقنية). وهو من تصميم (سيدريك جونز) ونحته المثال (جورج ستانلي). شركة دودج تروفي تصنع ٦٠ تمثالاً كل سنة ثمن التمثال الواحد ٢٠٠ دولار، وبعد ما يوزع على الفائزين يجمع منهم ثانية لنقش الاسم على قاعدته.. أما عن اسم أوسكار نفسه فلم تضعه الأكاديمية، والرواية الأرجح هي أن أمينة مكتبة الأكاديمية صاحت عندما رأت التمثال أنه يذكرها بعمها أوسكار.. هكذا شاع هذا الاسم.

الكتاب ممتع وبه معلومات مثيرة مما يغريني بأن أعرضه عليك في مقال آخر، لكن حتى ذلك الحين اسمح لي بأن أتابع هذا الحفل الكريه المستفز، فأنا غير قادر على تركه!

ملحوظة مهمة جدًا: كتبت السطور السابقة قبل ظهور (أنجلينا جولي) مع (براد بيت) فعلا.. واضح أنهما سعيدان كذلك.. الحمد لله.. كدت أموت قلقًا..!

اعترافات

كنت في سيارة أحد أصدقائي، عندما قال لي وهو يدس قرصًا مدمجًا في مشغل الأقراص:

ـ «اسمع هذا..».

ومن السماعات تعالى صوت (أبو الليف) - الذي لم أكن أعرف أنه كذلك - يقول: «دولا مجانين..».. الخ.. ظللت أصغي بعض الوقت فلم يبد لي رديئًا.. اللحن رشيق والكلمات ساحرة وذكية فعلاً. لم أكن أعرف وقتها أنها من تأليف شاعر موهوب مثل (أيمن بهجت قمر). ليس عملاً سيمفونيًا عظيم القيمة، وبالتأكيد لا يهدد عرش عبد الحليم حافظ أو حتى تامر حسني، لكن في النهاية تنطبق عليه كلمات (هاني شاكر) عن (عدوية): «ليس مطربًا بالضبط.. إنه مونولوجست من نوع خاص جدًا». هاني شاكر مثقف وكلماته محسوبة بالجرام، وقد ظللت أذكر هذا التعبير على مدى ثلاثين عامًا.

بعد هذا بدأت حملة لطم الخدود التقليدية.. لقد بدأ زمن أبي الليف بعد زمن شعبان عبد الرحيم.. هاوية أخرى تسقط فيها الطبقة الوسطى التي قررت أن تدخن البانجو وتتمرغ في الطين. الطبقة الوسطى تعاقب نفسها على ما صارت إليه بمزيد من الابتذال؛ لذا راحت ترحب بأبي الليف وسواه، مثل الفتاة التي فقدت شرفها فراحت تدهن وجهها بالوحل. بصراحة لم أر الأمر بهذا السوء ولا هذه الرداءة، بل إنني كذلك وجدت أن هذه الكلمات الرشيقة الذكية قد تضيف شيئًا لآذان الشباب. على الأقل هي أقل خطرًا من (بوس الواوا) و(الصراحة راحة وانت ما

بتعرفش).. حيث التلميحات الجنسية هي اسم اللعبة ولا شيء سواها. لكني لم أجرؤ قط على الإعلان عن هذا.. المجتمع يحتم أن تكون مصدومًا مشمئزًا وإلا فأنت لست كما ظننا بك.

من ضمن الأشياء التي لم أجسر قط على الاعتراف بها أن الفنان (سمير غانم) قادر على أن يضحكني في أي وقت بمجرد أن يبدي بعض الاشمئناط أو يرفع حاجب السخرية إياه. قديمًا قال الساخر محمود السعدني إن سمير غانم يفتقر إلى العمق الإنساني، وإن زميله جورج سيدهم هو الممثل الكوميدي الذي يحاول إضحاك طفل فإذا فشل جلس يبكي جواره، بينما سمير غانم يحاول إضحاك الطفل فإذا فشل هز كتفيه وانصرف. هذا صحيح إلى حد كبير، ولا أعتقد أن الرجل وجد نصًا واحدًا جيدًا في حياته، لكنه برغم هذا يملك قدرة هائلة على الإضحاك.. إضحاكي أنا على الأقل.. الرجل ظريف وكفى..

أما الاعتراف الأشد إذلالاً للمرء، فهو أنني أحب اللمبي. لا أعني الفنان محمد سعد على إطلاقه، ولا أطيق أيًا من سلسلة أفلامه التي تلوى فيها وعوى وشد شعره وتحول لمئة شخصية كي يضحكنا فلم ينجح (كقاعدة: يتناسب ظرف الفنان عكسيًا مع الجهد الذي يبذله للإضحاك). أنت تحتاج إلى الكثير جدًا من الكولا كي تبتلع كركر أو كتكوت أو بوحة أو كل هذا الهراء الذي قضى على الممثل الموهوب قضاءً شبه مبرم. لكني هنا أتحدث عن اللمبي.. شخصية الشاب المقيم في العشوائيات والذي لم يجد طريقة واحدة شريفة لكسب الرزق، والذي يبدو أن العالم كله قد خرج للظفر به، فغاب في مستنقع المخدرات. كان هناك لمبي حقيقي في أعماق كاتب السيناريو والحوار، وكان هناك لمبي حقيقي في أعماق محمد سعد سمحا له بالخروج، فدبت فيه

الحيـاة. صـار هـو ذلـك الشـاب الـذي تـراه في كل مـكان. تذكـرت كلمـات د. وليـد سـيف الرائعـة (سلسـلة آفـاق السـينما - ٢٩) إذ قـال: «اللمبي موجـود فعـلاً يـا سـادة... إنكـم ترونـه لكـن تشـيحون بوجوهكـم كي لا تـروه.. أنتـم تغلقـون زجـاج نوافـذ سـياراتكم عندمـا يقبـل نحوكـم ليبيـع الفـل.. تتركـون خدمكـم يتعاملـون معـه عندمـا يعـرض بضاعتـه في حقيبـة يجـول بهـا في عـز الحـر.. اللمـبي في كل مـكان.. يمكـن رسـم خريطـة وجـوده عـلى العاصمـة لنجـد أنـه يمثـل نسـبة كـبرى مـن شـباب العشـوائيات. اللمبي يلقـي بعقـب سـيجارته في وجوهكـم سـاخرًا مـن مشـاريعكم العملاقـة وفنونكـم الـتي لا يفهمهـا..... مشـكلة اللمـبي انـه لـم يكـذب بمـا يكفـي.. ولـم يكـن مبتـذلاً بمـا يكفـي. لا ينكـر أحـد أن أفـلام الموجـة الجديـدة لا تلجـأ لمـا عرفنـاه مـن قبـل مـن عـري فاضـح وقبـلات سـاخنة محشـورة وحـوار مـليء بالتلميحـات الجنسـية. إن اللمبيـين قادمـون شـئنا أم أبينـا». هنـاك كلمـات مماثلـة كتبتهـا الأسـتاذة صافينـاز كاظـم. كانـت شـخصية اللمـبي حقيقيـة جـدًا متقنـة جـدًا ابتلعـت محمـد سـعد نفسـه، كمـا كادت شـخصية بونـد تبتلـع شـون كونـري، وكادت شـخصية دراكيـولا تبتلـع كرسـتوفر لي؛ لهـذا فشـل محمـد سـعد تمامًـا عندمـا ابتعـد عنهـا لأنـه لـم يشـعر بالشـخصيات الأخـرى بنفـس القـدر، وأعتقـد أنـه سيكتشـف مـع الوقـت أنهـا لابـد أن تعـود للحيـاة؛ لأنـه - للأسـف - لـم يعـد لـه وجـود مـن دونهـا.

هنـاك عـشرات مـن الاعترافـات المماثلـة عـن أشـياء لا ينبغـي أن أحبهـا..

عـلى الجانـب الآخـر هنـاك أمـور يجـب أن أعـترف أنـني لم أسـتطع أن أحبهـا قـط. مثـلاً أغنيـة (مـن غـير ليـه) آخـر أغنيـات الراحـل العظيـم عبـد الوهـاب. في فـترة مـن الفـترات صـارت هـذه الأغنيـة

خاتمًا للمثقف، وكتب مفيد فوزي مرة قائلاً: «حان الوقت لننظف آذاننا مع من غير ليه». وكتب مرة أخرى: «تصوروا أن البعض لا يحب أغنية من غير ليه؟؟؟؟؟!!!». مع مئة علامة استفهام وتعجب. مع هذا القمع الفني لا يمكنك أن تقول إنك ترى الأغنية مفتعلة وسخيفة. هناك افتعال لحيرة ميتافيزيقية لا داعي لها (جايين الدنيا ما نعرف ليه) وهناك تحذلق في التوزيع.. طبعًا هي أرق من (أبو الليف) لكنك تعطي الأخير مزية التلقائية.

هناك ذلك الاعتراف المروع الذي قدمه (عادل حموده) في التسعينات، عندما اعترف أمام الكاميرا أنه لا يحب أم كلثوم فقامت الدنيا ولم تقعد. قال إننا نتمسك بقواعد مقدسة لا نتنازل عنها، وإن المذيعة تقابل سائق سيارة فتسأله عمن يفضل في الغناء.. تكون الإجابة المحفوظة هي: «طبعًا الست»، بينما في جهاز كاسيت السيارة يوجد شريط لعدوية. هكذا يصل بنا الأمر إلى أننا لا نعرف غالبًا ما نحبه حقًا.

الفنانة فردوس عبد الحميد ممثلة قديرة بلا شك، لكني لم أستطع قط ابتلاع الطريقة التي يظهرونها بها في المسلسلات كجان دارك.. قيمة غير بشرية تطل على الخطاة وتصدر أحكامها، تواجه الكاميرا بعينين ثابتتين ولا تكف عن إلقاء القيم والمواعظ طيلة الوقت. لو كنت تذكر مسلسلات (صيام صيام) أو (أنا وانت وبابا) فأنت تعرف ما أعنيه. دعك من أن صوتها الغنائي سيئ في رأيي الخاص. بينما كانت فعلاً في أفضل حالاتها في دور بسيط مثل (نفيسة) الوريثة المثقفة الساذجة التي لا تعرف شيئًا عن العالم.. هكذا عرفناها على الشاشة أول مرة. لكنك لا تجسر على الاعتراف بهذا لأن المثقفين ينظرون لك في ذهول..

هـل حقًـا تجـرؤ عـلى ألا تحبهـا؟..

لقـد انتهيـت مـن هـذه الاعترافـات المروعـة وغيرهـا كثـير.. أعـرف أنـك قـد صدمتـك وأنـني دخلـت قائمتـك السـوداء، لكـن المـرء لا يسـتطيع أن يسـتمر في الادعـاء وهـو في هـذه السـن. لي صديـق يدنـو مـن الخمسـين اكتشـف فجـأة أنـه يعشـق مونولوجـات إسـماعيل يـس، ويحتفـظ بعـدد هائـل منهـا كأنهـا سـيمفونيات.. صارحتـه بـرأيي في هـذا السـلوك المعيـب، فقال:هنـاك لحظـة يجـب عـلى المـرء فيهـا أن يـترك نفسـه تحـب وتكـره مـا تريـد، حـتى لـو كان سـبيله لهـذا أن يعلـن عـن إعجابـه بـأبي الليـف!

مثل الجذمور بالضبط

ما هو الأدب؟

كنت أعتبره نشاطًا بشريًا يبعث النشوة والصفاء في النفس ويزيد من فهمك للكون وتذوقك للجمال، وهذا النشاط مغروس في الفطرة البشرية، وإلا فلماذا يحتشد بدائيو أستراليا أو رجال قبيلة الكيكويو حول الراوي ليلاً ليصغوا بعيون متسعة إلى قصصه الساحرة؟.. لماذا التف العرب حول أصحاب المعلقات في سوق عكاظ، ولماذا أنشد الفلاح البريطاني الساذج المصاب بالتيفوس تلك البالادات؟. ثمة حاجة لدى البشر تفوق المأكل والمشرب والجنس هي الحاجة إلى الفنون الجميلة، وإشباع حاجات المأكل والمشرب والجنس لا يكفي لوأد هذه الحاجة.

كنت أحسب هذا الأمر بديهيًا لكن الأمور تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم، بحيث لم أعد أعرف بالفعل ما هو الأدب.

***

جلست ليلاً أكتب بعض الشعر المنثور، فكتبت هذه الكلمات:

حزين أنا متفرد في كآبتي واغترابي

قصدت الليل أسأله عن لغز الدمع إذ يتجمد في الأحداق

قال الليل: الدمع طلسم مقدس..

لا تسل دموعي التي أذرفها مع الندى في الصباح..

فلتسأل الأيك..

ذهبت إلى الأيك أسأله عن ضريح الهمسات

فقال الأيك: أنا مغرم بعشق عمره مليون عام..

فلتقصد الشلال تسأله فهو بالعشاق أعلم..

ذهبت إلى الشلال أسأله عن مثوى قصص الحب الصريعة بنصال النهار..

قال لي : وقعت في غرام جدول.. ذبت فيه وذاب في..

فلتسأل العاصفة..

ذهبت للعاصفة.....الخ...

راق لي ما كتبت جدًا.. يبدو لي كأنه تلك القصيدة التي لم يكتبها طاغور. جو كوني رقيق يبدو أعمق مما هو فعلاً. نمت راضيًا عن نفسي، على أن استكمل القصيدة غدًا، ثم صحوت في الصباح وأعدت قراءة القصيدة...

ما هذا الهباب؟... هذه لعبة سهلة جدًا مكشوفة جدًا وقريبة من الأسطورة الصينية الشهيرة: ذهب للبحر وقال له هل أنت أقوى؟ فقال بل الريح أقوى لأنها تعبث بي.. ذهب للريح وسألها هل أنت أقوى؟؟.. قالت بل الإنسان أقوى لأنه يحتويني في رئتيه... الخ..

بل هي كذلك تذكرك بقصة الأطفال الممتعة التي حكتها لنا أبلة منيرة في مدرسة الإصلاح الابتدائية، عن الفأر الذي قطع القط ذيله.. القط يريد لبنًا ليعيد الذيل. اللبن عند البقرة.. البقرة تريد برسيمًا.. البرسيم عند الفلاح.. الفلاح يريد خبزًا.... الخ..

لعبة سهلة جدًا ويمكن أن أكتب لك مائة سطر من هذا الهراء.. ربما لو كنت مدمنًا للحشيش وحصلت على تموين كاف

منـه لكتبـت مائـتي سـطر..

إن الأدب فـن شـديد التعقيـد والمراوغـة بالفعـل.. مـن السـهل أن تخـدع المتلقـي ليعتقـد أنـك أعمـق ممـا تبـدو عليـه، ولعـل الفـن الوحيـد الـذي أفلـت مـن هـذه الدائـرة هـو الموسـيقا.. فقـط في الموسـيقا ينكشـف ضحـل الموهبـة عـلى الفـور. الرسـم؟.. بالطبـع لا.. تذكـر أن لوحـات فـاروق حسـني تبـاع بالملايـين وهـي عبـارة عـن لطـخ مـن اللـون الأصفـر جـوار الأحمـر والأزرق، حـتى قيـل إنـه صـار وزيـرًا كي يكتشـف النـاس كـم أن لوحاتـه رائعـة..

***

أمـا عـن الأدب الأنثـوي فقضيـة أخـرى ليـس هنـا مجـال الثرثـرة فيهـا. الأدب جيـد ورديء ولا أعـرف طريقـة أخـرى للتقسـيم. لكـن المـرأة ابتكـرت الأدب الأنثـوي وهـو تلـك الكارثـة الـتي تتوقـف في حلقـك كلمـا قـرأت لكاتبـة أنـثى. الكاتبـات الـلاتي نسـين أنهـن إنـاث وكتـبن أدبًـا إنسـانيًا خالصًـا فتـح الله عليهـن، واقتربـن مـن القمـة.. اقـرأ لرضـوى عاشـور أو إيزابيـل اللنـدي أو حـتى ج. ك. راولنـج وسـتيفاني مايـرز ولسـوف تتقطـع أنفاسـك انبهـارًا. لكـن كثـيرات ظللـن في ذلـك الخنـدق العميـق : كراهيـة الرجـل.. الفكـر الذكـري المسـيطر عـلى التاريـخ وربمـا الديـن.. التمـرد عـلى القبيلـة.. عـار الأنوثـة.... الـخ..

بصراحـة هـذا الجـو قـد بـلي تمامًـا منـذ السـتينات عندمـا كانـت فرنسـواز سـاجان هـي قشـدة الطبـق، ومـع الوقـت صـار خـارج الزمـن والواقـع وعليهـن أن يبحـثن عـن صيغـة جديـدة.

وتتأمـل عناويـن رواياتهـن أو دواوينهـن فتجـد في كل سـطر لفظـة

الجسد.. جسدي.. أجساد.. مش معقول!.. لو فكرت بشيء من الهدوء لأدركت أنهن لا يفكرن سوى في الجنس ولا ينوين الخروج من خندقه اللزج، برغم أنهن لا يكففن عن اتهام الرجل بأنه كذلك.

حضرت ذات مرة ندوة وقفت فيها شاعرة شابة تلبس بلوزة تكشف عن نصف صدرها مع سروال ضيق لو لم يكن ملونًا لحسبته غير موجود، وكانت ملطخة بالماكياج كالهنود الحمر، هستيرية تمامًا وتصرخ بعصبية:

ـ «الرجل مصر على أن يعتبر المرأة وليمة في فراش!».

نظرت للجالسين وأقسمت لنفسي أن هذا العرض الرائع جعلهم جميعًا يفكرون في موضوع الفراش هذا وقد بدأ يروق لهم. طيب.. هل يجب أن يكون الرجال بلا هرمونات كي ينالوا رضاك؟.. ولماذا لبست بهذه الطريقة؟.. أم هو نوع من الامتحان لهم لتري إن كانوا رجال كهف أم لا؟

أنت قدمت نفسك كأنثى لا كعقل.. وبالتالي لا تلومي من يتعامل معك كذلك. وقد علمتني الخبرة أن هذا النوع من الأديبات اللاتي لا يفكرن إلا في الجنس، يقابلن دومًا الرجل الذكي الذي يتظاهر بالفهم والرقي وبأنه يختلف عن كهنة القبيلة، إلى أن يظفر بما يريد.. بعدها يتخلى عنها لأنها هستيرية مملة، وتعود هي لدائرة الغضب واحتقار الرجل وتكتب أكثر..

***

المشكلة الأخرى في رأيي هي النقاد.. إنهم علماء نبات وخبراء في تشريح الزهرة واستخراج الطلع والأسدية وتقطيع الساق إلى شرائح رقيقة تحت المجهر، لكن لا أحد يتحدث عن جمال الزهرة أو عطرها، والنتيجة هي أن أحدًا لم يعد يلاحظ إن كانت الزهرة في النهاية جميلة أم لا..

يكفي أن تكتب كلامًا غير مفهوم يوحي بالعمق وتبحث عن ناقد يصف ما كتبته بأنه (إرهاصات هي إفراز للكوزموبوليتانية، تعمد إلى تفتيت النص إلى وحدات تعكس روح ما بعد الحداثة)، فقد تم تعميدك وصرت أديبًا.. هل تكتب كلامًا جميلاً يبعث النشوة في النفس أو يدفع للتفكير؟... هل يفهمك من يقرأ لك؟.. لا أحد يذكر ذلك..

تأمل هذا الكلام الذي يزف لنا صدور ديوان شعر لشاعرة مغربية.. والله العظيم لم أعبث بكلمة واحدة سوى حذف ما قد يشير لاسم الشاعرة: "تكمن قوة هذا الديوان وجِدَّته في اشتغاله بلغة جذمورية بكر تُوسع أفق الوجود، وتسرد مكنونه بأشكال سردية شبيهة بالألياف الملتوية على سِرِّ المعنى... فلغة الشاعرة ـ الحاملة للتغير والمنسكبةُ في أليافٍ سردية ـ لا تسيرُ وفق نظام هندسي مُحْكَمٍ ومغلق ومتكامل، بل هي صورة العالم نفسه الذي لا تنتهي غرائبه، مثلها مثل الجذمور..... وهذا ما يجعلها لغة ماكرة تتخفَّى دلالاتها تحت أقنعة شتى، فالحقيقة لدى الشاعرة ؛ لا تقاس بالتشييدات الرمزية لها، وإنما بالقياس إلى الوجود، والوجود سرديٌّ في أكثر تفاصيله. من ثمة كان السرد في كل نصوص ديوانها هذا علامة فارقة مزهرة في منطقة المجاز، لأنه يقدم رؤية ذاتية وفكرية وتخييلية للشاعرة، تمارسُ التوتر الحادث بين اللغة والخيال"

طبعًـا.. هـؤلاء سـادة مثقفـون لا يجـب أن يقولـوا كلامًـا مفهومًـا. ربمـا كان كلام الناقـد متحذلقًـا وكانـت الشـاعرة مبدعـة فعـلاً.. تعـال نطالـع بعـض قصائدهـا خاصـة تلـك الـتي اختارتهـا لتضعهـا عـلى الغـلاف الخلفـي للديـوان باعتبارهـا درة الديـوان وعروسـه:

"مَرَّتْ بِي وَ أَنَا أَهُمُّ بِالصَّلَاةِ
فِي أَلْيَافِ الْمَاءِ...
صَحْوَتُهَا قَدَحٌ يَكْتُبُنِي
شَهْوَةً لِفِتْنَةِ اللَّيْلِ.
كَانَ خِصْرُهَا جَدْوَلًا يَسْتَنْفِرُ الْأَحْزَانَ
وَ صَدْرُهَا نَخْلَةً تَسْقُطُ بَيْنَ مَدَائِنِ الْوَطَنِ.
أُتَّكَأُ على لَغْوِهَا
أَتَأَمَّلُ خَمْرَتَهَا الْمُنْسَابَةِ مِنْ وَثَنِيَّةِ الْهَوَى.
هَبَطَتْ فِي أَغْوَارِ الْإِشَارَاتِ
قَالَتِ - "اقْتَرِبِي" وَ قَهْقَهَتْ كَغَانِيَةٍ أَسْكَرَتْهَا هَمَسَاتُ الْعُشَّاقِ !!.

لا تقـل إن بوسـعك كتابـة هـذا الـكلام بإصبـع قدمك.. ليـس الأمر بهـذه السـهولة ومهمـا حاولـت لـن تنجـح، لأنـك تحتفـظ ببعـض الصـدق والحساسـية. والله العظيـم هـؤلاء القـوم عباقـرة فعـلاً.. عباقـرة عندمـا قـرءوا، وعباقـرة عندمـا نقـدوا، وعباقـرة عندمـا كتبـوا هـذا الـكلام الـذي لا أسـتطيع كتابـة ثلاثـة أسـطر منـه.

مـاذا قدمـه ديـوان كهـذا للنـاس وللمجتمـع ولحركـة الفكـر؟.. المزيـد مـن التحذلـق والادعـاء لا أكـثر. وكمـا يقـول د. جـلال أمـين،

فـإن هنـاك رجـال ديـن مزيفـين يزعمـون اتصالهـم بالإلـه لتحقيـق مكاسـب دنيويـة، وهنـاك أدبـاء مزيفـون يزعمـون اتصالهـم بربـات الفنـون لتحقيـق مكاسـب أخـرى. الإلـه يقـول نعـم.. الإلـه يقـول لا.. تذكـر أن سـاحر القبيلـة لـم يكـن يجيد الصيـد ولا القنـص ولا الزراعة ولا القتـال.. لا يسـتطيع عمـل وعـاء مـن خـزف ولا يسـتطيع الإمسـاك بثـور أو العنايـة بالماشـية.. هكـذا يقـرر أن يصـير سـيد الصيادين والمحاربـين والمربـين والخزافـين.. إنـه عـلى اتصـال بالآلهـة ويعـرف كل الأسرار..

***

أحيانًـا يتـم الاحتفـاء الحمـاسي بأديـب شـاب يتحسـس طريقـه في عالـم الأدب، وهـذه علامـة صحيـة بـلا شـك. أذكـر نـدوة أقيمـت في مـصر لأديبـة خليجيـة شـابة، حضرهـا أنيـس منصـور ونخبـة مـن النقـاد والأدبـاء المهمـين، والفتـاة في السـابعة عـشرة مـن عمرهـا تكتـب كلامًـا فارغًـا كالـذي تكتبـه أيـة طالبـة ثانـوي في آخـر كراسـاتها، حـتى توقعـت أن أجـد بـين أشـعارها (الذكـرى ناقـوس يـدق في عالـم النسـيان) أو (الخـط خطـي ودمعـي يسـيل عـلى خـدي)، لكـن هـذا الـرأي المتعصـب لـم يكـن رأي السـادة الذيـن حـضروا النـدوة، والذيـن تحدثـوا عـن ثـورة جديـدة في الأدب، وكيـف أن كتاباتهـا ذكرتهـم بماريـا الأديبـة الروسـية العبقريـة الشـابة (لـم يقولـوا إنهـا ماتـت في سـنها منعًـا للتفويـل!).

قـال لي أحـد أصدقـائي مازحًـا: لـو إنـك أديـب واعـد مـن قريـة (خارصيـت) مركـز الغربيـة، تـدون أعمالـك بالقلـم الرصـاص في كراسـة مدرسـية عتيقـة مـن الـتي كتـب عـلى غلافهـا الأخـير (كنظـام)، ولديـك بيجامـة كسـتور مخططـة.. فهـل تتوقـع أن يهتـم بـك أحـد

أو يقرأ لك حرفًا؟.. ولماذا يصعب أن تقام هذه الضجة على كتابات أديبة قبيحة أو فقيرة إلا فيما ندر؟.. أترك لك الإجابة، ونعود إلى موضوع الجذمور..

سألني بعض الأصدقاء عن معنى (الجذمور) فقلت لهم إن الجذمور هو (الرايزومات) لو كنت تذكر حصة الزراعة أو حصة الأحياء، وهي ساق النبات الأفقية تحت الأرض التي تنمو منها عقد وسوق جديدة.. هناك نظرية نقدية كبرى هي نظرية الجذمور، وبرغم هذا ما زال الموضوع يحتاج إلى عبقري ليفهم معنى هذا الكلام.

قال د. علاء الأسواني في حوار سابق، إنه كلما أقبل الناس على كاتب ما استفز هذا الأدباء الآخرين الذين اعتادوا الجلوس على المقاهي ولوم جهل الجماهير، فهذا يزلزل الحقائق ويحرمهم لذة الاستشهاد. لذة الشعور بأنهم نحتوا القوافي من مقاطعها فلم تفهم البقر.

في عصور ضعف الأدب ينتصر الغموض، وتكون هناك خلطة قوية الرائحة تخفي أن الطعام فيه لحم فاسد أو لا لحم على الإطلاق. أضف لهذه الخلطة الكثير من التحذلق والغموض والتعالي والقرف والاشمئزاز من سطحية القراء، ولسوف تعبر.. تعبر إلى المقهى الذي يجلس فيه الأدباء المشمئزون.. جنة الميعاد.

قرأت لأحد الأدباء مقالاً ينعي فيه عصر الجهل الذي نعيشه نتيجة الارتداد بالرواية مرة أخرى إلى عصر الحدوتة، ولاقت جماهيرية جعلت البعض يتصورون أن هذا انتصار للخفة. وهذا هو مقياسهم الذي لا يحيدون عنه: الرواية التي تروق للناس وتجدها في يد الجميع عمل سطحي فاشل.. مصيبة لو

كانت الرواية مسلية أو جعلت القارئ يتساءل عما سيحدث بعد ذلك. لابد أن تكون الرواية عذابًا مقيمًا مستحيل الفهم وإلا فهي فاشلة، ومهمة الأديب المقدسة هي أن يصل بالقارئ لحالة من العجز التام عن فهم ما يقرأ. طبعًا ليس الرواج دليلاً على شيء وإلا لكان شعبان عبد الرحيم أنجح مطربي مصر، لكن هناك حلولاً وسطًا، وأنا لم أر عملاً مملاً عسير الفهم ليوسف إدريس أو نجيب محفوظ أو تشيكوف أو الغيطاني أو إبراهيم عبد المجيد أو المنسي قنديل أو المخزنجي. وماذا عن يعقوبيان التي وقفت وقفة راسخة بين ما هو عميق ومحكم أدبيًا وما هو ممتع للجمهور؟.. في أوساط المثقفين المتحذلقين يعتبر إبداء الإعجاب بيعقوبيان نوعًا من الكفر الصريح..

هذا الجدل قائم منذ دهور، والغلبة في النهاية لما هو مفهوم وجميل. وكلنا يعرف محاولات فورستر الجاهدة لتحويل فن الرواية إلى تعذيب للقارئ، لدرجة أنه اعتبر فن الحكي من بقايا عادات إنسان الكهف الهمجية، بينما ماركيز العظيم نفسه قال إنه لا يشتهي شيئًا مثل أن يجد نفسه مجرد راو عربي يجلس في الأسواق ويلتف حوله الناس منتظرين قصصه الممتعة، فلو لم تكن كذلك لمات جوعًا.

لكن كاتبنا الجميل يهوي بسياطه على المجتمع السطحي التافه الذي سيطرت عليه الخرافة ولم يعد يحترم حرية الفرد و.. و....، ويعدنا بأن نقرأ ذات الرأي بشكل معقد غير مفهوم في رواياته!.

المشكلة مع هؤلاء الأدباء هي أنهم دومًا عباقرة يكتبون لأبقار، فمن هو الرديء فيهم إذن وكيف نعرفه؟.. هناك واحد – سامحه الله - قال يومًا إن الأبطال يقذفون بالحجارة بينما

الـورود للمـوتى، ومـن يمـش في المقدمـة يطعـن في ظهـره.. الـخ. هـذه المقولـة أفـادت الجميـع وصـارت شـعارهم. إذن لـن يعـرف معـدوم الموهبـة أنـه كذلـك أبـدًا.. إنـه بطـل في زمـن أشـباه الرجـال لا أكـثر.. لـو فشـل العمـل الأدبي فبسـبب منـاخ السـطحية، وهـذا يقـود لاسـتنتاج عجيـب هـو أنـه لا يوجـد عمـل أدبي سـيئ أبـدًا!..

هكـذا يذهـب الأديـب لمقاهـي وسـط البلـد متداعيـة الجـدران ويدخـن الشيشـة وربمـا الحشـيش، ويشـتم النـاشر النصـاب الـذي يزعـم أنـه لـم يبـع سـوى طبعـة واحـدة بينمـا هـو حتمًا بـاع تسـعًا.. ومـن حـين لآخـر يقـع في يـده عمـل لأديـب مـن أصدقائـه فيقـول:

ـ «حقيقي ده حد جميل»..

هـذه هـي طريقـة كلام وسـط البلـد، وعليـك أن تتعلمهـا لـو أردت أن تكـون شـيئًا..

يمكنـني أن أعـرف مسـار حيـاة معظـم هـؤلاء الأدبـاء بوضـوح تـام: ثـلاث روايـات أخـرى ومجموعـة قصـص قصـيرة.. عـدة نـدوات وثلاثـة لقـاءات تلفزيونيـة، وربمـا بعـض المقـالات عـن (النزعـة الابسـتمولوجية في أدب كولـنز) ومشـاجرة أو مشـاجرتين عـلى شـبكة الإنترنـت في موقـع لابـد أن اسـمه (انطلاقـة) أو (إبـداع)، ثـم تتـلاشى الفقاقيـع، وتبقـى كتبـه عـلى الرفـوف وفي مخـازن هيئـة قصـور الثقافـة حيـث هـي، ولـن يذكـره أحـد لـو اختفـى عامًـا واحـدًا عـن المحافـل الـتي يحـرص طبعًـا عـلى الظهـور فيهـا، ومـا نسـميه نحـن سـكان خارصيـت بـ (مجتمـع الحديقـة الخلفيـة لأتيليـه القاهـرة). ثـم يمـوت يومًـا فـلا يلاحـظ أحـد، ويكتـب أحـد أصدقائـه يلـوم وزارة الثقافـة لأنهـا لـم تكـرم هـذا الأديـب المهـم. قـرأت مقـالاً لـروائي شـهير يشـيد فيـه بروايـة صديـق لـه، ثـم قـرأت مقـالاً يشـيد فيـه الصديـق بروايـة لذلـك الـروائي الشـهير. هكـذا تسـير الأمـور في

هـذا المجتمـع المنغلـق عـلى نفسـه: سـوف نقـرأ ونناقـش مـا يكتبـه بعضنـا لبعضنـا ونعجـب بـه ونحـضر حفـلات توقيـع ونـدوات بعضنـا ونحتقـر القـراء والكتـاب المفهومـين الناجحـين، والعيـب ليـس في القـارئ، بـل فيمـن انتزعـوا الأدب مـن حيـاة النـاس ليضعـوه عـلى أعـلى رف في المكتبـة كمـا فعـل (إليـوت) بالشـعر. وبفضلـه – يقـول النقـاد الغربيـون عـن إليـوت - صـار النـاس يخافـون الشـعر ويكرهونـه بعـد مـا كان سـلوى حياتهـم ومتعتهـم.

***

وبعد..

ما هو الأدب؟

أعـترف بأنـني ضائـع ولـم أعـد أتبـين طريقـي وسـط هـذا الضبـاب، برغـم أن الطريـق كان واضحًـا تمامًـا منـذ عشريـن عامًـا..

لكـني مـن حـين لآخـر أعـود ليوسـف إدريـس ومحفـوظ وتشـيكوف ودستويفسـكي وسومرسـت مـوم وديكـنز ويحـيى حقـي وصـلاح عبـد الصبـور وأمـل دنقـل لأسـترجع تلـك الجـذوة المقدسـة، ولأعـرف معالـم الطريـق الـذي يوشـك عـلى أن يضيـع، بنفـس المنطـق الـذي تبحـث بـه عـن العلامـات البيضـاء في وسـط الطريـق لتتقـي (الشـبورة). سـأكتب مـا يـروق لي وأدعـو الله أن يـروق للقـارئ، وليقـل مـن يشـاء مـا يشـاء، حـتى لـو بحثـوا في كتابـاتي عـن الجذمـور فلـم يجـدوه.. لقـد وجـد الأدب قبـل الجذمـور ومـن الواضـح أنـه سـيبقى مـن بعـده!

إبداع حتى النخاع

هـذه معركـة شرسـة لا تعـترف بالواقفـين بـين الفريقـين، فأنـت إما معنـا أو ضدنـا.. إمـا أن تقـف مـع الفريـق الـذي يمنـع ويتحفـظ ويتهـم فتصـير محاربًـا لحريـة الإبـداع وأحـد دعـاة الظـلام، وإمـا أن تقـف مـع الفريـق الـذي يناضـل مـن أجـل حريـة الإبـداع فتصـير مخلـب الغـرب وأداتـه لهـدم قيمنـا.

الواقـع أنـني شـبعت كثـيرًا مـن المتربصـين، واصطدمـت معهـم أكـثر مـن مـرة حـتى فـاض بي فعـلاً. التفتيـش في الضمائـر ممتـع ولذيـذ جـدًا ويشـعرنا بأننـا قضـاة نصـدر الأحـكام مـن فـوق عـرش عـال.. عذبـوا هـذا فهـو هرطيـق.. احرقـوا هـذه فهـي عـلى اتصـال بالشـيطان. أنـا القـاضي الأعـلى لمحكمـة التفتيـش أدعـو (كوبرنيكـوس) إلى أن يتـوب قبـل أن نطهـره بالنـار.. إنهـا لـذة تفـوق أيـة لـذة أخـرى. وهكـذا يضيـق هامـش الحريـة كل يـوم.. إنهـم يراقبونـك في شـك ومسـتعدون للعنـك لـو قلـت كلمـة مريبـة. حـتى عـلى مسـتوى كبـار الدعـاة.. قـرأت في أحـد مواقـع الإنترنـت مقـالاً للمفكـر الإسـلامي الكبـير (محمـد عمـارة) يـضرب فيـه مثـالاً لغويًـا لا أكـثر، فانـبرت إحـدى القارئـات تسـأله في عصبيـة عـن عقيدتـه.. قائلـة: هلـم أفصح!.. حـتى (محمـد عمـارة) نفسـه مطالـب بالدفـاع عـن نفسـه وإثبـات أنـه ليـس كمـا تظنـين؟.. كل شـخص مشـتبه فيـه وكل شـخص يمكـن أن يصـير متهمًـا في أيـة لحظـة..

أعـترف بحالـة الحصـار هـذه وكتبـت عنها كثـيرًا، لكني كذلـك أعترف بـأن هنـاك حالـة عامـة مـن الانفـلات بدعـوى الإبـداع.. صـار مـن المحتـم أن يُقـال كل شيء وبأعنـف شـكل ممكـن، وإلا فأنـت متخلـف

وتدافع عن قوى الرجعية، وتفوح منك رائحة النفط الخليجي. منذ فترة طويلة لم أقرأ كتابًا جديدًا خاليًا من لفظة أو لفظتين مما اعتدنا سماعه في السوق وموقف عبود. هناك خلطة محكمة معروفة مقاديرها ولا تفشل أبدًا وينفذونها بدقة شديدة: غضب – تجديف واستهانة بالدين – جنس - يأس – حشيش - محارم.. هذه الرواية لابد أن تغضب الجميع وتشتهر ..وحبذا لو منعها الأزهر فهذا يوم سعد المؤلف.. سوف تنعقد من أجله الندوات ويصير موضوع العدد لعدة مجلات أدبية. فقط ينسون شيئًا مهمًا في هذه الخلطة وهو ضروري لابتلاعها: الموهبة.... الفن...

إقرأ هذا المقطع على لسان فتاة يرغمها أبوها على حفظ القرآن، وقد قمت بحذف ما يلزم طبعًا: "مع كل لسعة كرباج تنظر لي أمي بغيظ وكره قائلة: خلصي يا بت.. يقطعك ويقطع تعليمك. وحياة أمي لـ (...) يا (...) يا بنت الـ (...). وأبي يواصل الضرب بهمة على أنف أمي حتى تجيب دم ويقول لي: شايفة يا (...)؟.. وصلتي أمك الكاملة أم أخلاق سوبر إسلامية لإيه؟.. اتبسطي؟.. طيب (....) أمك ..أنت وأمك على (...).. مش حتنامي إلا لما تسمعيه عشر مرات.. إيه رأيك يا بنت الـ"؟(...)

هذا هو أكثر مقطع مهذب استطعت اختياره، وهذه الرواية ناجحة جدًا على شبكة الإنترنت على فكرة، والجميع يتساءل عن سبب إحجام الناشرين الجبناء عن نشرها.. إنها قضية الفكر أمام ظلام الجهل وخفافيش الظلام.. هل يجب أن أقاتل من أجل الحق في نشر هذا الكلام ليقرأه ابني؟.. يا أخي لو كان هذا هو الأدب فلا داعي له أصلاً..

شاهدت على موقع (يوتيوب) فيلمًا قصيرًا لمخرج من خريجي معهد السينما أصابني بالذهول، وكالعادة يتخذ الموضوع طابع

قضيـة فكـر أمـام خفافيـش الظـلام. الفيلـم يـدور حـول عاملـة سـنترال تقزقـز اللـب طيلـة الوقـت، ولا تقـول جملـة واحـدة مـن دون سـبة جنسـية يعاقـب عليهـا القانـون .تراقـب الزبائـن وتـدرك نفاقهـم؛ بـين الزوجـة المسـيحية الـتي تخـون زوجهـا مـع صديقـه، والمنتقبـة الـتي تـضرب مواعيـد لزبائـن الدعـارة مـن الكابينـة.. عمـل كهـذا في رأيي ينبـع مـن رغبـة أصيلـة لـدى صانعـه أن يشـعر بأنـه ليـس بهـذا السـوء.. كل النـاس منحلـون منافقـون ..مـن لـم يـزن هـو شـخص لـم يجـد فرصـة بعـد.. أحـد أصدقـائي رأى الفيلـم فقـال سـاخرًا :الفائـدة الوحيـدة الـتي يقدمهـا هـذا الفيلـم للمجتمـع هـي اغتصـاب عاملـات السـنترال لأن كلامهـن (أبيـح)، و الإيمـان المطلـق بحـق المواطـن فى تحويـل كابينـة التليفـون إلى حجـرة نـوم .أخـر مـا يمكـن أن يحـدث - عقـب مشـاهدة فيلـم كهـذا - هـو أن يخـرج النـاس مـن دور العـرض وقـد تطهـروا .فلابـد أن برجمـان وسـير ديفيـد لـين كانـا ينافقـان العقليـة البرجوازيـة بـكل هـذا التهذيـب والـرقي المصطنعـين إذن..

أحيانًـا يخيـل لي أنـه كان مـن الأسـهل والأبلـغ أن يصـور المخـرج قطعـة فضـلات بشريـة جـوار جـدار لمـدة نصـف سـاعة.. مهمـا قـال وفعـل فلـن يعـبر بهـذه البلاغـة أبـدًا. نفـس الـشيء ينطبـق عـلى سـيل الأفـلام الحديثـة الـتي تدعـي الواقعيـة الجديـدة ..يخيـل لي أنهـا تجميـع لصفحـات الحـوادث في الصحـف. هـؤلاء لا يتعاطفـون مـع البـؤس والانحـلال الأخـلاقي بـل يتاجـرون بـه ليسـتمتع المشـاهد بـكل هـذه البشـاعة، كأن هـذا بيـت الزواحـف في حديقـة الحيـوان.. ثعبـان الأصلـة؟.. سـحلية الـورل؟.. يـا مامـي!..

لـو كانـوا صادقـين وفنانـين فعـلاً فليـروا مـا فعلـه محمـد خـان في (أحـلام هنـد وكاميليـا) أو دان بويـل في (مليونـير العشـوائيات)

و(مراقبة القطارات) أو حتى حسام الدين مصطفى في (الباطنية).

هذه الخواطر تعذبني وتشعرني بالذنب لأنني لست في صف حرية الإبداع المطلقة بالكامل.. إذن أنا مثقف منافق يا شبيهي يا أخي على رأي الخواجة (بودلير).. ثم تذكرت أن لي رافدين فكريين مهمين هما محمد حسنين هيكل ود. جلال أمين.. ماذا يقولان عن هذا؟.. أولاً هيكل لا يطيق لفظة (إبداع) أصلاً ويشم فيها رائحة الإدعاء. ثانيًا هو كتب مقالاً دسمًا مهمًا عن قضية (وليمة لأعشاب البحر) الشهيرة جدًا. رأى هيكل أن الحملة ضد الرواية كانت متعسفة وتحريضية حقًا وتوحي بـ (افتعال الانفعال) – تعبير أدبي آخر من تعبيراته الجميلة. ثم رأى أن الدفاع عن الرواية استدعى للميدان قيمًا عظيمة مثل الحق والحرية والاستنارة في غير مجالها أصلاً. وهكذا تورط المثقفون في معركة وجدوا أنفسهم فيها – كما تبدى للجمهور - ضد الدين والفضيلة، وهكذا خسروا المعركة قبل أن تبدأ. دعوى الحرية لن تُسمع لأن المواطن العادي سيجدها تساهلا وتفريطًا. دعك من النغمة الدائمة لدى المثقفين: العمل الأدبي لا يمكن فهمه إلا بوساطة متذوق فني ..!..هذا معناه أن المثقف يرفض كهنوت رجل الدين لكنه يقبل ويطالب بكهنوت الناقد ..!هناك حجة أخرى تقضي بأن بعض العبارات المقتطفة مجتزأة من السياق ويجب قراءة العمل الأدبي ككل قبل التعليق. يقول هيكل إن هذه الحيلة ليست ناجحة دائمًا.. فمعظم المثقفين لم يقرأ رسائل أخوان الصفا أو أعمال أفلاطون كاملة. حتى كتاب (رأس المال) قلّ من قرأه كاملاً. إذن أحيانًا قد يعبّر الجزء عن الكل. د. جلال أمين كتب كذلك عن رواية (الصقار) التي أحدثت ضجة مماثلة، فقال بوضوح: «حرية الفرد في الكتابة يجب أن تكون لها حدود مثل حرية الفرد في إطلاق الرصاص على الناس». لكن ما ضايقه

فعلاً خلو الرواية من أية قيمة فنية من أي نوع.. والكاتب يغطي على هذا الفقر بالتمادي الصريح في وصف المشاهد الجنسية. يقول كذلك: «هناك قطاع عريض من المثقفين دأب على الدفاع عن أعمال غثة فكريًا، تهين المقدسات الدينية وتجرح الشعور العام باسم حرية الإبداع وحرية التعبير». د. جلال يجد في هذا الموقف بدوره إرهابًا من نوع آخر.. فهم يستعدون الدولة على معارضيهم ويطلبون التأييد والدعم الأجنبيين.. بل إنهم يبعدون عن الأضواء مبدعين حقيقيين كل ذنبهم أنهم لم يجرحوا أحدًا في كتاباتهم.

***

من العجيب أن محمد المويلحي في (عيسى بن هشام) يقول بالحرف: "من تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب في خفايا الرذائل التي يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الأسباب في انتشارها"

المويلحي ليس من دعاة الرجعية والانغلاق، وليس بالتأكيد من خفافيش الظلام، لكنه رجل ذو حس سليم وبصيرة نافذة. في السبعينات قرأت قصة احتلت صفحتين من مجلة (الإذاعة والتلفزيون) لقاص يصف في اشتهاء ثديي أمه , ليس باعتبارهما رمزًا للخصوبة والعطاء.. الخ.. بل لأنهما ببساطة يثيرانه. كنت مراهقًا في المدرسة الإعدادية لكني تساءلت عن القيمة الأدبية العظمى التي قدمتها هذه القصة، وما كانت البشرية ستخسره لو لم تُنشر أو لم تُكتب..

ثم وجدت الجواب الصحيح في مقال لناقد كبير - نسيت اسمه للأسف - نشر في مجلة الهلال. قال إن الأديب يمكن أن

يتعامل مع الجنس.. بل يجب أن يتعامل معه باعتباره جزءًا حميمًا من مكونات حياتنا، ولكن عليه وهو يفعل ذلك أن يمتلك قدرًا من النظرة الفوقية والموهبة تسمحان له بأن يتعالى على عقده الشخصية ورغباته المكبوتة.. بمعنى آخر: لا يكتب ما يتحلب لعابه له أو ما يثيره هو شخصيًا.. طوفان الأعمال (الإبداعية) الذي غرقنا فيه منذ أعوام، عاجزين عن الاعتراض حتى لا نتهم بالتخلف والرجعية.. هذا الطوفان هو طوفان عقد نفسية وصديد بلا شك.. لا أعتقد أن الصديد سائل مفيد للفكر أو يعبر عن حرية صحية.. إنه يلوث كل شيء يلمسه، وإن كان خروجه يريح صاحبه قليلاً...

و ما زلنا مع ذلك المقال المهم لدكتور (جلال أمين) الذي يناقش فيه رواية (الصقار). يقول د. جلال: «هؤلاء المدافعون في كل مرة عن حرية الإبداع والذين يتحمسون لحرية التعبير لهذا الحد، لابد أنهم يلاحظون ما تفعله الدولة في تقييد هذه الحرية. فإذا قبل المفكر عن طيب خاطر ما تفعله الدولة في تقييد هذه الحرية، وثار ثورة عارمة على محاولة كاتب أن يقيد حرية كاتب تجاوز الحدود، فلابد أن يكون للمرء الشك في أن الموقف ليس طاهرًا مائة بالمائة».

عندما يتكلم د. جلال أمين يكون علي أن أخرس وأنقل لك ما قاله. يرى د. جلال أن منع كتب (نصر حامد أبو زيد) مثلاً خطأ لأنها كتب تحوي آراء وبالتالي يجب أن تناقش، بينما إذا شتمك أحدهم في الشارع فهذا ليس اختلافًا في الرأي بل هو وقاحة يجب منعها.يقول إن رواية الصقار هذه صدمته بكل ما فيها من جنس فاحش، وألفاظ بذيئة تُقال عن القرآن الكريم، لدرجة أنها استفزت كاتبًا يساريًا في جريدة الأهالي واستفزته هو في جريدة

الدستور. هنا هبت حملة الدفاع عنها وقال د.صبري حافظ أستاذ النقد الأدبي: «انتقاد الرواية ليس من حق صحفي لا دراية له بأساليب قراءة الأعمال الأدبية، لأن العمل الفني ينهض على الجدل المستمر بين جزئياته المنتقاة بعناية من كم هائل من المادة المبذولة للكاتب». كلام كبير صعب طبعًا، لكنه من جديد يطرح قضية أن فهم العمل الأدبي كهنوت مقصور على كهنة المعبد من النقاد، فلماذا تشكون من كهنوت رجل الدين إذن؟.

ثم يعرض علينا هذه الفقرة من الرواية: «الطريقة العادية نفسها التي يمكن أن يصبح بها أي أحد.. أي أحد وحيدًا في حجرته العلوية تمامًا كموت الآخرين. لا يموتون هكذا مرة واحدة ولا يتركون لنا أشياءهم الحقيرة إلا لأنها ليست مهمة في الموت». يطالبنا د. جلال بأن نعترف: هل يوجد أي جمال أو معنى في هذه الفقرة؟... لكن د. صبري يقول عنها: «محاولة واضحة لبلورة ترادادية وتكرارية يتذبذب فيها السرد بين عوالم متنافرة ولكنها متضافرة بطريقتها الفريدة». هنا يفقد د. جلال هدوءه المعروف ويكتب كأنه يصيح: هل هذه قصة أم كتاب مقدس؟.. هل أية قصة كتبها شخص هب ودب تُعامل هذه المعاملة، وكأنها عمل مقدس لا يجوز حذف جملة أو اقتطافها من سياقها وإلا حلت بنا اللعنة؟. لو كان هذا أدبًا فكل راقصة في شارع الهرم تستحق لقب فنانة.

من الطريف كذلك أن نجد أن د. جلال يغتاظ جدًا من لفظتي (إبداع) و(خلق) هاتين، وهو نفس شعور هيكل. وقد لاحظ أن الكتاب يعشقون هاتين اللفظتين كثيرًا. مهما كان مستوى العمل الأدبي.. كأن كتابة قصة أو رواية مهما كانت رديئة تؤهلك لحمل

لقـب (مبـدع). فقـط انصرفـوا لحالكـم ودعـوا هـؤلاء المبدعـين العظـام يسـتمتعون بالهـدوء الـلازم لعمليـة الخلـق.

ليـس مـن حـق النـاس أن تعـرف كل شيء، وليـس مـن حقهـم أن يُكشـف عـن كل مخبـوء ويرفـع الغطـاء عـن كل جسـد.. هنـاك ألـف طريقـة لعـرض الـشر.. كمـا يعـرف كل أبويـن أن الطريقـة المثـلى لإقنـاع ابنهمـا بعـدم التدخـين ليسـت هـي أن تحـضر لـه سـيجارة وتجعلـه يدخنهـا. يـرى د. جـلال كذلـك أن هنـاك موقفًـا حاليًـا مـن الفـن يقـترب مـن التقديـس.. ومـن فـرط الخشـوع والرهبـة يوشـك أن يكـون دينيًـا.. وكمـا أن الديـن شـهد نصابـين كثيريـن يدعـون التقـوى والشـفافية لينالـوا أغراضهـم، فهنـاك في الفـن نصابون كذلـك يدعون الموهبـة الفنيـة وأنهـم عـلى اتصـال بربـات الفنون..ثـم ينهـي مقالـه السـاخن قائـلاً: «ليسـت مسـيرة التاريـخ دائمًـا للأفضـل.. ولا أشـك في أن التراجـع في هـذه القضيـة بالـذات هـو شيء حكيـم للغايـة».

أشـعر باطمئنـان كلمـا قـرأت هـذا المقـال لأنـه يجعلـني أدرك أنـني لسـت مثقفًـا منافقًـا، فهنـاك مثقفـون عظمـاء كان رأيهـم قريبًـا مـن رأيي الحـالي.. ليسـت الكتابـة عـن الجنـس هـي المشـكلة.. المشـكلة هـي الفحـش فيـه، وهـي كتابتـه للتلـذذ الشـخصي أو لجـذب القـارئ أو لاسـتثارة غضـب المحافظـين..

لا أحـد يطالـب بالمنـع واسـتخدام سـلطة الدولـة مـع الأدب، لكننـا كذلـك نطالـب بـأن يكـون أدبًـا حقًـا. المحتـوى الأدبي العـالي هـو الـذي جعلنـا نتقبـل تلـك الجرعـات الصادمـة في ألـف ليلـة وليلـة وأشـعار شـعراء المجـون وكتـاب الأغـاني.. وبرغـم هـذه الجرعـات الصادمـة فإنهـا لـم تبلـغ ربـع مـا نـراه اليـوم. هنـاك قصـة عـلى شـبكة الإنترنـت لا أجـسر عـلى ذكـر اسـمها وحـده، فكيـف بمضمونهـا؟.. وكمـا نتوقـع هـي خاليـة مـن الفـن تمامًـا لكـن صاحبهـا

وأصحـاب الموقـع يـصرون عـلى أنهـا (إبـداع)..

نحــن لا نطالــب بــأن يجلــس الأديــب إلى مكتبــه عازمًــا عــلى أن يكتـب عمـلاً نظيفًـا مفعمًـا بالقيـم.. سـتكون النتيجـة في غايـة السـوء شـبيهة بالمسلسـلات الـتي يكتبهـا الفنانـون لأنفسـهم في رمضـان، لكننـا كذلـك نطالـب بـألا يجلـس الأديـب عازمًـا عـلى كتابـة عمـل فاضـح مـليء بالجنــس والكفــر والشــتائم وجلســات الحشــيش والعبـث وزنـا المحـارم. الحلـم هـو أن يكـون الأديـب هـو الرقيـب الوحيـد عـلى مـا يكتبـه، وأن يـدرك جيـدًا أنـه يجلـس في مقعـد محـترم جـدًا جلـس فيـه مـن قبلـه تشـيكوف ودستويفسـكي ويحـيى حقـي ويوسـف إدريـس ونجيـب محفـوظ ومحمـود تيمـور وتشـارلز ديكـنز ومارسـيل بروسـت وفلوبـير و.. و.. هـؤلاء كتبـوا عـن الضعـف البـشري والشـهوات والإلحـاد.. لكـن كيـف كتبـوا؟

القسم الرابع
ويحوي تأملات..لا تخضع لأي تصنيفات

ديجا فو

أذكر القارئ بأن (ديجا فو déjà vu) هو تعبير فرنسي معناه (شوهد بالفعل). وهو يستخدم للدلالة على تلك المواقف التي تمر فيها بحدث معين، فتشعر بأنك عشته من قبل.. هناك تفسير فسيولوجي محبط يقضي بأن الأمر يعود لتأخر وصول الدم لأحد الفصين الصدغيين في المخ عن الآخر، وهذا يضايق الناس لأنهم يحبون أن يشعروا بأنهم مرهفون شفافون ذوو قدرات غيبية، وليسوا مجرد أشخاص لا تعمل دورتهم المخية جيدًا.. هم أكبر من هذا..

أنا أعاني حالة عنيفة من ظاهرة (ديجا فو)، لكن المشكلة هي أنني عشت هذا فعلاً وجربته وتعذبت به ألف مرة.. حتى إنني أقترح مصطلحًا جديدًا هو (ديجا فيكو déjà vécu) أي (عيش بالفعل)...

مثلاً أحداث غزة.. لقد عشت هذا الموقف مرارًا لا حصر لها من قبل. هناك تفاصيل حدثت حرفيًا عند بدء الانتفاضة الثانية وعند اجتياح مخيم جنين.. نفس المظاهرات الغاضبة في العالم العربي وأوروبا، ونفس لا مبالاة الحكام وإيثارهم السلامة وقمعهم المظاهرات بقوات تكفي وحدها لتحرير فلسطين.. نفس الكلمات المؤثرة المقنعة فعلاً في الأمم المتحدة ثم يتداولون فيرفع مندوب الولايات المتحدة يده بالفيتو ضد قرار الإدانة.. يقدم الفيتو وهو لا مبال وقرفان ومشغول بأمور أهم. الرئيس الأمريكي يؤكد أن لإسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها.. دعوة لمؤتمر قمة عربي لا ينعقد أبدًا كأن الاجتماع وأكل

الفنـادق والنـوم في (فـور سـيزونس) جهـد شـاق لا يتحملـه أحـد.. نفـس الاتهامـات لمـصر حـتى بلـغ الأمـر درجـة حـرق العلـم المصري في الانتفاضـة الثانيـة. نفـس معركـة (مـصر خائنـة متخاذلـة – مـصر قدمـت الكثـير مـن أجلكـم يـا ناكـري الجميـل)..

ذات جثـث الأطفـال المكفنـة.. ذات القبلـة الأخـيرة عـلى الجبـين قبـل القـبر يطبعهـا أب بـاك.. انـا متأكـد مـن أن هـذه الطفلـة ماتـت مـن قبـل في جنـين وفي اجتيـاح جنـوب لبنـان عـام ٢٠٠٦.. ذات الملثـم يتوعـد إسرائيـل أمـام الكاميـرا.. ذات الكلمـات البـاردة تقولهـا مادلـين أولبرايـت ثـم رايـس ثـم ليفـني.. هنـاك دومًـا امـرأة شـمطاء متنمـرة (مـش لاقيـة راجـل يلمهـا).. نفـس المتحدثـين في قنـاة الجزيـرة، ومن يؤكـد أن العـدو ارتكـب غلطـة عمـره، ومـن يؤكـد أن المقاومـة ارتكبت غلطـة عمرهـا.. الأول يتهـم الثـاني بأنـه عميـل ومـن الماريـنز الجـدد، والثـاني يتهـم الأول بالحنجوريـة والعيـش في عـصر المعلقـات..

ذات القلـق واللوعـة في أعماقـك.. ذات الأمـل الخافـت في أن يتغـير مسـار المعركـة.. معـارك أم القـصر في العـراق وذعـر الأمريـكان والاسـتجواب لرامسـفيلد في الكونجـرس: هـل أخذتنـا إلى فيتنـام أخـرى يـا أحمـق؟.. البارجـة الإسرائيليـة تحـترق أمـام شـواطئ بـيروت.. حمـاس تعـد بمزيـد مـن المفاجآت..ثـم ينقشـع الضبـاب فتكتشـف أن كل شيء قـد ضـاع كمـا في العـراق، أو تكتشـف أن حـزب الله كان أذكى ممـا تصورنـا كمـا في حـرب ٢٠٠٦... لـم يتضـح الأمـر مـع حمـاس بعـد...

لمـاذا يتكـرر كل شيء؟.. لأننـا مـا زلنـا نحـن.. ولأنهـم مـا زالـوا هـم.. لـم يتغـير أي طـرف..

تعـال معـي نبتعـد عـن غـزة قليـلاً.. تعـال إلى شـارع الهـرم لتعيش تجربـة أخـرى رأيتهـا ألـف مـرة.. شـقة مفروشـة إيجارهـا ألفـا جنيـه

في الشـهر.. أربعـة أجهـزة كمبيوتـر.. برنامـج جرافيكـس.. شـباب مـن خريجـي كليـة الفنـون الجميلـة، وخمـس دقائـق مـن الرسـوم المتحركـة تظهـر (عـلي بابـا) أو (جحـا) وهـو يلـوح بيـده ويقـول كلامًـا لا تسـمعه لأن الصـوت لـم يُضـف بعـد.. مخـرج متحمـس ينـوي صناعـة حلقـة Pilot لتسـويق هـذا الفيلـم في دبي.. ثـم لا نـرى أي شيء أبـدًا، وتختفـي هـذه الشركـة ويختفـي هـؤلاء الشـباب.. ديجـا فـو.. اعتقـد أنـني زرت ذات الشـقة مائـة مـرة.. فقـط كانـت الوجـوه تختلـف في كل مـرة..

بنفـس الظـروف تقريبًـا رأيـت مئـة مجلـة أو جريـدة شـبابية تصـدر وتمـوت بعـد عديـن.. نفـس الوجـوه.. نفـس الأفـكار.. نفـس الكلمـات.. مثقفـو وسـط البلـد بالقلنسـوة الصوفيـة أو (الأنـوراك) عـلى طريقـة (إيمينـم) والجربنديـة والجينـز، يكتبـون لعـدة أماكـن لابـد أن مـن بينهـا الدسـتور وبـص وطـل.. بعضهـم معـد في إحـدى القنـوات الفضائية..بطلهـم العالمـي هـو جيفـارا وبطلهـم المحـلي هـو منـير وأحمـد فـؤاد نجـم. الجلسـة في مقاهـي وسـط البلـد وتدخـين الشيشـة في نهـم والنـكات البذيئـة والثـورة عـلى كل شيء.. عالـم المدونـات ونقابـة الصحفيـين والفشـل في الحصـول عـلى كارنيـه.. بعضهـم يكتـب الروايـة الأولى الـتي لا يسـتطيع نشرهـا والـتي يتبايـن موضوعهـا لكـن الحشـيش يلعـب فيهـا دورًا مهمًـا جـدًا.. هنـاك خلطـة محكمـة معروفـة مقاديرهـا ولا تفشـل أبـدًا: ثـورة – تجديـف – جنـس - يـأس – حشـيش.. تتغـير الأسـماء لكـن الوجـوه والثيـاب والأفـكار هـي هـي..

كـم مـرة جلسـت فيهـا مـع ذلـك المخـرج الشـاب المتحمـس الـذي درس بالخـارج، والـذي يريـد أن يقـدم أول أفلامـه معـي؟.. أقـول لـه إنـه لابـد أن يجـد منتجًـا قبـل أن يبـدأ، فيؤكـد في ثقـة إنـه يعـرف

ما يفعله.. معه سوف تختلف الأمور. كم مرة طورنا فيها فكرة ما وكتبنا لها معالجات، وكتبنا السيناريو؟.. ثم تبدأ المراحل التي أعرفها جيدًا.. ملاحقته لي لأن الوقت ضيق.. ثم الفتور.. ليس العثور على منتج سهلاً.. ثم قلة الحماسة.. فالاختفاء.. ثم عدم الرد على مكالماتي.. للمرة الألف تعرف أن المنتج هو كل شيء بينما المخرج (غلبان مثلنا) لا يملك من أمره شيئًا..

خذ عندك كذلك فرق مسارح الأقاليم والثقافة الجماهيرية.. المخرج المتحمس الذي يريد أن يقدم نصًا شهيرًا، لكنه يضحك في خبث لأنه سيدس فيه رموزًا وإسقاطات لا تنتهي.. سوف يشتم الحكومة دون أن تدرك ذلك.. يشعر بأنه يقود ثورة.. المصري هو ابن البلد أو القهوجي ومصر هي الفلاحة الأصيلة.. الحاكم الظالم هو العمدة أو صاحب العمارة أو الغول.. لا بأس بأغنية للشيخ إمام هنا أو تقليد ساخر خبيث للحاكم هناك، أو أن يهتف الناس في مسرحية (ماكبث): بالروح.. بالدم.. نفديك يا ماكبث.. هذا إسقاط جبار.. إسقاط عبقري.. الثورة قادمة..

البروفات والصراخ المجنون في الممثلين، والمسرح المترب والخيش الذي يتدلى من السقف.. نفس الميزانسين.. الممثل الذي يجري من عمق الكواليس إلى منتصف المسرح ليصرخ منفعلاً أكثر من اللازم، فلا تفهم حرفًا مما يقول، ثم يسقط على ركبتيه ليصفق الناس.. الأصوات المبحوحة من الصراخ. رأيت هذا ألف مرة، وفي النهاية ترى المسرحية وقد جلس في القاعة المخبرون ورجال الأمن المركزي الذين هم الجمهور الوحيد، والذين اكتسبوا ثقافة مسرحية جديرة بأستاذ في السوربون.. تنتهي المسرحية فلا تحدث ثورة ولا يذكرها أحد..

أمثلة الديجا فو كثيرة جدًا.. جدًا.. ولو أحصيت الأمثلة

لاحتجـت إلى عشريـن مقـالاً آخـر. لا أعـرف السـبب فعـلاً.. هـل الحيـاة تكـرر نفسـها بهـذا الشـكل الممـل؟ أم أنـني عشـت أكـثر مـن الـلازم؟

انتهـى المقـال، ومـن جديـد يغمـرني الشـك بأنـني قلـت هـذا الـكلام مـن قبـل في مـكان مـا..!.. هـل يمكنـك أن تذكّـرني مـن فضلـك؟

أنا لم أتغير.. الحياة تغيرت

هنـاك ناقـدة أمريكيـة كانـت تحـب فيلـم (ذهـب مـع الريـح) وشـاهدته عـشرات المـرات. فجـأة شـاهدته عندمـا تقدمـت في العمـر.. أثـار دهشـتها أنهـا لـم تنفعـل وبـدا لهـا سـخيفًا مفتعـلاً، وكتبـت تقـول: «الفيلـم تغيـر!.. لـم يعـد نفـس الفيلـم الـذي كنـت أشـاهده قديمًـا!».

هـذا هـو السـؤال الأبـدي الـذي يطـاردك عندمـا تكـون في سـني: هـل الحيـاة قـد سـاءت حقًـا أم أنـني لـم أعـد كمـا كنـت؟

في صبـاي كنـت أسـمع أبي لا يكـف عـن اسـتعادة ذكريـات صبـاه.. كانـت الدجاجـة بحجـم الخـروف والخـروف بحجـم ديناصـور ترايسـيراتوبس، وكانـت للأزهـار رائحـة حقيقيـة.. زهـرة واحـدة كانـت تغمـر بالشـذى حيًـا كامـلاً مـن أحيـاء دمنهـور – حيـث ولـد - دعـك مـن الفراولـة والتفـاح.. كان يمكنـك أن تعـرف أن هنـاك مـن ابتـاع نصـف كيلـو تفـاح أو فراولـة في دمنهـور كلهـا لأن الرائحـة تتـسرب لـكل شيء.. كانـت الأغـاني أعـذب والفتيـات أجمـل والأفـلام أمتـع والبـشر أنقـى...

كنـت أسـتمع - أو أسـمع - لهـذا الـكلام في تـأدب، وإن كنـت أنقـل قدمـي مائـة مـرة في ملـل أخفيـه. وقـد بـدا لي خيطًـا لا ينتهـي مـن كلام الشـيوخ المعتـاد: «هـي الفـراخ بتاعتكـم دي فـراخ؟.. دي عصافـير.. كنـا بنشـتري عربيـة وفيـلا ودسـتة بيـض بنـص ريـال.. الـخ».

حدثـني أبي عـن أفـلام عـصره وعـن إيـرول فلـين المذهـل وجيمـس كاجـني العبقـري و..و.. عـلى الأقـل صـار بوسـعي اليـوم أن أرى

هـذه الأفـلام كدليـل لا يدحـض، فـلا أرى فيهـا أي شيء خـارق.. التخشـب الهوليـوودي المعتـاد والكثـير مـن الافتعـال.

نقبـت عـن نقـاء النـاس في ذلـك العـصر، فقـرأت عـن (ريـا وسـكينة) النقيتـين، والبـواب النقـي الـذي اغتصـب طفلـة في الثالثـة مـن عمرهـا عـام ١٩٣٣، والفنانـة النقيـة الـتي ضبطـت زوجهـا النقـي مـع الخادمـة النقيـة في المطبـخ ليلـة الدخلـة! ومـاذا عـن الفنـان النقـي (فـلان) الـذي اقتحـم مكتـب الناقـد الـذي لـم يـرق لـه فيلمـه الأخـير شـاهرًا مسدسـه؟. كان هنـاك حـي دعـارة نقـي شـهير جـدًا في طنطـا اسـمه (الخبـيزة) واليـوم صـار سـوقًا شـعبية محترمـة.. فأيـن هـذا النقـاء المفقـود إذن؟

لكـن أبي يرحمـه الله عـاش ومـات وهـو مؤمـن بـأن الحيـاة قـد صـارت سـيئة، كأنهـا صـورة صنعـت منهـا نسـخة تلـو نسـخة تلـو نسـخة حـتى بهتـت ولـم تعـد لهـا قيمـة..

اليـوم أنظـر أنـا بـدوري إلى الـوراء فيبـدو لي أن الحيـاة كانـت أفضـل في صبـاي بكثـير. قلـت لابـني إن الأغـاني في عـصري كانـت أعـذب والفتيـات أجمـل والأفـلام أمتـع والبـشر أنقـى... أرغمتـه عـلى مشـاهدة بعـض أفـلام السـبعينات عـلى غـرار (الأب الروحـي) و(قصـة حـب) فشـاهدها وقـال لي بصراحـة إنهـا (زي الزفـت). أغـاني البيتلـز والآبـا والـبي جـيز (خنيقـة) جـدًا في رأيـه.. ولـم يحـب أيـة أغنيـة مـن أغـاني وردة الجزائريـة الحارقـة في أوائـل السـبعينات مثـل (حكايـتي مـع الزمـان) و(اسـمعوني)... طبعًـا لـم أحـاول أن اسـمعه أم كلثـوم فأنـا لسـت مجنونًـا.. لـن يفهمهـا ولـو بعـد مائـة عـام..

قلـت لـه في غيـظ إنـه بعـد عشريـن سـنة - أعطـاه الله العمـر - سـوف يسـمع ابنـه أغـاني (شـاجي) و(انريـكي اجلسـياس) و(فيرجـي) ويعـرض عليـه أفـلام (الرجـال اكـس) و(الفـارس الأسـود).. لكـن

الوغـد الصغـير سـيؤكد لـه إنهـا (زبالـة)، إلا أن ابـني لـم يصـدق.. يعتقـد أن الأخ (شـاجي) خالـد للأبـد..

نعـم كان لرمضـان رائحـة وحضـور في المـاضي.. كانـت هنـاك رائحـة مميزة للعيـد.. تصـور أن عيـد الثـورة كانـت لـه رائحـة؟.. كان قـدوم الربيـع يعلـن عـن نفسـه مـع ألـف هرمـون وهرمـون يتفتـح في مسـامك، فتواجـه مشـكلة لعينـة في التركيـز في دروسـك والامتحـان عـلى الأبـواب، بينمـا الحيـاة ذاتهـا قـد تحولـت إلى فتاة رائعة الحسـن تنتظـرك. أذكـر يـوم شـم النسـيم وأنـا في الصـف الثالـث الإعـدادي، أمـشي في شـوارع طنطـا الـتي مـا زالـت خاليـة في سـاعة مبكـرة، مزهـوًا بنفـسي أوشـك عـلى أن أطـير في الهـواء، وأتمـنى لـو عببـت الكـون كلـه في رئـتي.. بينمـا المحـلات تذيـع أغنيـة حفـل الربيـع الـتي غناهـا عبـد الحليـم حافـظ أمـس (قارئـة الفنجـان).. تصـور أن الأغنيـة مـا زالـت طازجـة سـاخنة خرجـت مـن حنجـرة الرجـل منـذ سـاعات لا أكـثر. للمـرة الأولى أسـمع (بحياتـك يـا ولـدي امـرأة.. عيناهـا سـبحان المعبـود)..

أنـا شـاب.. لقـد كـبرت.. لـن تتغـير هـذه الحقيقـة.. الغـد أفضـل بمراحـل.. الكـون كلـه ينتظـرني.. سـوف أصـير أمـين عـام الأمـم المتحـدة وأتـزوج راكيـل ويلـش وأفـوز بجائـزة نوبـل في الأدب، وفي وقـت فراغـي سـأمارس هوايـتي في إجـراء جراحـات الجهـاز العصـبي.. هـذا قـد يضمـن لي جائـزة نوبـل أخـرى.. مـن يـدري؟.. قـد أصـير أول رائـد فضـاء عـربي (بالمـرة)، ولسـوف أصـير وسـيمًا أشـقر الشـعر أزرق العينـين.. لا أدري كيـف.. يجـب أن تكـون في الخامسـة عـشرة لتفهـم..

نعـم.. لـم يعـد شيء في العالـم كمـا كان.. أبتـاع الفراولـة وألصـق ثمارهـا بأنفـي وأشـم بعنـف.. لا شيء.. لـو حـشرت ثمـرة منهـا في

رئتي فلن أجد لها رائحة. ماذا عن التفاح الذي لا تقتنع بأنه ليس من البلاستيك إلا عندما تقضم منه قطعة؟..عندها تحتاج لفترة أخرى كي تقتنع أنك لم تقضم قطعة من الباذنجان.. أين ذهب جمال الفتيات ولماذا لم أعد أرى إلا المساحيق الكثيفة، حتى تشعر أن كل فتاة رسمت على وجهها وجهًا آخر يروق لها؟.. أين ذهبت العواطف الحارقة القديمة عندما كنت تكتب عشرات القصائد من أجل ابتسامة حبيبتك؟.. اليوم لو تزوجتها وأنجبت منها عشرين طفلاً فلن تجد في هذا ما يأتي بالإلهام...

الإجابة التي تروق للمسنين هي: الحياة تغيرت ولم تعد هناك بركة.. لكن الإجابة الأقرب للمنطق هي: الحياة لم تتغير.. أنت تغيرت...

ربما صار شمي أضعف.. ربما صار بصري أوهن.. ربما صار قلبي أغلظ.. ربما تدهورت هرموناتي.. ربما صرت كهلاً ضيق الخلق عاجزًا عن أن يجد الجمال في شيء.. ربما ما زالت الفتيات جميلات والفراولة عطرة الرائحة وأغاني هذا الجيل جميلة..

نعم هو المنطق ومن النضج أن أعترف بهذا.. لكن من قال لك إني أريد أن أكون كذلك؟.. أفضل أن أظل شابًا على أن أكون ناضجًا لهذا أقول لك بكل صراحة: الحياة صارت سيئة ولا تطاق فعلاً.. الله يكون في عونكم.. هيا أيامكم دي أيام؟

ملاك حساس.. يا للكارثة!!..

كلما تلقيت مكالمة من (سلمى) عرفت ما سوف تقوله على الفور.. لابد من العبارة التالية:

«آه يا ربي.. أنا مرهفة رقيقة وسط كون لا يفهمني.. لا أحد يفهم كم أنت حساس رقيق..».

هذه نقطة مهمة لدى هذه النوعية من الفتيات: الكون ينقسم إلى من لا يفهمون، وهؤلاء الذين لم تلقهم بعد... الذين لم تلقهم بعد ينتظرون دورهم كي يصيروا ممن لا يفهمون..

ـ «الصداع يوشك أن يقتلني».

الصداع وآلام المعدة جزء من أسلوب حياة هاته الفتيات.. من خبرتي الطبية أعرف أنهن يصبن بالصداع قبل أن يعرفن أن لديهن رأسًا..

تمشي معي سلمى في الشارع فيجري وراءنا ذلك الطفل الحافي ممزق الثياب ويطلب منها بعض المال، فتشخط فيه وتحمر عينها حتى ليوشك الشرر أن يخرج منها.. ثم تواصل كلامها معي:

ـ «الناس قد تغيرت والنفوس لم تعد كما كانت. لي صديقة كنت أحبها وتحبني ثم تغيرت ونقلت عني كلامًا كاذبًا لواحدة أخرى، وهذه الأخرى كانت قد نقلت عني كلامًا لواحدة أخرى غير الواحدة الثانية.. قالت عني كلامًا سيئًا لكنه وصلني عن طريق صديق».

نقف على باب كافتيريا، هنا نرى قطة صغيرة تموء من الجوع

ويبـدو أن سـيارة يقودهـا وغـد مـا قـد هشـمت سـاقها الأماميـة.. تقـول (سـلمى) وهـي تفتـح بـاب المطعـم:

ـ «أنـا أحـب القطـط الصغـيرة لأنـني مرهفـة الحـس... كنـت أحـكي لـك عـن صديقـتي.. لا أعـرف كيـف سـمح لهـا ضميرهـا بذلـك، ولا كيـف اسـتباحته لنفسـها. قطعـت علاقـتي بهـا لكـن الجـرح مـا زال يـنزف...».

نجلـس إلى مائـدة في الكافتيريـا وأطلـب السـاقي.. نرفـع رأسـينا للتلفزيـون المعلـق هنـاك والـذي يعـرض مشـاهد مـن نـشرات الأخبـار. هنـاك مـن يبكـون ويصرخـون والـدم يـنزف مـن جراحهـم في حـرب غـزة.. ثـم تنتقـل الكاميرا إلى ضحايـا حـادث قطـار ممزقـين في روسـيا.. ثـم نـرى مشـاهد مـن اضطرابـات كينيـا.. يقـول التقريـر إن القتـل والاغتصـاب في كل مـكان هنـاك..

أطلـب مـن السـاقي أن يحـول القنـاة.. لـو كنـا قـد جئنـا هنـا كي نتعـذب فمـن الأسـهل أن نفعـل ذلـك مجانًـا في بيوتنـا، لكـن سـلمى تواصـل الـكلام وهـي ترمـق الشاشـة:

ـ «لقـد تخـلى عـني أعـز إنسـان عنـدي وهـو مـن وثقـت بـه جـدًا، فنقـل عـني كلامًـا محرفًـا لطـرف ثالـث لا يهمـك أن تعرفـه.. ومـا أندهـش لـه هـو كـون النفـوس تتغـير مـن لحظـة لأخـرى..».

ثم بدأ الدمع يتجمد في عينيها..وهمست:

ـ «مشـكلتي هـي أنهـم لا يعرفـون كـم أنـا حساسـة.. أبي لا يفهـم هـذا.. أخـي لا يفهـم هـذا.. أنـت لا تفهـم هـذا..».

عندمـا خرجنـا أخـيرًا بعـد نصـف سـاعة كان رأسي يرتـج مـن الداخـل مـن فـرط مـا سـمعته، وشـعرت بأنـه يـزن طنـين وأن سـاقي لا تتحمـلان وزن رأسي..

كانت القطة الصغيرة الجائعة تنتظرنا على الباب فركلتها (سلمى) ركلة قوية بطرف حذائها لتبعدها وقالت:

ـ «أنا أحب القطط والأطفال فعلاً.. أحيانًا أشعر بأنني ملاك مرهف جاء من عالم آخر إلى هذا العالم الذي يعج بالشياطين.. ألا ترى هذا معي؟».

(هذا المقطع من قصة قديمة لي ولا علاقة له بالواقع على فكرة!)

***

ثمة مقولة لأوسكار وايلد على لسان بطل من أبطال قصصه: «الإنسان الحساس هو الشخص الذي لأنه يشعر بألم في قدمه، لا يكف عن وطء أقدام الآخرين». كالعادة هذا الرجل عبقري. لقد قدر لي الحظ أن أتعامل مع عدد هائل من الحساسين في حياتي، وكنت أعتبر نفسي منهم في فترة من الفترات، لكني وجدت أن معظم الحساسين الذين نقابلهم هم أولئك الأشخاص المنغلقون على ذواتهم.. يلتهمون أنفسهم طيلة الوقت ويرونها محور الكون. مهمتهم أن يشعروا الآخرين أنهم أوغاد وأن يمنحوهم الشعور بالذنب وعدم الراحة للأبد.. يمكنهم أن يسهروا عدة أيام يبكون من أجل كلمة غليظة قيلت لهم، وفي هذا نوع عارم من التلذذ الماسوشي المريض.. لكني تعلمت كذلك أنهم قد يرون طفلاً يموت جوعًا في نشرة أخبار فلا يهتزون شعرة، بينما كنت أحسب الشخص الحساس هو الذي لا ينام بسبب آلام الآخرين..

ها هو ذا الواحد منهم يجلس وحده حزينًا دامع العينين يتذكر في استمتاع مرعب كل الإساءات التي سببها الناس له.. كم

هـو رائـع شـفاف.. لا يوجـد شيء جيـد في العالـم.. لا يوجـد شيء جميـل.. السـعادة لا وجـود لهـا عـلى الإطـلاق.. كـم أن هـذا رائـع.. كـم أن هـذا ممتـع!

عندمـا أراجـع المدونـات الـتي تكتبهـا الفتيـات أو الأسـماء الـلاتي يسـتعملنها في المنتديـات وبرامـج الثرثـرة (الشـات)، فإنـني أندهـش مـن الصـورة الـتي ترسـمها الفتـاة لنفسـها عندمـا تتخـذ اسـمًا.. المـلاك الحسـاس... بسـكويتة.. القطـة الشـقية.. الحلـوة..

نرجسـية لا توصـف.. وإعجـاب بالنفـس لا حـد لـه. مـن الصعـب أن تقنـع نفسـك بـأن هـذه الفتـاة تخاطـب نفسـها وإنمـا تحسـبها عاشـقًا يغـازل فتـاة.. فقـط العاشـق هـو من يطلـق على حبيبته اسـم (القطـة الشـقية) أمـا أن يطلـق الشـخص عـلى نفسـه هـذا الاسـم، فتـصرف غريـب يـدل عـلى أنـه يعـاني حالـة عشـق للنفـس مفرطـة.. والسـبب معـروف هـو أن كل تلـك الفتيـات حساسـات كذلـك!، لهـذا أحمـل احترامًـا شـديدًا للبنـات الـلاتي يطلقـن عـلى أنفسـن أسـماء مثـل (بنـت عبيطـة) و(مصاصـة الدمـاء) و(النبـات السـام).. الـخ..

ثمـة صديقـة أرسـلت لي خطابًـا مهذبًـا تطلـب فيـه أن أكـون لهـا صديقًـا وأبًـا، فـرددت عليهـا بأنـني أرحـب طبعًـا.. هـل يمكنـك قـول شيء آخـر؟.. هنـا جـاء ردهـا: «هـل فهمـت مـا أعنيـه؟.. أنـت كنـت مهذبًـا وبرغـم هـذا واضـح أنـني لا أمثـل لديـك أيـة أهميـة!».

رددت عليهـا في شيء مـن الحـدة قائـلاً: « أرجـو أن تكـوني مـكاني.. لـم نتبـادل سـوى خطـاب واحـد فصـارت هنـاك مشـاكل سـوء فهـم و(قعـدات صلـح).. الـخ. فعـلا أنـا مـررت بهـذا الموقـف ألـف مـرة مـن قبـل. قلـت إنـني سـأكون أبًـا لـك وهـذا يشرفـني، لكنـك تردين بأنـني لا أهتـم.. طيـب.. مـاذا أفعـل؟.. وفي النهايـة أنـا أعـرف مـا سـينتهي لـه الأمـر: كنـت أحسـبك تختلـف عـن الأغبيـاء الآخريـن،

لكن للأسف أنت مثلهم أو ألعن.. نفس الرسالة تلقيتها ألف مرة من قبل ونتيجتها واحدة حتمية. يذكر د. (عادل صادق) تحت عنوان (ألعاب نفسية) نفس اللعبة، ويقول إن نهايتها أن تشعر بأنك غبي لا تفهم والطرف الآخر يستمتع بشعور أنه حساس لا يفهمه أحد! بصراحة الحياة أبسط من هذا.. أنا تحت أمرك في أي شيء. فقط أتمنى من الشخص الحساس أن يرفق بالآخرين كذلك وأن يحاول أن يفهمهم ولو مرة كما يطالبهم بفهمه..».

الإنسان الحساس يدوس بلا توقف على أقدام الآخرين.. «لا أحد يفهمني.. كلهم أوغاد.. إن ما حدث لي هو شيء فريد لم يحدث مثله من قبل ولا من بعد».. باختصار هؤلاء القوم مرهفو الحس هم زبانية الحياة الدنيا.. يعذبون المحيطين بهم بلا توقف..

ما سيحدث لك يا صديقي الشاب هو أنك ستبحث عن فتاة حساسة، وأنت تشعر بأنك الفارس الشجاع الذي سينقذها من كل هؤلاء الأوغاد.. بعد أعوام ستكشف أنك قد صرت من هؤلاء الأوغاد!. لا تصدقني؟.. إذن نلتقي بعد عشر سنوات لتخبرني أو تخبر قبري بما حدث لك!

لعبة لاثنين

أحزنني بشدة حادث ذبح تلك الزوجة والأم المصرية المحجبة الوديعة على يد خنزير ألماني عنصري متعصب. أعتقد أنها من الحوادث القليلة التي أشعرت كل بيت في مصر بأنه فقد واحدة من بناته. أمقت التعصب بجنون.. بل إنني متعصب في كراهيتي للتعصب، وهذا الحادث يمثل كل شيء أمقته وأحتقره في الحياة.

هناك دائمًا طرف يحتكر الصواب، ويؤمن أن الطرف الآخر الذي لا يشبهه آثم ووجوده على قيد الحياة جريمة في حد ذاتها، وما فعله ذلك الخنزير الألماني هو أنه رأى أن المرأة المحجبة لا حق لها في الحياة لأنها لا تشبهه، وهو ما نكرره نحن يوميًا على نطاق أضيق.

عرفت دومًا طرفي الطيف وتعاملت معهما.. أذكر أن هناك من علق على قصص (ما وراء الطبيعة) في شك قائلاً: «لماذا لا تضع آيات قرآنية وأحاديث شريفة في القصة؟.. هه؟». السبب ببساطة هو أن السياق لابد أن يتطلب ذلك، دعك من المرة الوحيدة التي نشرت فيها نص آية قرآنية (نسختها من المصحف نسخًا بداعي التدقيق) فأخطأت المطبعة في جمعها، وما زالت القصة في الأسواق بما فيها من خطأ شنيع مقترن باسمي طبعًا، ولهذا قررت ألا أنشر أية آية مرة أخرى أو أكتفي بذكر رقمها واسم السورة. على الطرف الآخر ذكرت في إحدى القصص أن (رفعت) صلى الفجر، فقال لي صديق آخر في ذكاء الخبير: «كف عن تملق القراء!.. هذا السطر موضوع بالذات لاستجلاب مرضاتهم، ولا أشك في أن هناك قارئًا طلب منك ذلك فكتبته!». هكذا تجد

تربصًا وتحرشًا من الجهتين.. أنت لست متدينًا بما يكفي.. أنت لست علمانيًا وشجاعًا بما يكفي..

يشكو اليساريون دومًا من تعصب الطرف الآخر واحتكاره للحقيقة، لكن هذا الكلام يصلح في الاتجاهين معًا. فلو أنك أبديت نوعًا من الإعجاب بالحجاب فأنت قد وثبت وثبة واسعة للخلف وللماضي.. والأسوأ لو أنك أبديت إعجابًا بالنقاب.. وهكذا تجد أن لدينا على الطرف الآخر (أيمن ظواهري) آخر، لكنه ليس ملتحيًا بل يدخن الغليون ويقرأ (كافكا) و(سارتر)، ويتحسس مسدسه كلما سمع كلمة (تدين). أذكر غضبة المثقفين على المخرج العظيم (صلاح أبو سيف) عندما قدم فيلم (فجر الإسلام). (صلاح أبو سيف) ذو ميول اشتراكية لم يخفها يومًا، لكن من حقه أن يعجب بموضوع ذي صبغة دينية أو يجد في أيام الإسلام الأولى ما يروق له من تحيز للمهمشين والفقراء.. هذا من حقه، لكنهم لم يغفروا له هذا قط واعتبروها سقطة مروعة، واعتبروا الفيلم أسوأ أفلامه.. هناك دومًا تهمة (الرجعية) أو (الانحياز الأيديولوجي).. والحقيقة أن لعبة الحرية يجب أن تمارس بنفس القوانين مع الفريقين، وأول من يستخدم شيئًا غير عقله وقلمه ولسانه يطبق على نفسه قاعدة (لا حرية لأعداء الحرية).

لست ذا ثقافة دينية متبحرة، ولا أحب أن أتدخل فيما لا أعرفه جيدًا. إن الطب والقانون والدين مجالات يعتبر كل إنسان نفسه خبيرًا فيها، وهذا يثير غيظي. ولهذا السبب لا أستطيع أن أدلي برأيي في فرضية النقاب. أستريح كثيرًا للحجاب الشرعي الذي نعرفه والذي يذكرنا بزي الفلاحة المصرية، فهو يوحي بالنظافة والطهر، وهو بالطبع يختلف عن حجاب جواري

السلطان الشائع اليوم، حيث تلبس الفتاة أضيق وأفحش مما تلبسه أية فتاة غربية ثم تضع قطعة قماش مزينة بالترتر على رأسها، وتعتبر نفسها محجبة وتنعي تدهور الأخلاق في المجتمع. بالنسبة للنقاب أميل لرأي ذكي للشيخ الغزالي يقول فيه: لو كان النقاب فرضًا فلماذا يأمرنا الإسلام بغض البصر؟.. عن أي شيء تغض البصر في مجتمع من المنتقبات؟.. دعك من الأبعاد الإنسانية والأمنية للنقاب طبعًا، حيث يصعب عليك أن تتأكد من شخصية من تتعامل معه..

كانت هذه الخواطر في ذهني، وأنا أحضر حلقة دراسية (سيمنار) عن تشخيص أمراض القلب بالموجات فوق الصوتية، وهو موضوع لا أعرف عنه شيئًا بحكم بعده عن تخصصي. كانت الأستاذة الجامعية التي تقدم السيمنار منتقبة. كانت بارعة فعلاً وقد جعلت هذا الموضوع المعقد يبدو شديد السلاسة والمنطقية. أثناء كلامها دوى آذان الظهر فتوقفت لبضع ثوان ورددت بعض مقاطع الآذان، ثم عادت للشرح.. هكذا بلا مغالاة أو إفراط..

بعد نصف ساعة لم أعد أتابع ما تقول.. كنت أفكر: ما هي المشكلة إذن؟.. هذه سيدة محترمة تجيد عملها، ومن الواضح أن ثيابها لم تعقها عن أداء واجبها أو لعب دور مهم في المجتمع.. إنها تعرف ما تتكلم عنه وتنقله بأمانة لمن لا يعرفون.. والنتيجة هي أن تقنية غربية بالغة التقدم تتحول إلى خبرة عادية للطبيب العربي الشاب.

الحقيقة أنك عندما ترى فتاة منتقبة تفترض تلقائيًا أنها لا تؤدي عملها جيدًا أو لا تقدر على أدائه، وانها تمثل بالضبط ضد العلم وضد الحضارة. لكن هذه الطبيبة تبرهن لي على

أنـني مخطئ وأنـني – مهمـا زعمـت – لعبـت بـدوري لعبـة التعصب..

مـن حقهـا إذن أن تلبـس مـا تريـد وهـذا صميـم حريتهـا الشـخصية، بـشروط أعتقـد أنهـا تحققهـا فعـلاً:

١- أن تـؤدي عملهـا جيـدًا وأن تعـرف قيمـة العلـم وتحترمـه؛ فـلا تدعـو لنبـذ الإنسـولين مـن أجـل البردقـوش، ولا تقـضي الوقـت في الدعايـة لقطـرة العيـون المستخلصة مـن العـرق والـتي تعالـج داء الكاتاراكـت، بينمـا كل أسـتاذ عيـون حقيقـي يعـرف أن هـذا كلام فـارغ.

٢- أن تكـون عادلـة وأن تعامـل (إيريـني) و(فكتـور) وتمتحنهما عـلى قـدر العلـم الموجـود في رأسـيهما وليـس عـلى حجـم وشـم الصليـب عـلى معصميهما.

٣- ألا تتعـالى عـليّ باعتبارهـا ضمنـتْ مكانهـا في الجنـة وضمنـتْ مـكاني في النـار. يجـب ألا تتكلـم باعتبـار كلماتهـا مقدسـة مـا لـم تكـن تسـتعمل نصوصًـا مقدسـة طبعًـا.

هل حققت لنا هذه الشروط؟

نعم؟

إذن لمـاذا الضوضـاء بـالله عليـك؟ ولمـاذا لا نتكلـم عـن شيء آخـر أكـثر نفعًـا؟

بالفعـل نحـن لا نكـف عـن افتعـال المعـارك والبحـث عن المشـاكل في كل شيء.. لا نكـف عـن ركل الغبـار ليعمـي عيوننـا. دعنـا مـن النقـاب لأنـه موضـوع ذو حساسـية خاصـة، ولنتكلـم عـن الحجـاب العـادي.. كانـت هنـاك مشـاكل عنيفـة حـول الحجـاب فيمـا سـبق، برغـم أنـك لـو لـم تعتـبره زيًـا دينيًـا فهـو يوشـك عـلى أن يكـون زيًـا

شـعبيًا للمـرأة العربيـة.

في حفـل الأوسـكار الـذي نـال فيـه (أ. رحمـن) أوسـكار أفضـل أغنيـة وموسـيقا تصويريـة، كان يلبـس ثيابًـا هنديـة بالغـة الأناقـة، والنسـاء كـن يلبسـن السـاري مـع لمسـة عصريـة محببـة.. تخيـل كـم كان سـيبدو سـخيفًا كالقـرد لـو ارتـدى بذلـة السـهرة والبابيـون مثـل الباقـين.. بزيـه الهنـدي بـدا أكـثر أصالـة وأناقـة وتميـزًا... لا أحـد يتكلـم عـن الهنديـات الماشـيات بالسـاري في عواصـم العالـم، ولا عـن سـائقي تاكـسي نيويـورك السـيخ ذوي العمامـة الضخمـة.. لا أحـد يتكلـم عـن طاقيـة اليهـود ولا شـيلوار الباكسـتانيين ولا كلتيـة السـكوتلنديين. فمـا هـي المشـكلة في أن تلبـس المـرأة العربيـة هـذا الـزي الـذي يعـبر عـن تراثهـا وشـخصيتها وثقافتهـا؟ وهـل تضمـن لي أن التخـلي عـن الحجـاب يحقـق التفـوق ونهضـة الأمـة واسـترجاع لـواء الأسـكندرونه؟

ومـن جديـد أنـا لا أنحـاز إلا لمـا يـروق لي، ولا أحسـب نفـسي عـلى أي طـرف مـن الأطـراف، وهـذه هـي المشـكلة وعليـك أن تتحمـل النتائـج.. أنـت لا تصـير صديـق الجميـع أبـدًا وإنمـا أنـت مهـدد دومًـا بـأن تخـسر الجميـع!

أن تكتب في البيت...

أنا أكتب في البيت..

الأمـر يعـود لمشـكلة ضميريـة، تتعلـق بـترك زوجـتي وحدهـا مـع وحشـين صغيريـن مفترسـين لا يكفـان عـن العـراك والشـكوى والطلـب. هـذه قسـوة لا توصـف.. كل مؤلـف أعرفـه لـه مـكان منعزل هـادئ يكتـب فيـه، ومنهـم مـن لجـأ إلى المقابـر مثـل عمنـا العبقـري خـيري شـلبي. لكـني مـا زلـت أجـد نوعًـا مـن التحذلـق والإدعـاء في أن أتـرك البيـت كل صبـاح وأذهـب للكتابـة ثـم أعـود في المسـاء.. يعـني دستويفسـكي يـا خـي؟.. دعـك بالطبـع مـن أن زوجـتي سـتجد الفكـرة سـخيفة.. أوشـك أن أسـمعها تقـول لصديقتهـا عـلى الهاتـف:

ـ «البيه واخد شقة لنفسه عشان يكتب!.. آل يكتب آل!».

ومـن قـال إن سـمعة الرجـل غـير مهـددة، وإنهـا ليسـت كعـود الثقـاب الـذي لا يشـتعل إلا مـرة واحـدة؟.. إذا كنـت تعتقـد أن هـذا الـكلام للنسـاء فقـط فأنـا أهنئـك.. أنـت سـتكون أديبًـا عظيمًـا..

هكـذا أقـرر أن أكتـب في البيـت، وهنـا تـأتي المشـكلة التاليـة: لقـد اعتـدت الكتابـة عـلى الكمبيوتـر، بحيـث صرت فعـلاً أجـد عـسرًا في الإمسـاك بالقلـم، وهنـاك في البيـت جهـاز كمبيوتـر واحـد.. والسـبب؟.. أعتقـد دومًـا أنـه مـن الخطـر تـرك مراهـق وحـده مـع جهـاز الكمبيوتـر خاصـة في عـصر الإنترنـت، حيـث يكفـي أن تكتـب بضعـة حـروف مثـل (وْبيبيععتغقكبقبـغ) لتجـد نفسـك في ألعـن موقـع بورنـو عرفتـه الشـبكة. أكتـب (vdsrsrhgdgdhgdmmnnnb) ولسـوف تجـد نفسـك في موقـع لهـواة أكل لحـوم المـوتى بعـد

اغتصابهم، أو موقع لهواة العلاقات المشينة مع سحلية الأجوانا. ذات مرة تركت ابنتي الصغيرة تلعب أمام الكمبيوتر وخرجت.. عدت لأجدها توشك على استكشاف موقع قادها له إعلان تلو إعلان تلو إعلان.. أدركت في هلع أنه موقع مخصص للثرثرة بين المصابين بانحرافات جنسية.. هكذا لم أغلق النت.. أغلقت الجهاز والحجرة ذاتها وخرجنا نشم الهواء..

لا أثق في برامج الرقابة على الإنترنت مثل (سايبر باترول) و(نت ناني) لأن الثغرات تحدث.. لهذا أحب أن يستخدم أطفالي الجهاز وأنا بجوارهم والغرفة مفتوحة، ولنفس السبب لا أستعمل في البيت سوى جهاز كمبيوتر واحد فلا تحسبن أن البخل هو السبب.

المشكلة هنا أن الإنترنت مغرية جدًا ومليئة بالألعاب الشائقة.. والمشكلة الأسوأ أنني أستعمل ذات الجهاز للكتابة.. كل ما يختص بعملي أضعه عليه من أول قصة كتبتها حتى هذا المقال، ومن رسالة الماجستير حتى آخر بحث لم ينشر بعد. من هنا تنشأ كارثة في البيت..

إن ابنتي تدخل الحجرة.. تقف بجواري في ملل.. تعبث في الأقلام على المكتب.. تدور من حولي.. أسألها عما هنالك فتقول:

ـ «أنتظر أن تنتهي!.. أريد أن ألعب».

أقول لها إنني سأمضي وقتًا طويلاً جدًا.. لا أعرف متى أنتهي.

كيف كنا – معشر الكهول - نعيش من دون كمبيوتر؟ (عشت كذلك دون تلفزيون حتى سن العاشرة).. لابد أننا عشنا طفولة شبيهة بطفولة الكلاب إذن. التعبير على وجه ابنتي يوحي بأنني أحرمها حقها في الأكل والشرب أو التنفس.. أب قاس شرير أنا..

بعد ربع ساعة تنصرف آسفة، ليظهر ابني الذي يريد أن يكلم زملاءه على برنامج (مسنجر).. يدور في الغرفة ويجلس على المقعد ويعبث بالأقلام، ثم يسألني في ضجر:

ـ «ألا تنوي أن تخرج أو تنام؟».

ـ «نعم.. لاحظ أنني أقوم بالتأليف.. وهذا يستغرق وقتًا لأنه عملية خلق إبداعية ولا يوجد زر نضغط عليه كي.....».

لا يبدو راغبًا في سماع شيء عن آليات الإبداع.. يريد الجهاز فقط، ثم هو مقتنع أن الأمر ليس بهذه الأهمية والخطورة.. وأنا بالتأكيد لست تولستوي، وإلا لعرف هذا أو لرآني أصافح ملك السويد وأنا أتسلم جائزة نوبل.. لو كنت ناجحًا لهذا الحد فلماذا لم أبتع كمبيوتر آخر؟... يظل يراقبني لمدة طويلة ثم يسألني:

ـ «ألاحظ أنك لا تكتب أي شيء!».

أصيح في جنون.. أنا أفكر!.. أفكر!.. لست موظفًا في مكتب نسخ.. وكيف أفكر بينما هناك من يراقبني منتظرًا أن أفكر؟.. لو كنت (شكسبير) نفسه فلن أكتب حرفًا بهذه الطريقة..

أنهض للحمام – وهو حق فسيولوجي كما تعلم - وأعود بعد دقيقة لأسمع الصخب، ولأجد سيركًا قد نُصب في مكتبي فلا ينقصني إلا أن أبتاع تذكرة على الباب.. بوم بوم كراش فززز!.. ابنتي تقهقه وابني يصرخ منتشيًا، بينما على الشاشة أرنب عملاق يطارد جرزًا يطير في كل مكان.. أو غزاة فضاء لونهم أخضر يطاردون بشرًا مذعورين.. المهم أن هناك الكثير من الـ (بوم بوم كراش فززز!)..

أسألهما وسط الضوضاء:

ـ «مللبسيسسسسس؟».

ـ «ماذا؟».

ـ «هل قمتما بتسجيل ما كنت قد كتبته؟».

ـ «لا..».

وبالطبع لا توجد طريقة للخروج من هذه اللعبة بالذات سوى بإطفاء الجهاز ونسف ما كنت أكتبه.

هكذا أصرخ فيهما وأطردهما كالذباب من الغرفة. طبعًا هناك حل ممتاز هو وضع مزلاج على الباب من الداخل، لكن زوجتي سوف تتضايق من هذا الحل باعتباري أسجن نفسي وأتركها وحيدة مع هذين الغولين الصغيرين.. لابد أنني أريد الشات مع البنات المايصة.. هي لا تحب الكمبيوتر ولا تستعمله وتشك فيه، وتعتبره كتلة من الانحراف والفساد الذي تم تجميده.. إذن لماذا يطالب زوجها بأن يجلس وحده مع هذا الجهاز الشنيع؟...

كما ترى ليس أمامي سوى حل المزلاج، أو حل شراء كمبيوتر خاص بالطفلين مع ما في ذلك من خطر، أو أن أجد مهنة أخرى غير الكتابة، أو أن أكتب في المقابر، أو أن أنتحر.. كلها حلول غير مرضية فهل عندك حل سادس؟

خصوصيتنا.. حماها الله

يكثر الكلام عن (خصوصية المجتمع المصري) و(خصوصية التجربة المصرية)، كلما طالب أحدهم بإصلاحات ديمقراطية أو تعديلات دستورية، وهنا تصيح الحكومة: «لنا خصوصية يا كابتن.. نحن لا يمكن أن نقلد الغرب تقليدًا أعمى». لكني بالفعل مقتنع بموضوع الخصوصية هذا في أمور أخرى غير الديمقراطية..

بالفعل نحن نسيج فريد بين شعوب العالم. الشعب الذي ينخفض عنده سعر الدولار فترتفع فاتورة الواردات.. تهبط أسعار السلع في العالم كله بسبب الأزمة الاقتصادية فتثب هنا.. تهرب المليارات للخارج ويجدد المسئولون مكاتبهم بالملايين، ثم تطالبك وسائل الإعلام بألا تشرب شايًا وأن تضع على الفول زيتًا أقل، وإلا فأنت سفيه وسبب الأزمة الاقتصادية. ولهذا نجد أن لنا خصوصية فعلاً وأن الحلول العالمية لا تناسبنا على طول الخط.. مثلاً يرى خبراء البنوك أن خفض سعر الفائدة حل مناسب للعالم، لكنه غير مناسب في مصر على الإطلاق..

الأسبوع الماضي هاجمت مباحث المصنفات شركة الكابل في شارعنا. بعبارة أخرى (لصوص الديش)، وهم مجموعة من الشباب يقومون باستخدام عدة مستقبلات ويشتركون في عدة شبكات، ثم يقومون بتوزيع باقة مختارة من القنوات على بيوت الناس والمحلات مقابل مبلغ شهري زهيد. يجب أن أوضح هنا وأؤكد إنني مشترك رسميًا في شبكة (آرت)، ومطيع جدًا لمشايخ الفضائيات الذين يوصون بعدم استعمال الوصلة التي تقلل من

أربـاح الشـيخ (صالـح). لكـن إذا فكرنـا في الموضـوع أكـثر مـن مـرة وجدنـا أن مـصر بحاجـة لاسـتثناء مـن هـذا الموضـوع.. أولاً هـذه الـشركات تمنـح فرصـة عمـل شريفـة لعـدد لا بـأس بـه مـن الشـباب، ولولاهـا لـزاد عـدد مـن يهاجمـون المـارة بمطـاوي قـرن الغـزال زيـادة فلكيـة. ثانيًـا هـي فعـلاً جعلـت الجميـع يشـاهد الجزيـرة ودريـم و(أنيمـال بلانـت) وحـتى القنـوات الدينيـة.. باختصـار تمـدد وعـي المشـاهد المـصري حـتى بائعـة الخـضر والجـزار والإسـكافي، وهـؤلاء مـا كانـوا ليهتمـون بـشراء ديـش طبعًـا. فهـل هـذه هـي المشـكلة فعـلاً؟.. مشـكلة الفـرار مـن وضعيـة (المـخ داخـل وعـاء زجاجـي Brain in a vat) إلى العالـم الرحـب؟. الموضـوع ليـس حقـوق الملكيـة الفكريـة إذن وإنمـا هـو السـيطرة عـلى تدفـق المعلومـات.

فـإذا تركنـا الكابـل إلى عالـم الكمبيوتـر والبرمجيـات، لصادفنـا مشـكلة أخطـر.. مـاذا سـيحدث لمـصر لـو حُـرّم نسـخ البرامـج تمامًـا؟.. أعتقـد أن الـشركات الكـبرى تصـاب بالذهـول عندمـا تكتشـف أن مـصر كلهـا تتعامـل ببرامجهـا، بينمـا بيعـت نسـختان فقـط مـن كل برنامـج في مـصر كلهـا!. بعـض البرامـج الأصليـة ثمنهـا أغـلى مـن جهـاز الكمبيوتـر نفسـه، وقـد أصابـني الهلـع عندمـا قمـت بحسـاب ثمـن نسـخة أصليـة مـن النوافـذ ونسـخة أصليـة مـن مكتـب ميكروسـوفت ونسـخة أصليـة مـن مضـاد فيروسـات. مـاذا سـيبقى في مـصر وإلى أيـن سـتذهب ثقافـة الكمبيوتـر لـو تعاملنـا مـع القانـون حرفيًـا؟.. حـتى الكمبيوتـر في مباحـث المصنفـات عليـه برامـج منسـوخة.. مسـتحيل أن يحـدث العكـس.. للأسـف نكتشـف هنـا أن القرصنـة جعلـت كل شـاب في مـصر يجيـد اسـتعمال الكمبيوتـر والإنترنـت.. صحيـح أنـه غالبـا اسـتخدام خاطـئ غـير مفيـد، لكنـه شـأن لغـة الـكلام.. قـد تسـتعملها للسـباب أو للوعـظ.. المهـم أن تتكلـم أولاً..

وماذا عن سرقة الكتب؟.. قبل أن تتكلم تذكر أنني من أوائل المتضررين من سرقة الكتب على النت، ومبيعاتي قد انخفضت بشكل كبير، لهذا أتكلم وأنا أعرف مشاعر الضحية. إن القراء على النت لا يعرفون أنهم يذبحون الدجاجة التي تبيض، وأن مشروع الروايات نفسه صار مهددًا، لكني برغم هذا أرى أن المبدأ ليس مرفوضًا بالكامل بالنسبة للكتب الغربية الممنوعة أو النادرة أو باهظة الثمن جدًا.. أنا أتكلم إذن عن نتاج الفكر الغربي بالذات.. أرجو أن تحاول حساب المبالغ التي يدينون بها لنا مقابل كل ما سرقته بريطانيا وفرنسا من قطن وآثار لا تقدر بثمن.. بكم يقدر ثمن حجر رشيد وكم سعر رأس نفرتيتي والمسلة في ميدان الكونكورد؟. بكم كل النفط الذي سرقوه من دول الخليج وأجور العمال الذين حفروا قناة السويس، وأجور العبيد الأفارقة الذين خطفتهم الولايات المتحدة ليعملوا في حقول القطن هناك؟. ليس السارق الوحيد هو من ينسخ كتابًا متداولاً على الإنترنت. وعلى كل حال كم يشكل من يقرءون باللغات الغربية في العالم العربي؟.. وما تهديدهم لأرباح الكاتب الذي لا يضعهم في الحسبان أصلاً؟.. عندما جاء (باولو كويليو) إلى مصر يرغي ويزبد مطالبًا بأرباح رواية (السيميائي) تبين له أن الأمر لا يستحق هذه الضوضاء، وأن القرصنة على روايته جعلت كل قراء العربية يعرفونه.. لهذا لم يتخذ أي إجراء قانوني وعاد لبلاده. أي أنه تبنى منطقي هذا في النهاية..

الأفلام كذلك عالم آخر.. إن سيد السرقة في العالم شخص مجهول لا يعرف أحد على النت جنسيته ولا اسمه ولا وجهه، لكنه يرمز لنفسه باسم Axxo.. إنجليزيته بها بعض الأخطاء مما يشي بأنه لا يتكلم الإنجليزية أصلاً. طبعًا لو عرفوا وجهه لمزقوه إربًا ولرفع المنتجون عليه قضايا بالمليارات. هذا الرجل هو روبين

هـود العـصر الحديـث الـذي يأخـذ مـن المنتجـين الأثريـاء ليعطـي المشـاهدين الفقـراء، وقـد اختفـى لفـترة فتصاعـدت الصلـوات والابتهـالات عـبر النـت تدعـو لـه بـأن يعـود.. هـذا الرجـل جديـر فعـلاً بفيلـم كامـل ينتمي لقصـص السـايبر بانـك، ولا أعـرف لمـاذا لـم يفكـر أحـد في ذلـك حـتى اليـوم. البديـل لهـذا هـو أن تشـتري الأفـلام الأصليـة بمبلـغ لا يقـل عـن ١٨٠ جنيهًـا للفيلـم الواحـد.. طبعًـا مسـتحيل. أنـا أجـد أن المشـاهد الغـربي لـن يُرهـق كثـيرًا بدفع مبلـغ كهـذا، وفي الوقـت ذاتـه هـو يضـخّ المـال الـكافي كي تسـتمر العمليـة الإنتاجيـة، فيقـدم الفنانـون مزيـدًا مـن الأعمـال الجيـدة. لكـن الأمـر يختلـف في مـصر بسـبب خصوصيتهـا الـتي تكلمـت عنهـا، وعـلى كل حـال جمهـور السـينما هـو جمهـور السـينما لـم ينكمـش. بينمـا صـارت لـدى الشـباب المـصري ثقافـة سـينمائية لا بـأس بهـا تتضمـن السـينما الصينيـة والألمانيـة والفرنسـية واليابانيـة وقـد أثـروا تجربتهـم فعـلاً، وهنـاك أكـثر مـن مخـرج مـصري شـاب تكونـت ثقافتـه مـن السـينما المكسـيكية بالـذات.. وأكـرر أنـني أتحـدث عـن فـن السـينما الحقيقـي وليـس عـن (مشـهد لا يفوتكـم.. تعالـوا لتشـاهدوا الفنانـة عزيـزة جُنَـح عاريـة في الفـراش مـع الفنـان سـيد سـوابق). هـذا النـوع مـن الثقافـة لا يلزمنـا ولـن نخـسر الكثـير لـو حُرمنـا منـه!

القضيـة معقـدة فعـلاً.. لكـن اتهـام القراصنـة بأنهـم قراصنـة ليـس الحـل الأمثـل للمشـكلة، ومعظـم مـن يتكلمـون عـن الأمانـة يكتبـون آراءهـم هـذه عـلى أجهـزة كمبيوتـر عليهـا نسـخ مسروقـة مـن مكتـب ميكروسـوفت والنوافـذ. هنـاك دول سـتغرق بالكامـل في مسـتنقع الجهـل لـو طبقنـا عليهـا القانـون حرفيًـا.

مـا أراه هـو أن دخـل الفـرد في الدولـة يجـب أن يكـون هـو

مقيـاس التعامـل مـع هـذه الجرائـم... دخـل الفـرد ووضـع الدولـة الاقتصـادي ومـؤشرات التنميـة بهـا، بنفـس المنطـق الـذي عطلـت فيـه الحـدود في عـام الرمـادة والقيـاس مـع الفـارق طبعًـا. بـل إنـني أدعـو إلى أن تتبـنى الدولـة عمليـة القرصنـة هـذه فتوفـر هـذه المصـادر بسـعر رخيـص للنـاس، وتسـدد جـزءًا مـن حقـوق صاحـب الملكيـة الفكريـة.

نعـم.. إن لنـا خصوصيـة لا شـك في هـذا.. خصوصيـة في ظـروف الفقـر وفي معيشـة النـاس، لهـذا أطالـب بخصوصيـة في تطبيـق هـذه القوانـين.. فـإذا أرغمتنـا الاتفاقـات الدوليـة عـلى العكـس فإنـني أطالـب بأجـور العمـال الذيـن حفـروا قنـاة السـويس (عـلى دايـر مليـم).

الفهرس

المقدمة..... 5

القسم الأول: وفيه حديث عن سياسة البلاد،وما استجد في حياة العباد..... 7

نعيب زماننا..... 9

البحث عن ام أنس 23

غنوة وحدوتة..... 29

خالدنا وخالدهم 35

مزاج عال جدًا..... 41

الوحش داخل الإنسان..... 47

عباس مش جدع! 53

رجل لا يغيب..... 59

حسب الهوية..... 65

تريد حلًا..... 71

في غير حالة الخطر 77

ركاب سوارس..... 83

القسم الثاني:وفيه حديث عن توحش الإعلام ،وتأثير ذلك على عقول الأنام 89

رجل واحد أمين..... 91

المجد للكراهية 101

عن سوبر مان الجديد 107

الطريف في فنون التجديف..... 117

حمي عدم اليقين..... 123

لا تكن ساذجًا..... 129

القسم الثالث: وفيه حديث طيب كالعنبر،عن الفنون وحفلات الأوسكار 135
(سلام بومباي) بشكل آخر..... 137
أفاتار: الرقص مع الذئاب الفضائية..... 143
فالس مع البشير: صبرا وشاتيلا بعيون إسرائيلية..... 149
قرص مهديء قبل المشاهدة.. 153
إعترافات..... 161
مثل الجذمور بالضبط..... 167
إبداع حتى النخاع..... 179
القسم الرابع: ويحوي تأملات.. لا تخضع لأي تصنيفات..... 189
ديجافو..... 191
أنا لم أتغير.. الحياة تغيرت..... 197
ملاك حساس .. يا للكارثة!!..... 201
لعبة الأثنين..... 207
أن تكتب في البيت..... 213
خصوصيتنا.. حماها الله..... 217

فـي **كيـان للنشـر والتوزيـع**، هدفنـا نشـر كـل إنتـاج إبداعـي، جودتـه عاليـة، وأفـكاره أصيلـة، فـي مختلـف مجـالات الأدب والسياسـة والصحافـة والفـن، باللغـة العربيـة والإنجليزيـة. نهتـم بالمواهـب، ونرعاهـا، ونتيـح لهـا فرصـة الوصـول للقـارئ العربـي، مـع مراعـاة أفضـل معاييـر الجـودة والاحترافيـة فـي النشـر.

رسـالتنا فـي كيـان، تشـجيع حـب القـراءة والكتابـة فـي مصـر وعالمنـا العربـي، وتطويـر مهـارات الإبـداع، وتعزيـز ثقافـة التميـز والابتـكار. كُتَّابنـا موهوبـون، متمرسـون، مصريـون، ومـن جميـع أنحـاء الوطـن العربـي، وإصداراتنـا متنوعـة، متميـزة، مختلفـة. دائمًـا نرحـب بالكتـاب الشـباب، والمواهـب الجديـدة، ونعطـي فرصـة متسـاوية للجميـع؛ لأن مرادنـا هـو الارتقـاء بفنـون الأدب العربـي ككـل، والوصـول بالإنتاجـات الابداعيـة العربيـة إلـى العالميـة .

لـو تحـب **تراسـلنا**، لـو عنـدك استفسـار، لـو حابـب ترسـل لنـا إنتاجـك الأدبـي، سـواء كـان روايـة، أو شـعر، أو مقـال، باللغـة العربيـة أو الإنجليزيـة، مـا تترددش.

ابعـت لنـا علـى:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing